

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية أصول الدين

قسم: العقيدة ومقارنة الأديان

شعبة: العقيدة

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

–قسنطينة–

الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي

مذكرة مكتملة لنيل شهادة الماجستير في العقيدة

إشراف الأستاذ الدكتور:

سعيد عليوان

إعداد الطالبة:

سهيلة مازة

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الصفة	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية
أ.د. منصور عفيف	رئيسا	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر
أ.د. سعيد عليوان	مشرفا ومقررا	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر
أ.د. عبد الوهاب فرحات	عضوا	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر
أ.د. كمال جحيش	عضوا	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر

السنة الدراسية: 1432-1433هـ/2011-2012م

شكر وحرمان

الحمد لله على فضله ونعمائه، والشكر على توفيقه القائل في محكم تنزيله:

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. [إبراهيم: 7]

وعملا بقول رسول الله ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله».

أتقدم بجزيل الشكر وخالص الامتنان إلى الأستاذ المشرف الدكتور سعيد

عليوان على توجيهاته المنهجية وملاحظاته العلمية.

كما أشكر كل من كانت له يد المساعدة في هذا البحث مادية كانت أو

معنوية من قريب أو من بعيد، وإلى كل من شجعتني بالكلمة الصادقة

والدعاء الخالص وبارك لي هذا العمل.

سهيلة مازة

الإهداء

إلى روح اللذين أوصانا الله بالدعاء لهما والترحم عليهما قائلاً:

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمَهُمَا﴾

كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿[الإسراء: 24]

إلى روح اللذين سهرا على حسن تربيتي وتعليمي وأمداني
بالعطف والحنان والقوة والدعاء.

إلى روح اللذين غرسا في قلبي وعقلي، كريم الخلق، وحب
العلم، وشجعاني على تحصيل أعلى مراتبه.

إلى أمي وأبي رحمهما الله.

إلى روح الحاجة فلة رحمها الله.

إلى زوجي الكريم بدر الدين، وإلى أبنائي الأغزاء محمد أيمن
محمد إقبال، عبد الودود، وحاتم أنيس.

إلى روح محمد الغزالي الطاهرة.

أهدي هذا العمل.

سهيلة مازة

حفظ القصة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله حمد الشاكرين بجميع محامده كلها على جميع نعائمه كلها حمدا مباركا كثيرا طيبا
والصلاة والسلام على نبي الأمة ورسول الهدى صلاة دائمة مباركة إلى يوم الدين... أما بعد.

خلق الله الإنسان في الأرض واستخلف فيها، والاستخلاف عن الله أصل عقيدي يحدد رسالة
الإنسان في الأرض ويقرر كرامته، لذا خصه الله سبحانه وتعالى بكل مقومات الرسالة وعناصرها،
فنفخ فيه الروح عندما حمّله إياها بعدما نفخ فيه الروح؟ وخلق فيه استعدادات تؤهله لأن يكون في
مستوى هذه الأمانة، فدعمه بفطرة التدين والإيمان.

ومن الأهداف الكبرى لرسالة الإسلام، الارتقاء بالواقع الإنساني، لذا كانت العقيدة الإسلامية
دافعة للتحضر الإنساني، ذلك لأنها مبنية على أساس التوحيد الذي هو روح الدين حيث تنبثق منه
جميع حقائقه فكريا وسلوكيا ووجدانا، ولأن العقيدة هي درجة انتباه معينة تجعل النفس الإنسانية
(العقل البشري) تقبل على ربه بما تملك من قوى فتطبعه وتعبده بيقين، فيتحقق بذلك الارتقاء
والاستخلاف.

وبهذا الوصف، فإن عقيدة المسلم لا يمكن لها أن تنشأ في مجلس مناظرة عقلية مجردة، بل نشأ
من خلال غرسها في الأفتدة مع تواكب النشاط العقلي لها، فتثمر تصورا صحيحا وسلوكا عمليا
سليما.

والعقيدة الإسلامية نزلت صافية من عند الله ثابتة في أصولها ومبادئها، فتلقاها المسلمون (و لم
يختلفوا في شيء منها)، وبفضلها تسنى للجيل الأول أن يرقى أعلى القمم بطاقة إيمانية، أهله لإمكانية
تغيير التاريخ الإنساني، وقيادة حضارته.

ولما كان علم الكلام (علم العقيدة) هو علم الدفاع عن العقيدة فقد اعتمد علمائه.....على
تنبيت العقائد الإيمانية، ورد الشبهات التي أثارها أتباع الأديان والفلسفات بالوحي المعصوم عن

الخطأ، إلا أنه تأخر بعد ما آل حال المسلمين إلى الجمود والركود والانحطاط، ونزع هذا العلم إلى التجريد القوي، واعتماده الطابع الجدلي العقلي حتى اتسمى إلى أن يكون علما جافا لا حياة له، فلم يعن المسلم على بناء عقيدته وتقويم نفسه بقدر ما أعطاه القدرة العقلية والاستدلالية، وما زال المسلمون اليوم يحيون الجدل والنقاش حول مختلف القضايا المتنازع فيها قديما، فصاروا فرقا وشيعا وأحزابا لقوله تعالى ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾⁽¹⁾، فأحدث فوضي في مجال العقيدة انعكس على السلوك، فابتعد المسلمون عن الواقع وانشغلوا بصغائر الأمور عن أهمها.

وفي هذه الظروف العصبية قام علماء مخلصون بالعمل على الرجوع إلى الإلتزام بالعقيدة فأعادوا للأمة وعيها، وانطلاقا من إعادة النظر في كيفية عرض عقيدتها على ذاتها وعلى غيرها، فربطوا بين متطلبات العقل ورغبة الروح وتشوقها، فانتقل بذلك الفكر العقدي الحديث من حالة التجريد والجفاف والسكون إلى حالة الواقعية والحركة والتنوع والثناء.

ومن رحمة الله بعباده أن جعل في كل أمة أناسا ربانيين تتبين عن طريقهم شمولية القرآن وواقعيته، وعظمة السنة وعالمية رسالتها فيجددون معالم الدين ويبعثون روحه من جديد؛ وبذلك تنطلق بهم الأمة نحو النهوض والتحرر من قيد الغزو بأشكاله والعودة إل الأصل، ومن هؤلاء العلماء محمد الغزالي -رحمه الله- الذي كان مفكرا ومجددا ومصلحا، حيث استخدم أسلوبا جمع فيه بين إيجابيات المتقدمين وإضافات المتأخرين، وربط فيه بين الحكمة والشريعة والعقل والدين، فكان نموذجا للمجدد الإسلامي الذي قال عنه الرسول ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من

(1)- الروم، 31.

يحدد لها دينها»⁽¹⁾. رواه وأخرجه أبو داود في سننه.

فالغزالي من الذين أدركوا إشكالية علم العقيدة، إذ بحث في الوظائف الجديدة والأصلية، التي يمكن أن يكون عليها التوحيد، فدعا إلى ضرورة أن يحيا المسلم مؤمنا بوجود الله، يعيشه في نفسه وسلوكه وعمله.

ولا يمتري من له مسكة عقل أن محمد الغزالي قد اهتم بنقل دراسة العقيدة من التحكمات الشكلية واللفظية إلى إرساء منهج جديد لفهمها وتحديد معالمها، كما أدرك درس العقيدة ومنهجها الذي لا يتم إلا بتعميق فهم معاني مستويات الخطاب العقائدي الإسلامي، المتوجه للنفس البشرية بمختلف مستوياتها وإلى العقل البشري بدرجاته المتقاربة.

وبتبعنا لكتابات وحوارات محمد الغزالي، نجدها قد اشتملت على موضوعات وقضايا بنظرة وسطية ثاقبة، وفهم دقيق لأبعادها يميزها التجديد والاجتهاد، والتطور، كما نلتمس أسس منهجه التي يميزها الإيمان العملي، والعاطفة الروحية حتى يُظن أن الرجل متصوفا، وينهج طريق العقل والعلم كوجه للمعرفة حتى يظن أنه عقلي صرف متخذ في ذلك كله الوحي أصلا له، وبهذا يواكب النشاط العقلي النشاط الروحي فيكون إنسانا سويا متزنا.

ولا شك أن الدارس لكتب الغزالي، يلاحظ اهتمامه بصورة متميزة لعقيدة المسلم، وهو إن أفرد

(1) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب: ما يذكر في قرن المائة، دار الفكر، بيروت، ط 1، (1425هـ-2005م)، ج4291، ص799.

لهذا الموضوع كتابه "عقيدة المسلم"، فإنّ ذلك لا يعني على الإطلاق خلّو باقي كتبه من تناول هذا الجانب، بل نجده يعرضها (العقيدة) بطرق شتى تارة تكون إشارات، وتارة أخرى نجده يغوص فيها، مشيراً إلى أبعاد عميقة.

ولم يكن اهتمام الغزالي بالجانب العقدي (الإيماني) من محض الصدف، بل كان ينبعث من حسن إيمانه، ومن ثقافات عديدة، وعوامل كثيرة، أدى تلاحمها إلى بلورة ورسوخ هذا الجانب، في مختلف كتاباته، كذا ربطه بالجانب العملي والخلقي.

وإذا كنت أحاول تتبع ورصد العوامل التي دفعت بالغزالي إلى الاهتمام بذلك، إنما ابتغى إدراك مدى عمق تأثيرها عليه، وبلوغها به إلى هذا المستوى من الاهتمام، وقد خلصت في محاولتي هذه إلى جملة من العوامل معتقدة أنّها كانت وراء توجيه اهتمامات الغزالي نحو تصحيح الجانب العقدي من الفهوم الخاطئة، وردّها عن المسار الذي أدى إلى تجريد العقيدة من لبّها.

وسعيًا مني إلى إبراز جمود محمد الغزالي في جانب من جوانب الثقافة الإسلامية، تناولت موضوعًا تحت عنوان "الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي"، وهو موضوع المنافر اليوم من طرف أعضاء اللجنة الموقرة.

أما اهتمامي بفكر محمد الغزالي، فهو من قبيل تعريف أجيال الأمة بجهود هذا العالم، ووفاء للرسالة التي حملها، وهو أيضا من قبيل تكريم العلم والعلماء واعترافا بفضلهم أو نشر لعظائمهم، فقد كان أهلا للتكريم في حياته باعتباره علما في الفكر والعلم والدعوة، وأهلا للتكريم بعد مماته بتعريف الأجيال، وتوجيه الانتباه إليه للاستفادة من تراثه وتنشيط الدراسات حول فكره وتفعيلها في الواقع. وبالتالي فإن رجال مثل محمد الغزالي لا يسمح التاريخ لنفسه أن يمر عليهم دون تسجيل أعماله وجهوده وأفكاره على صفحاته من نور مقتبس من نور الإسلام الذي عمل لأجله.

أهمية الموضوع:

يعد الفكر العقدي للغزالي من الأهمية بما كان، فرغم كثرة اهتمام المفكرين بمختلف جوانب شخصيته الثرية، إلا أن الفكر العقدي عنده، وإبراز العلاقة بين طابعها العقلي والإيماني، ما زال بحاجة إلى دراسات مستفيضة بحكم كونه مدرسة متكاملة تنشق من إطار عقائدي ومعرفي شامل، إذ أنه عرض مواضيع العقيدة بطريقة تعتبر فيها تجديدا، حيث جمع بين طابعها السلفي من جهة، ومقتضيات العلم الحديث من جهة أخرى فيما يتعلق بالاستدلال، كما أنه خاض بالاستدلال في أعماق الروح وحماس العاطفة فيما يتعلق بالاعتناق، فظهر العقيدة مما لا تحتاج من جدل المحادلين و أضيف إليها من تنطعات بعض المتصوفين، وهو ما يجعله جديرا بالدراسة والبحث، كما ساهم في إعادة وضع أسس العقيدة الإسلامية بعيدا عن منازعات الفرق الإسلامية والفلسفات، ودافع عن الإسلام ضد المؤثرات الأوروبية والتحديات الداخلية والخارجية.

لذا كان البحث في فكره لا ينحصر في مجال الدعوى فحسب باعتباره داعية، بل يتعدى ذلك لأن هذا العلامة ما نجح من قبيل تكريم العلم والعلماء، واعترافا بفضلهم، ونشر لعطائهم، فقد كان أهلا للتكريم في إيصال دعوته وتواصلها، وما بلغ مبتغاه منها إلا بإدراكه للبعد العقدي وأهميته في الدين في حياة المسلمين، وكذا حسن معرفته بربه فتمثل هذا الاعتقاد فكرا وسلوكا وعملا، ورغم أهمية هذا الجانب من فكر محمد الغزالي فإنه لا يزال في حاجة إلى أقلام الدارسين، ونظر الباحثين.

أما عن دوافع اختيار الموضوع وأهداف الدراسة فاحتراما لأعضاء اللجنة الموقرة وحتى لا نتجاوز نكتفي بالتركيز على أهم النقاط فيها، أما تفاصيلها فهي في الرسالة.

فقد اخترت هذا الموضوع لأسباب ذاتية وأخرى موضوعية نذكر منها:

فأما الذاتية أطلعت على بعض كتب الغزالي -رحمه الله- أيام الطفولة، ثم أنعم الله علي بالتلمذة

عليه أيام المرحلة الجامعية - في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - فحظيت بسماحه في محاضراته التي كان يلقيها علينا في الجامعة، وخطبه في الشاشة الجزائرية، وفي الندوات والملتقيات، فأعجبت بعلمه وسلوكه وسعة أفقه، بل وبأسلوبه اللغوي الجميل، وطريقته في التعبير عن أفكاره هادفاً من وراء ذلك توصيل الفهم الصحيح وتقديم الإسلام في طبق أنيق، وفي صورته الحقيقية، فصرت مدينة له بذلك، وكذا كل من درس عليه، فأردت من خلال هذا البحث رد بعض الجميل لهذا الرجل العظيم، الذي كان له الفضل الكبير في عرضه لمواضيع العقيدة وغيرها، فكان مثالا في الخلق والتعامل، ومنهلا للعلم طيلة مكوثه في هذه الجامعة، مما يجعله يعد من مؤسسيها ويمثل شخصيته الجزائرية بفكره وبما قدم لهذه الأمة.

أما الأسباب الموضوعية نذكر منها:

1- حاجة المعرفة الإسلامية خاصة والإنسانية عامة إلى مثل هذا الفكر المتزن والتميز، وضرورة إرساء قواعده والكشف عن مزاياه.

2- مقارنة التصور الإيماني للعمل في الفكر المعاصر وهيمنة لغة الاختصاص والاصطلاح، مما يجعل فكر الغزالي ذا أهمية كبيرة، في بث روح الإيمان في هذا الفكر، وإعادة التوازن إليه بربط التصور الإيماني بالعمل.

3- قلة الدراسات التي تناولت الجهد التجديدي للغزالي في الفكر العقدي.

أما الأهداف التي توخيناها لهذا البحث منها:

1- إبراز واقعية العقيدة في فكر محمد الغزالي.

2- إبراز البعدين الإيماني والعقلي في فكره.

3- إثراء هذا النوع من المعرفة الذي يمثل مشروعا حضاريا وفكرا عميقا تعالج فيه القضايا في جميع مجالاتها.

4- المساهمة في إعادة ربط العلاقة بين مسائل الإيمان المجردة وجوانب الحياة العلمية وإضاءة جوانب التجديد في فكره العقدي.

5- المساهمة في الدعوة إلى الوسطية الإسلامية ونبذ الغلو في الدين.

6- وأملني أن تكون هذه المذكرة أرضية للبحث في رسالة الدكتوراه وفقا لما ينص عليه قانون
210/98.

ونصل إلى إشكالية الموضوع:

بناء على ما سبق، فإن الإشكالية التي نحن بصددتها في هذا البحث هي النظر في فكر العقدي، وكيفية تناوله للعقيدة الإسلامية، ومحاولة تقويم ذلك عن طريق الاحتكام إلى منهج القرآن والسنة وذلك وفقا للتصور الآتي:

إن كان الغزالي قد أدرك أن المنهج في علم العقيدة يقوم على الجمع بين العقل والدين، وبين الإيمان والعمل به، وأن غايته المحافظة على العقيدة الإسلامية وتزليلها على الواقع، فما هو الدور الذي أمكن لفكر الغزالي أن يقوم به في حياة المسلمين العقلية والمادية؟

وإذا كان محمد الغزالي قد دعا في فكره إلى إيمان مبني على اليقين، مهيمن على السلوك، محرك للعمل، فإلى أي مدى وفق في ذلك؟ وإلى أي مدى يمكن القول أن عقيدة المسلم يمكن أن تنطلق به من عالم المعنى إلى عالم السلوك؟

كما أنه أكد في العديد من كتاباته وحواراته على تلازم العقل والدين، والفكر والعاطفة، فهل كان نتيجة قناعة بعدم جدوى المعرفة الوجدانية وحدها بتنشئة المسلم الذي يدفعه عمله إلى الوقوف عند حدود الشارع؟ أو بعدم جدوى المعرفة العقلية وحدها في تنشئة المسلم الذي يحركه إيمانه لصياغة الحياة؟ فما هو منهجه إذا في تناوله لمسائل العقيدة لتحقيق ذلك، وكيف واجه التحديات المعاصرة بشقيها (الداخلي والخارجي)؟

هذا ما حاولت الإجابة عليه من خلال هذه الدراسة بإذن الله.

أما عن الدراسات السابقة:

فقد تأكد لي من خلال الدراسات التي أطلعت عليها والتي تناولت فكر محمد الغزالي في جوانب فكره وأعماله، مدى مساهمته في تطوير المعرفة وإثرائها، ورغم أهميتها وتنوعها، إلا أنها لم تبحث الجانب العقدي من فكره بصورة مستقلة ودقيقة، مما يجعل الحاجة ملحة إلى تناول هذا الجانب بالدراسة والبحث.

ومن هذه الدراسات نذكر: ما كتب يوسف القرضاوي عن شخصيته الذاتية والفكرية في كتاباته، الشيخ الغزالي " كما عرضه في نصف قرن، كما كتب عنه عامر النجار ، وكتب رمضان خميس الغريب "محاوّر المشروع الفكري للشيخ الغزالي"، وكتب مسعود فلويس: الإمام الغزالي عصن..... في شجرو الخلود، كما....ملتقيات في فكره التجديدي والاصلاحي.

ولعل أهم الدراسات التي مست هذا الموضوع ما قدمه الأستاذ عبد الوهاب بوخلخال في ملتقى الشيخ الغزالي بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية "ثنائية العقل والقلب"، عالج فيها علاقة العقل والقلب من خلال بعض كتبه، كما أن للأستاذة لحجية شيدخ دراسة في مجلة المعيار عنوانها "العقيدة الإسلامية"، تناولت الباحثة بعض ملامح منهج الشيخ الغزالي في عرض العقيدة، إلا أن

المتبع لفكر الغزالي في كتاباته وحواراته ومحاضراته يجده متسلسلا، فلم يتناول العقيدة والإيمان في بعض كتبه فحسب، بل إن الملاحظ يدرك أن جميعها لا تخلو من جانبها العقدي، ومن ربط مقتضيات الإيمان بمقتضيات العملي والحياة، وهذا الفهم هو ما جعله يقود مدرسة الاعتدال في الدين والدنيا.

وهذا ما دفعني إلى معالجتها وكشف اللثام عنها، حيث أن الفكر العقدي من الموضوعات والمواقع التي اهتدى إليها الغزالي، والتي يجب التأصل لها والتجديد فيها وحل معادلاتها والانتصار للحق ولمدرسة الاعتدال من خلالها، ورغم كثرة الدراسات حول فكر محمد الغزالي، إلا أنني لم أعتز - على حد علمي - ولم أصادف أية دراسة قد تناولته بهذه الطريقة، وبهذا النسق وتحت عنوان "الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي".

أما عن منهج الدراسة، فقد اقتضت طبيعة البحث اتباع مناهج هي:

الاستقرائي: وذلك باستقراء الفكر العقدي من خلال حسب ومؤلفات وحوارات ومحاضرات الغزالي، بل وما خط بيده، وكذلك ما كتب عليه من دراسات وبحوث.

ب- التحليلي: وذلك بتحليل الأفكار والآراء التي قدمها الغزالي في هذا الجانب، وما استطعت، وكذلك استنباط واستقاء الأفكار المهمة التي من شأنها المساهمة في تصحيح منظور العقيدة وعلاقتها بالواقع بينما ينسجم مع فلسفة الغزالي التي توازن بين علانية الفكر العقدي وواقعيته، وحاولت أن يكون تحليلي لذلك نوعيا بهدف خدمة عناصر البحث وأجزائه وضبط العناوين وترتيب الموضوعات ترتيبا منطقيا بغية استنباط الغاية من هذا البحث، والوقوف على نتائجه، وبالتالي الإجابة على إشكاليته كما استعنت بالمنهج التاريخي بالاعتماد على المعطيات التاريخية في بعض أجزاء البحث للإحاطة بالظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي نشأ فيها، وذلك بغرض فهم منهجيته وتحديد

شخصيته الفكرية التي تعد سلسلة متصلة ومتكاملة قد يحسن الثبات في الفكر والواقعية في أدوات التبليغ.

وسأستعين في كتابة هذا البحث بمجموعة من التقنيات:

*كتابة الآيات القرآنية بشكل صحيح ضبطا وشكلا مع تخريج للسورة والرقم معتمدة على رواية حفص.

*ثم تخريج الأحاديث معتمدة على ما روى في الصحيحين، أما ما لم يرد فيهما فحاولت تتبع باقي كتب الأحاديث.

ذيلت هذا البحث بجملة من الفهارس: فهرس الآيات والأحاديث، وفهرس الأعلام، ثم فهرس المصادر والمراجع والموضوعات.

-أما عن الصعوبات التي واجهتها في إنجاز هذا البحث وكتابته:

أ-قلة المؤلفات التي تناولت هذا الجانب من فكر الغزالي.

ب-ثراء وتنوع كتب الغزالي، وسعة اطلاعه وتطوره التاريخي الفكري والفلسفي، والصوفي، وهو ما جعل فكره مترامي الأطراف على مستوى قضايا ومجالات مختلفة، فقد أحال كل ذلك دون التحكم في الموضوع، إذ لا يخلو كتاب واحد من كتبه، لم يتطرق إلى هذا الجانب العقدي، وربطه بجميع مجالات الحياة، مما جعلني أجد صعوبة إزاء التحكم في الموضوع من جهة، ومن جهة أخرى أواجه صعوبة تصنيف الأفكار وترتيبها بسبب تعدد وتنوع الموضوعات التي يعرضها الغزالي في هذا الجانب، كما يجعلني أخشى تقديمها بشكل منقوص أو مجزأ، ناهيك عن كثرة النصوص المقتبسة والحادثة للبحث، والتي كثيرا ما ترددت في انتقائها وتوظيفها.

أما عن خطة البحث، فمن أجل الإجابة على الإشكالية المطروحة، وتحقيق الأهداف المرجوة، والحصول على نتائج تخدم الدراسات في هذا المجال، حاولت هيكلية البحث وفق خطة تضمنت ثلاثة فصول، مسبقة، مقدمة ومختومة بخاتمة نستخلص فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

أما بالنسبة للفصل الأول فقد خصصته للحديث عن شخصية محمد الغزالي وعوامل تكوينها، وقد قسمت إلى هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث، تعرضت في المبحث الأول إلى عصره، والأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي عاش ونشأ فيها، والتي كانت من أهم المؤثرات على اهتماماته وتوجيهاته الفكرية المختلفة التي جعلت منه شخصية ذات معالم متميزة، جعلته لأن يكون أهلاً للدراسة والبحث، فقد كان متأثراً ومؤثراً فيما حوله متفاعلاً مع مختلف الأحداث التي شهدتها ومستفيداً من أغلب التجارب التي خاضها، حاولت استخلاصها، كعزة النفس والقوة والشجاعة الأدبية، ومنها الفكرية كالشمول وال.....، وكذا التأصيل والتجديد مع الاستقلالية في الفكر والرأي، والبساطة في العمق في الفكرة.

ثم تطرقت في المبحث الثاني إلى مولده ونشأته ومراحل تعليمه، أما المبحث الثالث فقد حاولت تبين معالم شخصية وفكر الغزالي.

وفي الفصل الثاني: الذي يحمل عنوان "خصائص فكره العقدي"، فقد ضمنته ثلاثة مباحث: تحدثت في المبحث الأول عن خاصية الاعتدال والوسطية في فكره العقدي، هذه الفكرة التي حملت دلالة خاصة ومتميزة في مساره الفكري بشكل عام، وفي المبحث الثاني عالجتها فيه خاصية الربط بين العقيدة والشريعة في فكره. أما المبحث الثالث: فقد بنيت فيه علاقة العقيدة بالأخلاق في فكره ومدى اهتمامه بها.

أما الفصل الثالث، فقد خصصته لتبيان أسس منهجه العقدي ومواجهة فكره للتحديات المعاصرة، وقد قسمته إلى ثلاثة مباحث، ففي المبحث الأول ضرب من التفصيل لأسس منهجه

العقدي، والمبحث الثاني عقده للحد من أهم التحديات الداخلية التي واجهها فكر الغزالي،
وأما في المبحث الثالث، تعرضت لأهم التحديات الخارجية التي واجهها بفكره وتصدي لها.

وقد تضمنت خاتمة البحث أهم النتائج التي توصلت إليها نذكر منها: فقد لمست ووقفت على
بعض جوانب العظمة الحقيقية في شخصيته وفكره، فقد تأثر وتفاعل كثيرا مع مختلف الأحداث
والوقائع التي عايشها.

-مع تعدد وتنوع القضايا التي شغلت اهتمامه ونالت منه حظا وافرا من الدرس والتحليل
والاستيعاب، فإن الجانب العقدي ومحاوله ربطه بالواقع هو الأكثر انشغالا والأبرز ظهوراً في أفكاره
وآرائه، واهتم بتصحيح المفاهيم الخاطئة، وقد اتسمت كتاباته العقدية بالعمق في الطرح والقوة في
التحليل والاستدلال والموضوعية في المناقشة وبقوة الملكة في عرض مسائلها.

ولقد تبين لي من خلال البحث أن فكره يتسم بالوسطية والاعتدال، والفقهاء الناضج، مما جعله
من المؤسسين للرؤية الإسلامية الشاملة، وتأسيس القضايا الجزئية والمشكلات الفرعية في الفكر
الإسلامي، وهو بذلك يمثل بعطائه الفكري والعقدي ومشروعه الحضاري، مدرسة لها طابعها، يتنوع
محاورها.

كما تبين من خلال عرض فكره العقدي نظريته الوسطية المتوازنة للإنسان على أنه كل غير
متجزئ مادة وروح وعقل، كل طرف يخدم الآخر، لتجتمع الأطراف كلها فتعطي إنسانا سويا
متوازنا مكتمل الشخصية.

-استطاع أن يحافظ على نقاء وصفاء مواقفه وآرائه العقدية، رغم كثرة الفلسفات والمذاهب
المعاصرة، بل نجده قد طوّع بعض أدواتها لتخدمها في تقديم عقيدة صحيحة ومواجهة التحديات
المعاصرة.

-نبين أن نظرية المعرفة عنده بوسائلها المتكاملة وأسسها من نقل وعقل وعلم ووجدان غايتها الأولى معرفة الله أولاً، وترسيخ عقيدة التوحيد.

-أدرك واقعه خاض في أعماق الداء وبحث عن أفضل الدواء، وأكد على ضرورة الانفتاح عن الآخر للاستفادة من مكاسبه وتجنب سلبياته.

كما فقه الغزالي أن مشكلة المسلمين اليوم سواء في الجانب الإيماني أو في جوانب أخرى ليست معرفة الحق والصواب بقدر ما هي توطين النفس على انتهاجه وترجمته عملاً وسلوكاً.

كما أن القرآن لا يحتوي على مباحث نظرية مجردة بل هو كتاب يعترف الناس برهيم وعقيدتهم، بإثارة العقل والوجدان وتعميق النظر فيه.

ولا يفوتني الاعتذار عن بعض ما سببته طبيعة البحث والباحثة من عيوب ظهرت في بعض الفصول، أو تعصير في مفرداته، أو ما يُرى من التكرار في بعض الأجزاء والمعاني بين الحين والآخر، أو اختلاف في النسق التحريري والتقريبي، حيث ان الدراسة المحيطة بالمشروع الفكري تتطلب من العمل ذو كفاءة عالية في البحث.

وما قدمته إلا محاولة للبحث العلمي تفتح باباً لمحاولات ودراسات أخرى تكشف سواء عن هذا الجانب أو جوانب أخرى.

ومت توفيقني إلا بالله العزيز الحكيم.

وختاماً وعملاً بقوله تعالى: ﴿لِيَن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ .

أتقدم بشكري الخالص إلى الأستاذ المشرف أد سعيد عليوان على ما بذله معي من جهد، وعلى نصحه وتوجيهاته المنهجية، وملاحظاته العلمية، وصبره علي، كما لا تفوتني أيضاً أن أشكر

أساتذتي أعضاء اللجنة الموقرة التي تحملت عبئ قراءة هذه الرسالة، ولا يفوتني أيضا أن أسجل شكري لكل من مدّ لي يد العون من قريب أو من بعيد لإنجاز البحث وبارك لي هذا العمل.

وقبل كل ذلك أحمد لله خالفي ومعيني حمدا يليق بذاته العليا على أن دفعني إلى طلب العلم ورزقني القوة والصبر على ذلك.

إلا التقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى الدكتور سعيد عليوان نظير إضاءته السديدة لخطوات البحث على الدرب الصحيح، وجميل صبره وتفهمه لكل جهد بذلته، فما ضاع سدى، ووقوفه المستمر على كل صغيرة وكبيرة حتى خرج هذا العمل من حيز الوجود بالقوة إلى حيز الوجود بالفعل قد أقولها أيضا في الحكام.

القادر للعلوم الإسلامية

المفصل الأول:

شخصية محمد الغزالي وعوامل تكوينها

المبحث الأول: عصره

المبحث الثاني: حياته الشخصية ومراحل تعليمه

المبحث الثالث: معالم شخصية وفكر محمد الغزالي

تمهيد

الحديث عن فكر أي عالم يقتضي إلماما مستوفيا عن حياته وظروف نشأته، والبيئة التي عاش فيها، ومدى تأثير كل ذلك في مردوده الفكري والعملية، والشخصية، ولما كان هذا البحث يتناول بالدراسة الجانب العقدي لفكر محمد الغزالي ومدى ارتباطه بالواقع، فإنه صار لزاما التطرق إلى شخصية هذا المفكر ومن أين استقاها، و النظر فيما اذا كان فكره مرآة لعصره، أم العصر هو الذي ألقى بظلاله على هذا الفكر؟

و مما لا شك فيه أن لكل عصر دوره البارز في تحديد معالم مفكره وتوجيه اهتماماتهم وانشغالهم نحو قضايا محددة دون سواها، فيطبع بذلك بصماته على فكرهم، ويكونون بذلك صورة واضحة لمجريات أحداثه. فما هي الأحداث التي عاصرت الغزالي وما مدى تأثيرها في توجهاته الفكرية وتكوينه الشخصي؟

وتتضح الإجابة على هذه التساؤلات في الفصل الموالي.

المبحث الأول: عصره

أتناول بهذا المبحث البيئة التي نشأ وعاش فيها محمد الغزالي على اختلاف أتماطها وجوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، والتي كانت من أهم المؤثرات على اهتماماته وتوجهاته الفكرية المختلفة، لأن الإنسان ابن بيئته ما يجعله يتأثر بها ويؤثر فيها بما يسعه ذلك.

المطلب الأول: الأوضاع السياسية

لقد تميزت الأوضاع السياسية المصرية قبيلا مولد محمد الغزالي سنة 1917م بمجموعة من الأحداث؛ حيث اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة 1914م، وترتب عليها أخطر حدث عرفه العالم الإسلامي، تمزيقا وهيمنة وللمرة الأولى في حياة المسلمين سقطت الخلافة بعد أن اتصلت حلقاتها خلال ثلاثة عشر قرنا ونصف القرن، فأزيلت بذلك السيادة العثمانية على مصر والعالم الإسلامي بأسره عندما أعلن كمال أتاتورك إلغاء الخلافة في 26 مارس 1924، ولقد أشار الغزالي إلى الحدث البارز الذي حل بالمسلمين قائلا: "والقرن الذي ولدت فيه من أسوأ القرون التي مرت بديننا الحنيف، لم أبلغ الستين حتى كان المرتد التركي مصطفى كمال⁽¹⁾ قد رمى بالخلافة الإسلامية في البحر، نعم كان شبحا لا روح له، بيد أن هذا الشبح كان مفرعا لأعداء الإسلام، وإن كان مغمى عليه تحت هوى المطارق على أم رأسه فمن يدري؟ قد يستيقظ فجأة ويستأنف نشاطه المخوف فموته أجدى على أعداء الإسلام"⁽²⁾، وسقوط الخلافة الإسلامية كان أيضا نتيجة مباشرة للتشردم الإسلامي وتراجع قوة المقاومة الفكرية والسياسية والعسكرية.

فلا وضعت مصر تحت الحماية البريطانية على سبيل الاحتلال المباشر ليس على الطريقة

(1) -مصطفى كمال أتاتورك (1881-1938م): لقب بالذئب الأغر، قائد حزب الشعب الجمهوري التركي، صاحب مشروع إلغاء السلطنة ومشروع كتاب اللغة التركية بالحروف اللاتينية. انظر: حلمي مراد، كل زعيم قصة: مصطفى كمال أتاتورك، مجلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة، ع407، ص246.

(2) -محمد الغزالي: قصة حياة، دار الرشد للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، دط، دت، ص12.

الفرنسية، أي دون محاولة محو الذات والهوية المصرية، ثار المصريون على الاحتلال البريطاني، بحيث تيسخت في ذهن الغزالي بعض الصور عن الثورة ضد الإنجليز والتي كانت قد امتدت إلى قريته، إذ قال: "برزتُ إلى الدنيا في كبوة من تاريخ الإسلام وأيام كثيفة كان الإنجليز فيها يحتلون مصر، كما احتلوا أقطارا فيحاء من أرض الإسلام الجريح... وأذكر أن قريتي الصغيرة -نكالا العنب محافظة البحيرة- شاركت في الثورة العامة ضد الإنجليز، وقطعت أسلاك الهاتف، وأعلنت التمرد، وجاءت فرقة من جيش الاحتلال وعسكرت أمام أحد المساجد، واستخفى الناس في البيوت، وقتل أحد الفلاحين الذين لم يلتزموا بتعليمات منع التجول" ⁽¹⁾، فكانت المواجهة بالمقاومة المباشرة وبالضرورة التجنيد الفكري.

وكان من أهم التيارات السياسية التي ظهرت بمصر خلال العقود الأولى من القرن العشرين: التيار الوطني الذي ركز نضاله السياسي على غاية تحقيق الاستقلال، وإجلاء الاحتلال العسكري في مصر، حيث دعا إلى فكرة القومية وبناء الوطن بت ظافر جهود الجماعة الوطنية ثم ظهر أيضا التيار اليساري الديمقراطي متأثرا بما كان يحدث بأوروبا الشرقية ⁽²⁾ عامة وروسيا خاصة الذي دعا إلى العلمانية بفصل الدين عن السياسة، والاحتكام إلى العبقورية الإنسانية وهدى الضمير بدل الاكتفاء بالاحتكام إلى الإسلام -الكتاب والسنة- وترسيخ الكثير من القيم العصرية، وبالمقابل تأسس تيار الإخوان المسلمين لغايات إصلاح وإحياء الوعي الإسلامي، حيث كان لأفكار جمال الدين الأفغاني ⁽³⁾

(1) - محمد الغزالي: قصة حياة، المصدر السابق ص11.

(2) - أحمد الطربين: تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر - دراسة في التطورات والاتجاهات السياسية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1994م، ص268.

(3) - جمال الدين الأفغاني (1283-1332هـ/1866-1914م): علما في الدين، سلفي العقيدة، لا يقول بالتقليد، نشر بحوثا منها: دلائل التوحيد، ديوان خطب الفتوى في الإسلام وغيرها. (انظر: الزركلي: مرجع سابق، ج2، ص135).

ومحمد رشيد رضا⁽¹⁾، ومحمد عبدو⁽²⁾، وغيرهم دور بالغ الأهمية لبلورة الوعي بالمخاطر الحدقة والدعوة إلى اليقظة، وإحياء الوحدة الإسلامية العظمى وروح التضامن.

وقد تمكن الإمام حسن البنا⁽³⁾ من صياغة الرؤى والآمال والتطلعات التي عبر عنها هؤلاء الأعلام من دعاة الإحياء الإسلامي والجامعة الإسلامية، في شكل عمل جماعي تربوي سياسي شامل ومنظم هو تكتل جماعة الإخوان المسلمين⁽⁴⁾.

تلك هي أهم التيارات السياسية التي ظهرت آنذاك، والتي تعاضم دورها وانتشارها زمن العهد الملكي إلى غاية قيام ثورة 1952م ومجيء العهد الجمهوري، حيث ألغيت الأحزاب، فلم يسمح لأي

(1) محمد رشيد رضا: هو علي رضا بن محمد شمس الدين مثالا علي القلموني البغدادي الأصل صاحب مجلة المنار داعية التحديد والإصلاح وله تفسير القرآن الحكيم المشهور باسم تفسير المنار ولد (1282 وتوفي 1313) أنظر ترجمته في القول المختصر المبين ومناهج المفسرين لمحمد النحوي ص 59.

(2) محمد عبدو: ولد في مصر سنة 1849م، من رجال الإصلاح والتحديد في العالم الإسلامي، اشتغل بالتدريس والصحافة، تولى منصب القضاء، ثم الإفتاء، توفي سنة 1905م، من آثاره: تفسير القرآن الكريم (لم يكمله)، رسالة التوحيد، رسالة الواردات في التصوف والفلسفة، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية... وغيرها. (انظر: الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1980م، ج6، ص252-253).

(3) حسن البنا: هو حسن بن أحمد عبد الرحمن البنا، ولد سنة 1906 في محافظة البحيرة بمصر، أبوه من العلماء المشغولين بالحديث، التحق بدار المعلمين سنة 1930 في دمنهور، ثم لية دار العلوم، تخرج سنة 1927 وعين مدرسا، واشتغل بالدعوة والإصلاح، أسس النواة الأولى لجمعية الإخوان المسلمين سنة (1928م - 1347هـ) أنشأ مجلة الإخوان المسلمين من آثاره مجموعة الرسائل -

مذكرات الدعوة والداعية اغتيل في ربيع الثاني سنة 1368 هـ/1949م، (أنظر: صلاح شادي: كتاب الشهيدان، ص 11-44).

(4) تعتبر حركة الإخوان المسلمين من أكبر حركات الصحوة الإسلامية، حيث تعود نشأتها إل أول اجتماع جمع بين حسن البنا

وستة آخرين هم: حافظ عبد الحميد، أحمد الحصري، فؤاد إبراهيم عبد الرحمن عبد الله، إسماعيل عز، زكي المغربي، في مارس 1928م في بيت حسن البنا فد مدينة الإسماعيلية، حيث بايعوا الله على أن يكونوا لدعوة الإسلام جندا من أجل حياة الوطن وعزة الأمة، وفي سنة 1932م انتقل البنا إلى القاهرة، وانتقل معه المركز العام للإخوان المسلمين وقد تم إنشاء شعبة لجامعة الإخوان بكلية أصول الدين، كان الغزالي الرجل الثالث في هذا التشكيل، وعضوا بارزا في الجماعة، وفي سنة 1933 ثم إصدار جريدة الإخوان المسلمين، وفي سنة 1938م صدرت مجلة النذير ثم في سنة 1947م صدرت مجلة الشهاب، انظر عبد الله حلاق، الصحوة الإسلامية (مناهج، مدارس، حركات) بيروت، دار سبيل الإرشاد، ط1، 1420هـ 1999م، ص 130-133.

تداول ديمقراطي على السلطة بالتضييق على حرية التفكير والتعبير والتجمع بذريعة صيانة وحدة الصفوف.

فأهم نتائج إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاء أي إتحاد أو تكتل بين المسلمين في مختلف بقاع العالم، وهكذا استراحت كل القوى المحاربة للإسلام من شبح الخلافة الذي ظل يخيفها قرابة أربعة عشر قرناً، وباتت متيقنة من عدم قيام كيان يوحد بين المسلمين ويجمع شملهم، وفي سنة 1948م شهد الغزالي حدثاً سياسياً آخرًا مفضلاً في "محنة ديسمبر 1948" حين صدر قرار حل جماعة الإخوان ومصادرة ممتلكاتها، والتنكيل بأعضائها واعتقال عددا كبيرا منهم، فلتهى الأمر باغتيال الحكومة جهرا لمؤسس الجماعة ومرشدها الأول الإمام حسن البنا⁽¹⁾. ولم ينته النصف الأول من القرن العشرين حتى أصبحت أغلب الدول الإسلامية إن لم تكن جميعها تحت احتلال الدول الغربية، رغم مشاركة أغلبهم في الحرب العالمية الثانية بجانب الحلفاء.

ذلك ما وفر عدة عوامل فكرية وسياسية واجتماعية فجرت الكثير من المقاومات الشعبية ضد الاستعمار الغربي، بما فرض رد فعل جماعي ساد كل المجتمعات المسلمة ولم يكن الغزالي -وهو طالب- بمعزل عن هذه الأحداث، بل كان يهتم بالشؤون السياسية منذ صباه فقد قاد إحدى المظاهرات في مصر حتى حُكم عليه بعدها بالفصل من الدراسة عاما كاملا⁽²⁾. وهو ما زاده يقينا بفريضة النضال لتحقيق غاية التحرر، إذ كان أحد أعضاء جماعة الإخوان الذي عاين سجن الكثير من إخوانه بسجن الطور قرابة العام، ذاقوا خلالها ألم الحرمان من وفراق الأهل والأحباب، لكن كل ذلك لم يزد الغزالي إلا إصرارا على مواصلة مشواره الدعوي بعقيدة ثابتة وأهداف مشروعة ومرسومة، وهو ما قال فيه يوسف القرضاوي الذي شارك الغزالي في مرحلة السجن لمحتفل الطور حرفيا: "كان

(1)- يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته -رحلة نصف قرن-، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط01، (1421هـ، 2011م)، ص 16.

(2)- محمد الغزالي: قصة حياة، مصدر سابق ص 158.

الغزالي بعد خروجه من المعتقل أواخر 1949م هو اللسان الأول الناطق باسم الدعوة إلى الإسلام، والمحامي الأول عن حرمانه ومفاهيمه⁽¹⁾، وفي 23 يونيو 1952م عرفت مصر قيام الثورة والتي تعتبر تنويجا للحركة الوطنية المصرية التي تجاوز تأثيرها الحدود المصرية إلى النطاق العربي الإسلامي والأسوي والإفريقي لأن الثورة لم تكن وليدة اللحظة التي قامت فيها، حيث كانت مبلورة بعدة أسباب وعوامل تتمثل في نقاط هي:

-النوايا الاستعمارية المبيتة

1. في بداية الحرب العالمية الثانية أعلن الإنجليز عن نواياهم نزع السلاح من القوات المصرية، الأمر الذي أثار موجة من الرفض في صفوفها، وصمم أغلب الضباط على مقاومة ذلك.
2. اعتبر الضباط الوطنيون أن حادثة 4 فبراير⁽²⁾ امتهان لكرامتهم وكرامة البلاد، وعدوان على استقلالها.
3. -الشعور بالإحباط وعزيمة المواجهة
4. امتلأت نفوس ضباط الجيش المصري وجنوده بالمرارة في حرب فلسطين، حين أدركوا أنهم ضحية جهل كبار الضباط وإهمالهم، الذين كانوا يديرون المعركة من مكاتبهم، وتأزم الموقف حين اكتشفوا أن الأسلحة والذخائر المرسلة إليهم من القيادة كانت فاسدة، لسقط الجيش ليس ببسالة العدو، ولكن لأنهم لا يملكون السلاح الضروري والخطط الناجحة والمعلومات الكافية، بما بلور رؤية حاسمة خرج بها صغار ضباط الجيش من حرب فلسطين هي وجوب تطهير الجيش من عناصر القيادة التقليدية وإعادة تنظيمه وضرورة إنقاذ البلاد من الاستبداد

(1)-يوسف القرضاوي: الشيخ محمد الغزالي كما عرفته، مرجع سابق، ص 20.

(2)-حادثة 4 فبراير 1949م، هي التي تم فيها إعلان اتفاقية الهدنة بين مصر وإسرائيل في الحرب التي خاضتها الجيوش العربية في فلسطين ضد اليهود وقد استغل اليهود هذه الهدنة لتقوية صفوفهم، (انظر: أحمد طربين، تاريخ مصر والسودان الحديث المعاصر، دراسة في التطورات والاتجاهات السياسية، مرجع سابق، ص 267).

والفساد. إنها العوامل التي تفاعلت فكانت السبب في قيام الثورة إلى انقلاب عسكري دبر له بعناية لغايات مرسومة⁽¹⁾ المتمثلة فيما يلي:

- أ) طرد الاستعمار
- ب) القضاء على الفكر التقليدي تربويا وتنظيما
- ج) القضاء على الإقطاعية وثقافة وطبقية
- د) القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم.
- هـ) إقامة عدالة اجتماعية تحسن توزيع الثروة وحسن توزيع السلطة
- و) إقامة جيش وطني قومي عصرائي منظم ومجهز

إنها من الغايات التي حظيت بتوافق كل القوى الفاعلة حيث شارك في الثورة الضباط الأحرار إلى جانب تنظيم الإخوان المسلمين، الذين علقوا آمالا كبيرة على إنجازات الثورة فاعتقدوا أن الضباط الأحرار سوف يلتزمون بالاتفاق المبرم بين الطرفين والرامي أساسا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية فتقاسم الطرفان الحكم، ولكن الضباط الأحرار وهم الذين يقودون القوات المسلحة قد تمنعوا من تطبيق الشريعة الإسلامية متحججين بأسباب كثيرة منها الاجتماعية والمتمثلة في أن نسبة عشر الشعب المصري غير مسلمين - أقباط مسيحيين⁽²⁾ - وأسباب ثقافية أهمها إنجاز قطيعة مع كل التراكمات الفكرية التي كان يراها الضباط الأحرار رجعية على شاكلة ما يرد بالدول الخليجية حيث قدر الضباط الأحرار ضرورة التطلع إلى مزيد من التقدمية والحداثة متأثرا بمكاسب الفكر اليساري في العالم الاشتراكي حينئذ وخاصة المغامر العسكرية الباهرة التي أحرزها الجيش السوفياتي في الحرب العالمية الثانية العدو والمواجهة للمعسكر الغربي في مقدمته الولايات المتحدة الأمريكية والذي كان يساند

(1) -محمد الغزالي: قصة حياة، مصدر سابق، ص 199.

(2) -محمد الغزالي: الحق المر، نهضة مصر، القاهرة، دط، 2000م، ج3، ص248.

إسرائيل ضد العرب فما إن توجت الثورة بالسيطرة على مقاليد السلطة يتنازل الملك محمد علي على العرش، وقتئذ ولي عهده الطفل الصغير أحمد فؤاد، حتى خاطب زعيم الثورة جمال عبد الناصر قائلاً: الثورة قامت ضد الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي والاستعمار الإنجليزي لا لتحكيم القرآن⁽¹⁾ معلنا بذلك قيام دولة وطنية قوية اشتراكية.

وبعد سلسلة من الأحداث التي اختلفت فيها الآراء وتعارضت فيها الرؤى، قاد الضباط الأحرار والمهجمة الطبقيّة ضد الإخوان المسلمين الذين تعرضوا للتهميش والقمع انتهى بال سجن والتعذيب فكان للغزالي كغيره من الإخوان المسلمين نصيب من السجن والتعذيب إذ عبر عنها بقوله: "لعلي من أخف أهل الأعيان عذاباً مع أيّ اعتقلت وأهنت على عهد فاروق وعهد عبد الناصر، إن الله رحم ضعفي، وحمل عني في الوقت الذي كان فيه المئات والألوف يتعرضون لعذاب تشيب منه النواصي، أزهدت فيه أرواح كثيرة وخرجت منه جماهير بعاهات وذكريات رهيبة... وقد ترك ذلك في نفسي جنوحاً إلى كراهية الظلم، ومحبة الحرية، وتجاوزاً مع كل صيحة تقدر حقوق الإنسان وتصون كرامته"⁽²⁾.

وعلى الرغم من قصر الفترة الذي قضاه الغزالي في السجن، إلا أن صور كثيرة قد انطبعت في ذهنه، فحعلته يزداد إصراراً على استرجاع الحرية، وتمسكاً بالمسار الذي شقه منذ البداية وهو خدمة الإسلام.

ولم تكن الاعتقالات التي نفذها جمال عبد الناصر ضد الإخوان المسلمين آخر الأحداث السلبية في تلك الفترة، بل تلتها أحداث أسوأ منها تمثلت في حرب 1967م -حرب النكسة- التي مثلت أعظم هزائم عبد الناصر الذي قال عنه الغزالي: "إن جمال عبد الناصر لم يكسب معركة قط،

(1) -عبد الله حلاق: الصحوة الإسلامية، مناهج، مدارس، حركات دار سبيل الرشاد، بيروت، ط 1، (1420هـ-1999م)، ص134.

(2) -محمد الغزالي: قصة حياة، مصدر سابق، ص 249.

إلا المعركة التي أدارها ضد إخوانه وضد الإسلام، وضد حرمان الناس" (1). وإذا كان جمال عبد الناصر قد توفي في 1970/09/28م فإن الغزالي يعتبره قد مات سياسياً سنة 1967 حتى لو تأخر ثلاث سنوات، وذلك عن تركة سياسية تسود لها الوجوه، وقدم فيها اليهود نصراً لم يلموا به يوماً، وورث المسلمون مشكلات أعقد من ذنب الضب (2).

إن ألام الغزالي ما انفكت تزداد كما ونوعية وقد رأى الهزائم والمصائب التي حلت بالمسلمين فجعلهم يتراجعون إل الخ لف باستمرار، تاركين الصدارة لغيرهم، بسبب تخلفهم الاجتماعي والسياسي وبالتحديد الفكري وحكمة الأبد من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (3) فب وفاة جمال عبد الناصر تولى أنور السادات الحكم حيث تميز حكمه بجملة من إجراءات التهذئة الاجتماعية أبرزها: إفراجه عن المعتقلين وإعلانه بدء سيادة القانون، ومحاربتة مراكز القوة في العهد الناصري (4).

فتوفر بذلك بصيص من الحرية كفل للمصريين التعبير عن آرائهم و إعلان وجهات نظرهم الناقدة في الممارسات السابقة، فانتعقت الأفكار وتحررت الأقلام، في الكتب المؤلفات تدون المشاعر المكبوتة وتنشر الصحف الأخبار المطموسة. وفي هذه المرحلة واصل الغزالي مشواره الدعوي والفكري كإمام خطيب في الأزهر، ثم في جامع عمر بن العاص الذي شهد نوعاً من الانتعاش والتجديد، فأصبح يستقطب عشرات الألوف من المصلين الذين شدتهم خطب الغزالي الإصلاحية التي كانت زاخرة بتحقيقات ناقذة لواقع المسلمين، كاشفة لما كان يتربص بهم من الدسائس والمؤامرات، وكانت هذه الخطب بمثابة القشة التي ق صمت ظهر البعير، وزجت بالغزالي إلى الخطوط الحمراء التي كان النظام يحضرها عليه، وعلى أي إنسان آخر، فقرر الغزالي في هذه الأثناء ترك وطنه والسفر إلى المملكة

1- محمد الغزالي: قصة حياة، مصدر سابق، ص 221.

(2)- المصدر نفسه، ص 21.

(3)- سورة الانشراح، الآية: 6.

(4)- يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته، مرجع سابق، ص 61.

العربية السعودية ما دام النظام في بلده قد ضاق به درعا وبات يهدده بشتى الوسائل والأساليب⁽¹⁾. بعد هذا العرض الموجز لأهم أحداث وجوانب البيئة السياسية التي نشأ وعاش فيها الغزالي يتضح لنا مدى تأثره الكبير بها، فالغزالي ونتيجة للظروف السياسية الصعبة التي اكتنفت حياته، ولازمت مشواره الفكري والدعوي، وما جرته عليه من التعذيب والسجن والإهانة تؤكد بأن الاحتلال والاستبداد إذا حل بقطر لم يجعله إلا رمزا للتأخر والانحطاط، ولهذا فإنه اهتم بحال العالم الإسلامي الذي تعرضت أغلب أقطاره إلى الاحتلال، وشهدت شعوبه حكاما ضيقوا عليها دوائر الحرية وكتبوا أنفاسها، فتفاعل مع الواقع السياسي بكل حيثياته رافضا الاحتلال - الاستعمار - باعتباره كسب خارجي ساهم في تخلف العالم الإسلامي، وإن كان الغزالي قد حمل الأسباب الداخلية المسؤولية الأكبر في تخلف المسلمين، فإنه لا يهمل تأثير الأسباب الخارجية - ونجاح أعداء الإسلام في تقوية أسلحتهم وتحديد أساليبهم باستمرار لمنع أية نهضة مرتقبة، وشل أية حركة تسعى إلى تخليص العالم الإسلامي من تخلفه الكبير⁽²⁾.

وقد تكونت للغزالي نظرة عميقة وشاملة ومستوعبة لكافة الملابس التي اكتنفت مسار الحضارة الإسلامية، لذلك جاء تأكيده على الدوام بأن الداء نشأ من داخل الكيان الإسلامي، ثم نما واستفحل حتى إذا اصطدمت به أحقاد الأعداء، وأصابته سهامهم هوى على الأرض يترنح تحت أنقال التخلف، فالأسباب داخلية وخارجية، قديمة وحديثة، بسيطة ومعقدة ولكنها مع ذلك تلتقي في عامل مشترك هو الابتعاد عن الإسلام الحقيقي عقيدة وسلوكا إما قصورا أو تقصيرا نحوه ، حينما غابت حوافز التفوق والتألق.

وقد ألفت الغزالي نظر المسلمين إلى ضرورة وضع العلاج لأزماتهم، وبدوره دأب على وصف

(1)- يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته، مرجع سابق، ص 61-62.

(2)- انظر: محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط 3، 1984، ص 30. وانظر: محمد

الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، دار المعرفة، الجزائر، دط، دت، ص 6، 7.

العلاج لأزمة العالم الإسلامي بإبراز الأهمية الكبيرة التي تمثلها علاقة المسلمين بدينهم، وكيف أن ضعف هذه العلاقة كان سببا رئيسا فيما أصابهم من ذل وهوان، وتخلف كبير، ولهذا استغرب لكثير من مسلمي القرون الأخيرة، وتعجب من اعتقادهم بإمكانية تحقيق التقدم وإحراز الازدهار، وهم في منأى عن الإسلام، أو في كنف إسلام ناقص أو مجزأ أو مشوه، مؤكداً أن الإسلام لوحده ولي النعمة على المسلمين عموماً وعلى العرب خاصة، إذ أن العرب -بالإسلام وحده- دخلوا التاريخ وعرفتهم سكان المعمورة، ولولا الإسلام ما جاوزوا جزيرتهم، ولما كان لديهم شيء يقدمونه للناس، ففضل الإسلام على العرب لا ينكره إلا أفك جريء⁽¹⁾.

وسعى من الغزالي إلى تصحيح الوعي الديني للمسلمين، وتوثيق صلتهم بعقيدتهم وتعاليم الإسلام ومبادئه وقيمه، فإنه ألح على أن معرفة الإسلام منوطة بالعودة إلى منابعه الأصلية القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، والتي يجعلها مشروطة بأمرين أساسيين هما:

أ - لابد من رد الروح إلى العقائد وربطها بالشرعية اعتقاداً وسلوكاً وأخلاقاً، وإزالة الركام الكثيف من الجهل والتخبط الذي ترزخ تحته أمتنا، ورفع المستوى الثقافي لها.

ب - لابد من رد روح العقيدة إلى النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية⁽²⁾ وجعلها متفقة مع مناهج الإسلام، بمعنى ضرورة أن يتأثر نمط الحكم خاصة والأنماط الاقتصادية والاجتماعية عامة، بهذه الروح، بما يجعلها ليست فقط ملتزمة على سبيل التقليد، أو على سبيل الوراثة، ولكنها على يقين بأن الإسلام يستوعب التطبيقات الديمقراطية الأكثر تأميناً للحريات الفردية، والأكثر ضماناً للأمن الاجتماعي، وتحقيقاً للازدهار والاقتصاد والتطور العلمي.

وبذلك يتشبع الناس بقيم الإسلام فكراً وسلوكاً وأخلاقاً، بما يجعلهم أكثر التزاماً بها وأكثر انسجاماً بمقوماتها، حتى يكونوا النموذج الحسن الذي يقدم صورة وضاعة للعقيدة الإسلامية.

(1)-محمد الغزالي : مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف تفكر فيه، مكتبة رحاب، الجزائر، ط2، 1989، ص 92-93.

(2)-المصدر نفسه، ص96.

المطلب الثاني: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

ترتبط الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالأوضاع السياسية حيث تشكل امتدادا لها، فقد كانت البيئة الاقتصادية المصرية التي عايشها الغزالي مرتبطة بدرجة كبيرة بالأحوال السياسية السائدة فيها والتي ميزها وجود الاحتلال الإنجليزي من جهة، ووجود القصر الملكي من جهة أخرى، وما يمثل من التبعية والانقياد للاحتلال، فقد كان الاقتصاد المصري تابعا بشكل عام للاقتصاد البريطاني في الفترة ما بين (1882-1919)⁽¹⁾ حيث وجهت بريطانيا الاقتصاد المصري بأسره إلى قطاع الزراعة الذي اقتصر على زراعة القطن فلم تترك للفلاحين حرية إنتاج ما يريدون من مختلف المحاصيل الزراعية، وبالتالي فإن سياسة بريطانيا قائمة على جعل مصر سوقا لمختلف منتجاتها ، وبمنع قيام أي صناعة فيها، حيث سيطر على الإنتاج المصري، ووجهه إلى مصالح بريطانيا، والحلفاء لتسديد خسائر الحرب، كما مكن الاحتلال للنقود الأجنبية خاصة في البنوك والشركات وقطاعات الاستثمار، فأفرز هذا الوضع تدهورا في القدرات الشرائية وانتشار البطالة، ولا سيما بين طبقات العمال والفلاحين.

كل هذه الأوضاع المزرية جعلت الكثير من المصلحين والمفكرين الاجتماعيين، يطلقون صيحات التحذير لشدة ارتباط هذه الأوضاع بمنظومة قيم المجتمع، ومن هؤلاء سيد قطب الذي أعلن احتجاجه حيث قال : "إني أتهم هذه الأوضاع الاجتماعية الحاضرة بأنها تشل قوى الأمة عن العمل والإنتاج، وتشيع فيها البطالة والتعطل، وتقعد عنها عن استخدام مواردها الطبيعية والبشرية وتؤدي بها إلى الضعف عن مواجهة الأخطار الداخلية، والأخطار الخارجية التي تتزايد وتبرز على مر الأيام"⁽²⁾، ويضيف قائلا عن آثار هذه الأوضاع: " لقد انتهينا في مصر إلى مجتمع منحل مستهتر مريض بفعل جميع العوامل السيئة الناشئة عن الاحتلال الاجتماعي، والناشئة كذلك عن التيار العالمي المنحدر بين

(1)- أحمد طرين: مرجع سابق، ص 269.

(2)- سيد قطب: معركة الإسلام والرأسمالية، دار الشروق بيروت، ط 1، 1980 ص 38.

الحريين العالميتين... وأيا ما كانت الأسباب فقد انتهينا إلى مجتمع تشيع فيه الفاحشة ويطفو على سطحه الاستهتار ويبدو الانحلال في جميع جوانبه" (1). فلقد توارثت سلالة العهد الملكي انتشار البؤس، والأمراض والأمية، وسوء حال الفلاحين، والمواطنين، وصغار الملاك حيث كانت تستغل المزارعين أشد استغلال، وتفرض عليهم ضرائب باهضة مما خلق أوضاعا مزرية في المجتمع المصري ، كان لها أثرها البين في اضطراب المستوى المعيشي ، ميزه الفقر والمرض والبؤس الشديد، بل واهتزاز الكثير من القيم الاجتماعية.

ويشير الغزالي في الكثير من كتاباته وحواراته أننا لا نستطيع أن ننشئ عقيدة في مثل هذه (2) الأوضاع من الفقر والحرمان والقهر، وهذا الثالث الأخير من أهم أهداف الاحتلال والاستعمار.

بعد عرض هذه الصورة الموجزة لبعض ميزات البيئة الاقتصادية التي عاشها الغزالي، تبين مدى تأثره بها حتى أنه ألف أول كتاب في حياته منبثقا من زوايا هذا الواقع المر الذي نشأ فيه، فقد تناول في كتابه "الإسلام والأوضاع الاقتصادية" (3) قضية الطبقة وسلبها المتمثلة في بناء الحواجز، وإنماء الفوارق بين أبناء الوطن الواحد، كما تناول قضية الملكية والإقطاع وما جرته على المصريين من ذل وهوان وفقر وحرمان.

ولما كانت باقي الدول الإسلامية تمر بما تمر به مصر وتعاني مما تعانيه، فإن الغزالي مضى في كثير من كتبه رافضا الإقطاع منددا بالطبقية ويصرخ في وجه الاشتراكية داعيا إلى الالتزام بقيم الإسلام، لأنه الدين الوحيد والنظام الفريد القادر على تخليص الشعوب من كل مظاهر التخلف والتقهقر والانحطاط، ذلك أن سياسته في المال والاقتصاد أكثر فعالية، وأوفر مردودية؛ لأنه يوفق بين نظام اقتصادي وقيم اجتماعية، ولهذا اتجه في دعوته إلى تطبيق المنهج الرباني من خلال عددا من كتبه

(1)- سيد قطب: معركة الإسلام والرأسمالية، المرجع السابق، ص 8.

(2)- انظر: محمد الغزالي: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، مكتبة رحاب، الجزائر، ط 1، دت، ص 61.

(3)- المصدر نفسه، ص 28-31.

في مقدمتها "الإسلام والمناهج الاشتراكية"، و"الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين"، و"الإسلام في وجه الزحف الأحمر".

كما ارتبطت الأوضاع الاجتماعية بالحالة السياسية في مصر إلى حد كبير، واتسمت الفترة التي عايشها الغزالي بأوضاع اجتماعية متردية، إذ أهم ما كان يسود هذه الحقبة تفشي الفساد الاجتماعي، ذلك أن السياسة البريطانية هدفها تشجيع الانحلال الخلقي في مصر بإبعاد الناس عن عقيدتهم وقيمهم الإسلامية⁽¹⁾.

وشهد المجتمع تحولات جديدة تمثلت في دخوله عهد الطبقة على وقع ما أتى من المجتمعات الغربية، وفي هذا السياق يقول مسعود فلوسي: "وفي الجانب الاجتماعي كان المجتمع المصري ينقسم إلى ثلاث طبقات، فهناك طبقة كبار الملاك الذين يحيون حياة مترفة بسبب الأرباح التي يحققونها، وبجانبهم طبقة من الأغنياء من أصحاب الأموال الكثيرة في عدة مجالات"⁽²⁾، ولكن القاعدة الشعبية العريضة ظلت معدومة تحت وطأة الجهل والفقر والمرض.

فمن الطبيعي إذا بعد تفشي الفساد السياسي، والاجتماعي، وضغط الاستعمار، وما يشبه ذلك في قلب الأمة وعقلها، أن تنشأ في المجتمع ألوان الظلم وصنوف القهر والبؤس ما تنوء بحمله الجبال، وعن المظالم الاجتماعية والفوارق الطبقة السائدة آنذاك يقول يوسف القرضاوي: "كان الظلم الاجتماعي أول ما لفت نظر الشيخ الغزالي وشغل قلبه وفكره" فقد نشأ في بيئة رأى فيها أثار هذا الظلم صارخة حيث الإقطاعيات والخاصية الملكية تتحكم في الفلاحين الكادحين تحكم السادة في العبيد... كان الغزالي بعقله وقلبه ومشاعره مع الطبقة الكادحة، إنما أحب الطبقات إلى الله وأحقها بالحياة الكريمة وأجدرها بالمستقبل باسم...⁽³⁾.

(1) -محمد الغزالي: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، المصدر السابق، ص 103.

(2) -مسعود فلوسي: الإمام الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود، دار ربحانة للنشر والتوزيع، الجزائر ط1، 1999 ص 87.

(3) -يوسف القرضاوي: مجلة إسلامية المعرفة، مطبعة زعباش، الجزائر، 1997، ع7، ص 29.

وعن أثر ظروف الغزالي الاجتماعية في تكوين وعيه وصقل مواهبه يقول أحمد العسال:
 "فكثير لا يعرفون أن الشيخ الغزالي -رحمه الله- نشأ في بيئة ريفية يطحنها الإقطاع، ويستغلها الملاك من أرباب الباشوات والأمراء آنذاك، فأبصر المظالم عن قرب وأحس بالألم عن معاشه ومكابده، وأثرت في نفسه صور الفلاحين والمزارعين وهم لا يأخذون من خيراتهم إلا الفتات، ولا يستوفون من جهدهم وكدهم إلا القليل لذلك نشأ مرهف الحس، حي الوجدان، يقظ الضمير مشدودا بفكره ونفسه وطاقته إلى رفع المعاناة عن الكادحين المظلومين⁽¹⁾، إنه إحساس بالانتماء إلى هؤلاء، بل إنّه شعور الغزالي، وليست شهادة شاهد فقط.

ونتيجة للتحديات التي ما فتئت تجابه المجتمع المصري، وتحول بينه وبين حياة الرخاء والحرية والمساواة، فإن الغزالي الذي عايشها وتفاعل معها وأحس بما أضمرته من سوء وجور، تأثر بها كثيرا مما دفعه إلى رفضها في مختلف كتبه التي كانت سلاحا على أعداء الإسلام، فرفض الطبقيّة ودافع عن المساواة ودعا إلى العمل والإنتاج في كتابه "الإسلام والأوضاع الاقتصادية"، كما فضح مؤامرات الأعداء الذين عملوا بجد لنشر الانحلال الخلقي والتفسيخ القيمي والتحلل الاجتماعي في الأوساط المصرية، فدعا بذلك المسلمين إلى ضرورة التمسك بالدين عقيدة وسلوكا من خلال معظم كتبه منها "ظلام من الغرب" و"الغزو الثقافي يمتد في فراغنا" إضافة إلى تصديه لكل أنواع الغزو الفكري التي تحاول النفاذ إلى قلب العالم الإسلامي، متخذة صورا وعبارات شتى كالشيوعية والرأسمالية، والعلمانية والتبشيرية مؤكدا باستمرار أن هذه الأنماط الغازية للعالم الإسلامي هي التي جرت به إلى ميدان التخلف الحضاري والخلقي، وأن الإسلام هو الكفيل الوحيد لضمان حياة اجتماعية يسودها العدل والمساواة والتعاون، ويملؤها عالم القيم والأخلاق والفضائل.

(1) - فتحي الملكاوي: العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، أحمد العسال، تنظيم المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية، 1417-1997، ص 27-28.

الأوضاع الثقافية:

يبدأ الحديث عن الأوضاع الثقافية التي عايشها الغزالي وتفاعل معها من مجال التعليم، لأنه يمثل عصب الحياة الثقافية والبنية الأساسية لنمو الفكر والإبداع الثقافي والحضاري لدى المجتمعات، فثورة 1919⁽¹⁾ بمثابة عهد جديد للثقافة المصرية، التي كان من نتائجها انطلاق نهضة واسعة وجهودا مكثفة لإحياء اللغة العربية من جديد، وإعادة لها إلى موقع الصدارة وترسيخها بين مختلف شرائح المجتمع المصري، كما شهدت مصر نهضة في مجال بناء الجامعات عبر مختلف المدن المصرية.

وحظي الأزهر بعناية كبرى بفضل صدور قانون إصلاحه سنة 1930م والذي بمقتضاه أصبح الأزهر معاهد وكليات، فأدخلت إصلاحات كبيرة في مناهجه، الشيء الذي مكّنه من القيام بدور مهم في مجال الدراسات الإسلامية واللغة العربية، وكان الغزالي في هذه الفترة -فترة الإصلاحات- طالبا بالأزهر أين لمس ثمرة هذه الإصلاحات في الدراسة وفي المنهج قائلا: "هي دراسة حسنة لا يجوز وصفها بأنها دينية خالصة، فإن العلوم المدنية كانت لها أنصبه محترمة، والمنهج الذي ارتبطنا به كان من وضع الشيخ مصطفى المراغي⁽²⁾ وهو من مدرسة محمد عبده الإصلاحية وأعتقد أن هذه الفترة من أزهى فترات التألق العلمي في الأزهر"⁽³⁾.

وموازاة مع النهضة التي عرفها التعليم واللغة العربية، كانت الساحة العلمية المصرية تشهد نهضة صحفية كبرى تشمل الصحف اليومية، والمجلات الأسبوعية المتخصصة والشهرية، أما مجال الكتابة فقد شهد تزايدا كبيرا في دور النشر، والطباعة، والترجمة، مما أثرى الساحة العربية بعناوين

(1)- شهدت هذا العام قيام انتفاضة جماهيرية في البلدان العربية ضد المستعمر الأجنبي الغاشم، وتوالت بعدها الثورات التحريرية ضد الاستعمار الفرنسي والبريطاني في كل من سوريا، العراق وفلسطين. انظر: أحمد الطربين: مرجع سابق، ص 271.

(2)- مصطفى المراغي: مفسر مصري تخرج بدار العلوم، ثم كان مدرسا للشريعة الإسلامية بها، ولي نظارة بعض المدارس الثانوية، ثم عين أستاذا للعربية والشريعة الإسلامية، توفي بالقاهرة سنة 1952م، من أهم مؤلفاته: الحسبة في الإسلام، الوجيز في أصول الفقه، تفسير المراغي، علوم البلاغة وغيرها. انظر: الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج 1، ص 258.

(3)- الغزالي: قصة حياة، مصدر سابق ص 16.

كثيرة ومتنوعة لكتب متعددة التخصصات، والواقع أن التحديات الثقافية في مصر خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين، قد أثمرت نهضة هائلة في الحركة الأدبية والفكرية، والفلسفية، حيث كان الإسلام وبواعث تجديد فكره يمثل روح هذه الحركة، وقد ساعد على ذلك نزوع الشعب المصري الطبيعي الفطري إزاء الإسلام.

كما أن صيحات جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده في اليقظة والصحو، وكذا لأفكار محمد رشيد رضا، وحسن البنا، أثرها الفاعل على مسار الانتهاض الفكري والعلمي والأدبي⁽¹⁾، إلا أن تصادم الثقافة الأصلية مع الفكر الوافد مع الاحتلال البريطاني قد استنزف طاقة هائلة من الجهود، التي كان يمكن استغلالها في عملية البناء الاجتماعي والتأسيس الثقافي، ورغم الجهود إلا أن التوجهان بقيا على طرفي النقيض؟ ففي الأدب ظهر العقاد وطه حسين، ومحمد حسين هيكل⁽²⁾، ومصطفى صادق الرافعي⁽³⁾ وغيرهم، وفي الفلسفة والفكر برز منصور فهمي، مصطفى عبد الرزاق⁽⁴⁾، محمود شلتوت⁽⁵⁾، محمد البهي، محمد يوسف م وسى، وأبو زهرة⁽⁶⁾ وغيرهم، ولقد ظل الاستعمار الثقافي

(1) -محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، المحاكم الشرعية، الدوحة، ط1، 1402هـ، ص92-93.

(2) -حسين هيكل: كاتب صحفي ومؤرخ لغوي وسياسي، حصل على الدكتوراه من جامعة السربون، تولى وزارة المعارف، من آثاره: حياة محمد، في منزل الوحي، ثورة الأدب، وغيرها، توفي بالقاهرة 1956م. انظر: الزركلي: المرجع السابق، ج 6، ص107.

(3) -مصطفى صادق الرافعي: ولد في 1881م، أديب وشاعر، له ديوان شعر في ثلاثة أجزاء: تاريخ آداب العرب، إعجاز القرآن، رسائل الأحران... وغيرها، توفي سنة 1937م. انظر: المرجع نفسه، ج7، ص235.

(4) -مصطفى عبد الرزاق: وزير الأوقاف وشيخ الأزهر بمصر، من تلاميذ محمد عبده، من مؤلفاته: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، فيلسوف العرب والمعلم الثاني، والدين، الوحي والإسلام... الخ، توفي بالقاهرة سنة 1946م. انظر: المرجع نفسه، ج7، ص231.

(5) -محمد شلتوت: فيقه ومفسر مصري، تخرج من الأزهر، اشتغل بالتدريس وعمل بالحمامة، من أعضاء مجمع اللغة العربية، ثم شيخاً للأزهر سنة 1958، له 267 مؤلف مطبوع منهم: تفسير القرآن الكريم، توفي سنة 1963م. انظر: المرجع نفسه، ج7، ص237.

(6) -أبو زهرة (1316-1394هـ-1898-1974م): تولى تدريس الشريعة، ثم عيّن أستاذاً محاضراً للدراسات العليا سنة 1935م، ثم كان عضواً في مجلس الأعلى للبحوث العلمية، فوكيلاً لكلية الحقوق بجامعة القاهرة، ثم وكيلاً لمعهد الدراسات الإسلامية، له 40 مؤلف منها: الخطابة، تاريخ الجدل في الإسلام، أصول الفقه... الخ. انظر: المرجع نفسه، ج7، ص237.

يرصد عن كتب، هذه النهضة الأدبية والفكرية، والتي جعلت الأدب العربي يستعيد مكانته وازدهاره، الذي كان عليه خلال العصر العباسي الأول، فلم يحدث منذ وقت طويل في تاريخنا أن تعاصر مثل هذا الجمع من العمالة كما حدث خلال هذه النهضة الحديثة⁽¹⁾.

أما الصراع الفكري فقد ازداد قوة وعنفوانا مع انتشار الصحوة الإسلامية، وتجاوب الشعوب مع طروحاتها ورموزها والواقع الذي ينبغي إثباته هنا أن هذه الصحوة الجدلية كثيرا ما كانت تأخذ مظاهر وأشكال الصراع، والتناقض الحاد بين العديد من الاتجاهات والتيارات الثقافية. وقد استمرت بأساليب مختلفة إبان عهد الجمهورية بعد أفول النظام الملكي، وعلى الرغم أن كل نظام حاول -بطريقته الخاصة- احتوائها واستغلالها لدعم وجهته، إلا أن هذه الحركة الثقافية هي من جهة المنبع والمنطلق ثمرة من ثمرات ثورة 1919م الشعبية، تلك الثورات التي أطلقت العنان لحرية الرأي، والتعبير، والمعارضة، ودعت إلى الانفتاح الثقافي والحضاري على الغرب وشجعت حركة الترجمة في الفكر والأدب.

فرغم أن الحياة الثقافية المصرية قد شهدت نهضة حقيقية في هذه الفترة إلا أنها عرفت معارك وهجمات، استهدفت في أغلبها الدين الإسلامي، والثوابت الراسخة في عقيدة التوحيد، وقد تعددت الجهات والقواعد الخلفية لهذه المعارك، والهجمات بين العلمانيين والملحدين والشيوعيين والتغريبيين⁽²⁾ والماديين، والذين إذا اختلفت منطلقاتهم ووسائلهم فإنها استهدفت كلها الدين الإسلامي بموروثه الحضاري والفكري والعقدي والسلوكي والاجتماعي، فموجة الإلحاد استهدفت الجانب العقائدي في الإسلام، كما هو الحال بالنسبة لباقي الأديان فيما استهدفت موجة الشيوعية الجانب السلوكي، وأما

(1)- محمد الغزالي: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، مصدر سابق، ص 93.

(2)- كان للغزالي مواقف ضد دعاة التغريب، ومن ذلك المؤتمر الوطني للقوى الشعبية 1962 الذي عقده جمال عبد الناصر وتحدث فيه الغزالي مناديا بضرورة استقلال الأمة في تشريعها، ووجوب تمييزها في تقاليدها فلا تكون نسخة للغرب، أنظر يوسف القرضاوي الشيخ الغزالي كما عرفته، مرجع سابق ص 30. وسيأتي تفصيل موقفه من ذلك في الفصل الثالث من البحث.

الحركة العلمانية القومية العربية فهي استهداف مباشر للمنظومة السياسية والاجتماعية للمسلمين، وهو ما كان له دور في توجيه الحياة الفكرية للغزالي نحو مزيد من التميز والاستماتة في الدفاع عن الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكا، وفكرا وتراثا ومنهج حياة، فقد برز من بين الذين حملوا لواء الدفاع عن الإسلام، والذود عن حماه، فجابته هذه الهجمات ورد عليهم الشبهات، كما فضح أفكار الملحدين والشيوعيين والعلمانيين، وتجلّى ذلك في كتاباته منها "من هنا نتعلم" و"دفاع عن العقيدة والشريعة" و"صيحة تحذير".

وقد كان لكتبه دور كبير في رد المفكرين ذوي التوجهات القومية والعلمانية اليسارية إلى الفكر الإسلامي، كما حدث ذلك مع خالد محمد خالد⁽¹⁾ على سبيل المثال، وهو ما يعني أن البيئة المليئة بالأفكار والثقافات والآراء على تباينها تعد في الغالب بيئة حبلى بالاجتهادات والتنافس والصراعات والاختلافات، ومن ثمة فهي بيئة تستفز الفكر وتستدعي كل أنواع الأسلحة الفكرية والعلمية والعقلية، فالقرنان التاسع عشر والعشرون شهدا حمى تيارات فكرية، وسياسية، واقتصادية، لهدت العقول في العالم كله، فكانت اليسارية والليبرالية والقومية وكان العالم العربي أحد أبرز المتأثرين، فلم يلبث هذا الأخير على الانفتاح حتى سرار الكثير من النخبة المثقفة والمتعلمة نحو هذا التيار أو ذاك، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل لم يلبث العديد منهم أن تبنا تلك الأفكار والمشاريع والأطروحات وتحولوا إلى رسل في أقوامهم يبشرون، وينذرون، وفي الوقت نفسه يسفّهون الموروث الذي ظلت الأمة الإسلامية تعض عليه بالنواجذ، إنها الأجواء التي ظهرت فيها حركة الإخوان المسلمين كتيار حمل على عاتقه أمانة الدفاع عن الدين ضد تلك التيارات والأفكار التي سعت إلى فصل العقيدة عن الشريعة، ولقد كان الغزالي أحد أبرز كوادرها الذين استفزتهم تلك الأفكار والمشاريع الغربية عن الأمة وتاريخها ووجدانها.

(1) -محمد خالد: كتب كتاب "من هنا نبدأ"، يروج فيه لفكر فصل الدين عن السياسة، فتصدى له الغزالي، بكتابه "من هنا نعلم".

ولئن كانت الحقيقة التي عاصرها الغزالي مليئة بالتناقضات والانقسامات السياسية والدينية، فمما لا شك فيه أنه كان خير شاهد على احتدام التناقضات ، والاختلافات، وقد كان في موقع القلب منها، إذ ساهم بفكره وعلمه في توجيه تياراتها، فكان لكتبه دوراً هاماً في إيقاظ العقول وتنبيه القلوب والثورة على الظلم، وإحياء الشعور الديني وتوعية الضمائر.

وهكذا تبدو ملامح الأوضاع الثقافية التي عايشها الغزالي والتي انطبعت بالصراع العقدي والفكري متراوحة بين الانقباض والتمدد، وبين التشدد والانفراج، وبين القطيعة والتهدئة، والذي يظهر بجلاء فيها هو تفاعله معها وتأثره بها وبكل ما حملته بين جنباتها من الأحداث والوقائع ، وقد تجسد في مواقفه الجريئة وكتاباتة الشجاعة التي كانت تلقى التأييد ، والإقبال لدى الجماهير العريضة، على العكس تماماً من مواقف السلطات العليا التي كانت كثيراً ما تصادر كتبه وتمنع تداولها ونشرها بين القراء لعلمها بمدى فعاليتها وتأثيرها فيهم ، بحجة أنها أطروحات متطرفة تهدد الأمن الاجتماعي، ولعلّ مراحل حياته الشخصية وتعليمه كان لها أيضاً تأثيرها على بناء شخصيته وصقل مواهبه

المبحث الثاني: حياته الشخصية ومراحل تعليمه

يتناول هذا المبحث بعض الجوانب المهمة من حياة الغزالي، كمولده ونشأته الأولى، ومسيرته العلمية والعملية في مختلف مراحل الدراسة، إضافة إلى التطرق لمختلف الأوضاع، والمواقف التي عايشها الغزالي منذ نعومة أظافره، وكان لها تأثير على شخصيته، وهذا بغية إدراك اللبنة الأساسية في صقل مواهبه وبلورة اهتماماته التي انعكست في مختلف المواقف والآراء التي عُرف بها، وطبعت معالم فكره وشخصيته.

المطلب الأول: مولده ونشأته

مولده: ولد محمد الغزالي السقا في قرية نكلا العنب مركز (ايتياني البارود) محافظة البحيرة في 22 سبتمبر 1917م، وهذه القرية (نكلا العنب) لها تاريخ طيب⁽¹⁾، سماه والده باسم مركب هو (محمد الغزالي) تيمنا باسم الرسول صلى الله عليه وسلم، وتصديقا للرؤية التي رأى فيها من يبشره بغلام اسمه الغزالي، وكم فرح الرجل بتلك البشرية وعاش آملا في تحقيقها حتى رزق به.

نشأ الغزالي بين تسعة إخوة كان هو أكبرهم ولهذا كان والده يعلق أكبر أماله في رعاية الأسرة فكان إذا مرض يقول لزوجته وأولاده لا تحزنوا تركت لكم بعد⁽²⁾ -الله- محمد الغزالي، والأحداث التي تلتها قد أكدت أنه أحسن ظن والده.

وأهم ما ميز شخصية الغزالي هو طيبة المنبتين الذين سعدا باحتضانه ورعايته، فمنبت الأسرة كان طيبا طيبة الوالد المتدين الكريم، وإحسان الأم الفاضلة البارة، ومنبت القرية كان طيبا طيبة الأعلام الراسخين والرجال المخلصين الذين جادت بهم فكانوا فخرا لها ولمصر وللعالم الإسلامي.

(1)- نكلا العنب كانت في مسقط رأسه تلة من مشاهير مصر منهم، محمود سامي البارودي، محمد عبدو، محمود ثلوت، حسن البنا، محمد البهي وغيرهم...

(2)- محمد الغزالي: قصة حياة، مصدر سابق، ص 150.

إلا أن ظروف الجهل ، والتخلف ، والمعاناة ، في ظل الاحتلال البريطاني جعلت الوالد ينتقل بأسرته من القرية الصغيرة إلى المدينة أملا في تعليم الطفل (الغزالي) ، والتمكين له من الفرص التي عادة ما تتوفر في المدن ، فكانت الواجهة الإسكندرية ، وبالضبط إلى "كرموز" هناك وفي تلك القرية استقرت الأسرة واشترى الوالد مكتبة صغيرة وفيها كان يبيع الكتب المدرسية ، والكراريس والروايات المترجمة والقصص الشعبية⁽¹⁾ ، ذلك أن نشأة الطفل في جو الأوراق والكتب والأفلام ، هي عامل من العوامل المؤثرة في شخصيته وتوجهه نحو أجواء الكتابة والتأليف والتعاطي مع العلوم والأفكار ، وهو ما ساعد على تكوين الغزالي ، بل هو ما أثبتته تجارب الإنسانية ، التي تؤيد القول أن : من ينشأ في جو النخاسة ينحو نحوها ومن ينشأ في جو الصيد هكذا حاله ، ومن ينشأ في أجواء النقش لا شك أن تلك سبيله... بما يفيد أن تنقل الأسرة إلى الإسكندرية قد أسهم في تكوين شخصية الغزالي الروحية والعلمية.

المطلب الثاني: تعليمه

سعى أحمد السقا -والد الغزالي- إلى تعليم ابنه ، وحرص على بدل قصارى جهده من أجل توفير كل الظروف والعوامل المواتية لإتمام تدريس ابنه ، فكانت البداية مع ضرورة حفظ القرآن الكريم ، حيث كان والد الغزالي مهتما بـتخفيف ابنه للقرآن الكريم ، فسعى إلى جعل "الكتاب" المرحلة الأولى لتعليم ولده الأكبر ، إذ فيما يرويهِ الغزالي عن أبيه قوله: "عندما ولدت شرع يهتم بي ، فما بلغت الخامسة حتى كنت في "الكتاب" أحفظ القرآن مع غيري من الصبية ، ولما كان هو من الحفاظ فقد تعاون مع فقهاء "الكتاب" على ألا أضيع الوقت سدى"⁽²⁾ ، يجب أن أستظهر القرآن الكريم في أقصر مدة فمضى الغزالي يحفظ القرآن انطلاقاً من رغبة أبيه حيث يقول الغزالي: "بقيت في "الكتاب"

(1)-محمد الغزالي: قصة حياة، مصدر سابق، ص 158

(2)-محمد الغزالي: قصة حياة، مقتطفات من مذكرة الغزالي: مجلة إسلامية المعرفة، ماليزيا 7 يناير 1417هـ، 1997م،

إلى سن العاشرة فأتممت حفظ الكتاب العزيز، وعرفت مبادئ الحساب، وشيئا قليلا من قواعد الإملاء ورأى أبي أن يقدم على مرحلة تعد عصبية بالنسبة له لكنها مهمة بالنسبة لي⁽¹⁾.

بعد تخطي الغزالي لمرحلة "الكتاب" أصبح مهيبا للالتحاق بالمعهد الأزهري المتواجد في مدينة الإسكندرية في سنة 1928، وكان لزاما على أسرته أن تنتقل معه إلى الإسكندرية - كما سبق ذكره- وكانت مكتبة أبيه المنهل الذي استقى منه الغزالي كثيرا من قراءاته ومطالعته.

قضى الغزالي بمعهد الإسكندرية تسع سنوات يتلقى فيه تعليما دينيا ومدنيا وفق نظام اليوم الكامل، وعن دراسته في هذا المعهد يقول نجله علاء: "وفي دراسته في هذا المعهد كان يناقش شيوخه ومعلميه بالحجة البالغة، وقد شهدوا له النبوغ المبكر وقد تخرج من معهد الإسكندرية سنة 1938م².

ثم انتقل الغزالي إلى مرحلة التعليم الثانوي، أين حدثت له مواقف تستحق التأمل، لأنها توحى ببداية تشكل الوعي السياسي لديه، والتفاعل مع مختلف الأحداث التي تشهدها الساحة المصرية آنذاك، منها قيامه بقيادة مظاهرة طلابية ضد قرار إلغاء الدستور القائم بمصر واستبداله بدستور آخر على يد إسماعيل صدقي⁽³⁾ الأمر الذي أدى إلى اعتقاله والتحقيق معه، ثم أفرج عنه بكفالة مالية ، ثم قاد مظاهرة أخرى داخل معهده أدت إلى التحقيق معه، ومن ثم فصله سنة كاملة عن الدراسة مما أدى به إلى الانفصال التام عن المعهد، وتقدمه لامتحان الشهادة الثانوية -القسم الأول- من الخارج ، وقد كان هذا القرار جريئا وشجاعا ومغامرة إلا أن رحمة الله به ، واستجابة لدعاء أبيه كما يقول الغزالي

(1)-محمد الغزالي: قصة حياة، مرجع سابق، ص 158.

(2)-علاء محمد الغزالي: السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي: العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي: مرجع سابق، ص 184.

(3)-في 20 يوليو 1930م أقال الملك فؤاد حكومة ، وأحل محلها حكومة إسماعيل صدقي الذي بادر بإلغاء دستور 1928 والمصادقة على الدستور الجديد دستور أكتوبر 1930م والذي تضمن امتيازات كبيرة للملك والقصر، وإجحاف في حق الشعب المصري مما أدى إلى القيام باضطرابات سياسية كبيرة في مصر ضد هذا القرار، أنظر أحمد طربين تاريخ مصر الحديث والمعاصر، دراسة في التطورات والاتجاهات السياسية، مرجع سابق، ص 235، 244.

كانت السبب في نجاحه ومواصلته للدراسة وكأن شيئاً لم يحدث⁽¹⁾.

واصل الغزالي دراسته الثانوية في ظرف ازدادت فيه أزمات والده، مما دفعه إلى تدريس بعض الأطفال نظير أجر زهيد يساعده على إكمال مشواره الدراسي، وأخيراً أحرز الشهادة الثانوية بالجيزة، وتمكن من تجاوز هذه المرحلة الصعبة لينتقل إلى مرحلة أخرى من التعليم، ومن الجدير ذكره في هذه المرحلة -دراسته في معهد الإسكندرية- هو لقاءه الأول مع حسن البنا سنة 1937 في مسجد هرمز لينشأ منذ ذلك اللقاء ارتباط قوي وصادق بالبنا، جعل الغزالي يعاهد نفسه على متابعته قائلاً: "قررت من يومها أن أتبعه وأن أسير معه على درب واحد لخدمة الإسلام والمسلمين"⁽²⁾.

تعليمه في كلية أصول الدين:

التحق الغزالي بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر عام 1938م، وتخرج منها عام 1941م وقد فرغ من الدراسات العليا سنة 1943 تحصل على العالمية مع إجازة الدعوة، والإرشاد ثم العالمية مع إجازة التدريس، وكان عمره لا يتجاوز السادسة والعشرين.

وعن وضع الدراسة ومستواها في الأزهر يقول: "إن المناهج الموضوعية تكفي وتشفي ... إن الطريقة التي تعلمنا بها تفتق العقل والأذهان وتحرر المراد وتضبط المفاهيم، وتضمنت مناهج الكلية إلى جانب العلوم التقليدية دراسة موسعة للفلسفة في شتى العصور، وتوسعا آخر في علم النفس والأخلاق"⁽³⁾.

أما عن تقييمه العام لمناهج الأزهر بعد دراسته يخلص الغزالي إلى القول: "الحق أن الأزهر يحتاج إلى تجديد ثقافي وروحاني يقوم به رجال أولوا العزم"⁽⁴⁾.

(1)- محمد الغزالي: قصة حياة، مقتطفات من مذكرات الشيخ، مرجع سابق، ص 157.

(2)- محمد الغزالي: قصة حياة، مصدر سابق، ص 161-163.

(3)- المصدر نفسه، ص 166-167.

(4)- المصدر نفسه، ص 160.

وإضافة إلى المناهج والدراسة الجيدة، فإن الأساتذة الذين تتلمذ على أيديهم كانوا في اعتباره وتقييمه رجالات راسخين "أمثال أبو زهرة، ومحمد معبد الغمراوي، محمد عبد الله درازة ومعبد يوسف موسى وآخرون"⁽¹⁾ وقد تأثر الغزالي بمؤلاء الأساتذة الكبار، وأخذ عنهم نصيباً وافراً من مختلف العلوم والمعارف التي شكلت له زادا غنياً وفكراً في مستقبله، وقد تميزت هذه المرحلة الأزهرية بدخوله لأول مرة عالم الكتابة، فقد حظي بنشر أول مقال له في مجلة الإخوان بعنوان الإخوان المسلمون والأحزاب وبتلقيه التشجيع والحث على الكتابة باستمرار من حسن البناء، وإقبال الإخوان عليه، فعكف الغزالي على التأليف.

توظيفه: بعد تخرجه من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر وترشحه لمنصب الأمانة من خلال مشاركته في مسابقة التوظيف، ونجاحه فيها باستحقاق، عين إماماً وخطيباً، ومدرساً بمسجد "عديان بالعقبة الخضراء" في القاهرة، ثم عمل مفتشاً لمساجد القاهرة، ونقل بعدها إلى الأزهر فعمل واعظاً ومرشداً في مركز أبي قرقاص "بمحافظة ألبيا" ثم نقل إلى القاهرة ليعمل واعضاً ثم رئيساً للتحرير لمجلة "نور السلام" الذي كان يصدرها الأزهر ثم عاد مرة أخرى لوزارة الأوقاف، ليعمل وكيلاً لإدارة المساجد فمديراً ثم عين وكيلاً لوزارة الأوقاف لشؤون الدعوة الإسلامية 1981م⁽²⁾.

ليس الغرض من هذا العرض تناول المسار الشخصي والعلمي والمهني للغزالي على سبيل السرد التاريخي، بقدر ما هو تبيان ودليل لقيمة الجهود التي بذلها الغزالي لخدمة الدعوة والفكر الإسلامي، وحرصه الشديد على نشر الوعي الديني بين الجماهير، وردّه إلى روح العقيدة الصحيحة، ولظروف سياسية باتت تضيق من جهود الغزالي الدعوية والفكرية فقد اضطر إلى مغادرة مصر، والانتقال إلى الدول الإسلامية التي فتحت له أبوابها وأهمها: المملكة العربية السعودية، قطر، الجزائر والكويت... ففي الفترة من سنة 1968م إلى 1973م أمضى شهر رمضان في دول الكويت والسودان

(1)-محمد الغزالي: قصة حياة، مجلة إسلامية المعرفة، مرجع سابق، ص 166-167.

(2)-المرجع نفسه، ص 167.

والمغرب وسافر إلى المملكة العربية السعودية أستاذا بجامعة أم القرى -بمكة المكرمة- فأمضى بالجامعات السعودية: ما بين (1974م-1981) وشارك في ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر لتنظيم سنويا منذ 1980، وعمل في قطب أستاذا ما بين (1982-1984)⁽¹⁾.

وبين سنة 1984م و1989م عمل رئيسا للمجلس العلمي لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بالجزائر، وقاد حركة التعريب في الجزائر حتى قال عنه الجزائريون: "إن الله فيض للجزائر من يحفظ لها عروبتها وإسلامها مرتين عبد الحميد بن باديس أولا، ومحمد الغزالي ثانيا"⁽²⁾.

إنتاجه الفكري

ترك لنا الغزالي رصيذا كبيرا من الكتب والمقالات والمحاضرات والخطب والدروس التي ألفها وألقاها طيلة مساره الدعوي والفكري، فكانت متنوعة بتنوع الظروف التي عايشها وتفاعل معها، وقيمة بقيمة التجارب التي خاضها، والمواقف التي شهدتها ومعبرة عن حصيلة السنين التي حملت في طياتها معاناة عميقة عاشها الغزالي، وذكريات جميلة لأوقات سعيدة قضاها في مختلف ربوع العالم الفسيح، لهذا فإن الرصيد الفكري له ناطق بالحقائق ومعبر عن واقعه، فقد وجهه لخدمة الإسلام، والدفاع عن حماه، وإحياء روح العقيدة فيه إيمانا وخلقا، وضمه كل أحاسيسه ومشاعره وأمانيه فكان كما قال عن نفسه: "كل كتاب كتبت، وكل محاضرة أو مناظرة أو ندوة أو مداخلة شاركت فيها إنما يقلب يحترق وعاطفة تتحرك، وكل ذلك أقدمه بين يدي ربي عز وجل يوم القيامة، وأسأله أن يتقبل ذلك خالصا لوجهه تعالى"⁽³⁾.

ويمثل الغزالي بخصوبة مشروعه الفكري مدرسة في الفكر الإسلامي المعاصر، إذ أنه كتب في

(1)-محمد عمارة: الشيخ محمد الغزالي: الموقع الفكري والمعارك الفكرية، دار الرشاد، القاهرة، ط 1، (1418هـ-1998م)، ص 10-11.

(2)-رمضان الغريب: الشيخ الغزالي حياته وعصره أبرز من تأثر بهم، دار الحرم للتراث، دط، (1423هـ-2003م)، ص 21.

(3)-نصر الدين لعرابة: محمد الغزالي حياة، وأثار وشهادات ومواقف، مرجع سابق، ص 108.

معظم محاوره. ففي معجز العقيدة كتب: عقيدة المسلم، ركائز الإيمان، مع الله، الجانب العاطفي للإسلام، تراثنا في ميزان الشرع والعقل.

وفي محور الأخلاق والتربية الروحية كتب: خلق المسلم، جدد حياتك، ومحور الثقافة الإسلامية والبناء الاجتماعي: "تأملات في الدين والحياة"، "ليس من الإسلام"، "كفاح دين"، "قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة"، "مشكلات في طريق الحياة الإسلامية"، "دستور الوحدة الإسلامية".

أما في محور السيرة والأدب النبوي، والفقه والاجتهاد، "فقه السيرة"، "فن الذكر والدعاء"، "هذا ديننا"، "دستور الوحدة الثقافية"، "كيف نفهم الإسلام".

وفي محور السنة ومنهج التعامل معها كتب "السنة بين أهل الفقه الحديث"، "كنوز من السنة". ولقد كانت للغزالي وجهة جديدة في الدراسات القرآنية تجلّت في كتابه "نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم"، كما تناول علوم القرآن، بأسلوب جديد في كتابه "نظرات في القرآن"، وكتاب "المحاور الخمسة للقرآن الكريم".

أما في محور المواجهة الثقافية والدفاع عن هوية المسلمين الحضارية، فقد كتب: "قذائف الحق"، "ظلام من الغرب"، "الغزو الثقافي يمتد في فراغنا"، "صيحة تحذير من دعاة التنصير"، "دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين".

وفي محور النظم الإسلامية والصراع الإيديولوجي الإسلامي والأوضاع الاقتصادية، "الإسلام في وجه الزحف الأحمر"، "الإسلام والاستبداد السياسي"، "حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلام الأمم المتحدة".

وفي رأي عبد الحليم عويس أن كتب الغزالي قد واكبت التحديات وتصدت للمشكلات

وعبرت عن الإسلام أصدق تعبير⁽¹⁾. ووصفها محمد شلبي بأنها يمكن اعتبارها سجلا لتاريخ الدعوة الفكرية إلى حد بعيد لذلك نستطيع أن نرسم الملامح الرئيسية للدعوة الإسلامية وتطورها من خلال هذه المؤلفات⁽²⁾.

وفي جامعة "هارفارد" الأمريكية ألفت رسالة علمية عن نشاط الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، ورأى الباحث أن مؤلفات الغزالي تمثل وحدها جانبا فكريا متميزا يتسم بالحوار المقنع والمسيل إلى استعراض وجهات النظر ومناقشتها في ملاقاتة الجهات المعارضة⁽³⁾.

تستهدف الباحثة من خلال ما سبق في هذا المبحث تبين ملامح المشروع الفكري للغزالي بشموله ووعيه فهو إذا المشروع الفكري المتمثل في استجابة ايجابية، وفاعلة للتحديات التي واجهت محاولات الأمة بالنهوض والتقدم والازدهار، وليس مجرد إسهام فكري تتناثر كتبه دون رؤيا شاملة وموقف واع وتخطيط وتدبير وإحكام⁽⁴⁾.

ويمكننا من خلال ما سبق ذكره، استخلاص العوامل التي أثرت وساهمت في تكوين الغزالي فكرا وشخصا نوجزها فيما يلي:

- تدين الأسرة وتكفل والديه بتربيته، مع حبه للقراءة، وشغفه للمعرفة، وتطلعه لكسب المزيد.
- التحصيل من كبار العلماء منهم عبد العزيز بلال، إبراهيم العرباوي، محمد الريان وغيرهم ، وكذلك جو المحيط الأسري والتنشئة التربوية، التي تلقاها.
- هذه البيئة التي كان يطبعها الإقبال عن العمل والانخراط في الحركات والجمعيات التربوية،

(1)-نصر الدين لعرابة: المرجع السابق، ص 28.

(2)-محمد شلبي: الشيخ الغزالي ومعركة المصحف في العالم الإسلامي، دار الصحوة، القاهرة، دط، 1987م، ص 166.

(3)-فتحي ملكاوي: العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، مرجع سابق، ص 18.

(4)-محمد عمارة: الشيخ الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية، مرجع سابق، ص 28.

والفكرية والثقافية، ولذلك فهو في فكره من يؤمنون بأهمية عامل البيئة في إصلاح المسالك والمحافظة على سلامة النفوس، مما يفسد لها فطرتها، حيث يقول: "أنا لم أرث الدين عن والدي كما ورثت قصر القامة، وبياض البشرة، بل لقد مرت علي أيام، أفرغت نفسي من كل اعتقاد، وتركت لعقلي أن يوازن ويختار، والذي أعاني على إثارة الإسلام، أن لغتي هي لغة القرآن، وأن الدراسة النافذة له ولغيره، كانت ميسرة لي، أي أن ظروف البيئة التي احتوتني هي التي جعلتني مسلماً، في حين حرم غيري من هذه المتعة، لأن ظروف بيئته تباينت بينه وبين الاعتداء، بل لعلها بينت له الأخذ بضده، إن أثار البيئة في الخلق والسلوك ونوع الدين لا يمكن نكرانها⁽¹⁾.

إضافة إلى أهم العلماء الذين أسهموا في تشكيل البيئة العلمية والتربوية والثقافية التي تركت آثارها في البناء العقلي والفكري للغزالي، عبد العظيم الزرقاني، عبد الوهاب خلاف، محمد شلتوت، أحمد أبو زهرة وغيرهم وهو يعترف لهم بالفضل العظيم إلا أن تأثره العظيم كان لحسن البناء، كما أن الصراعات السياسية وظاهرة الاستعمار ما سبق ذكره، وظهور الصراعات السياسية والإيديولوجية كان لها انطباعها ونضجها في نفس الغزالي ووجدانه وفكره، كذلك الثقافات الإنسانية الواسعة، التي كان يتمتع بها، رغم محدودية تواصله بالفكر الواسع لعدم معرفته باللغات الأجنبية، هي من العوامل التي كان لها أثراً بارزاً في تكوينه الفردي، وإبداعاته المختلفة، ومسايرته ما يجري في العالم على كل صعيد، فالقارئ لمؤلفاته يبرز له بوضوح أثر هذا التعامل وصداه في عطائه الفكري، مثال ذلك قراءته لكتاب "دع القلق وأبدأ الحياة" لمؤلفه الأمريكي ديل كارنجي وسعيه لإعادة أفكار الكتاب إلى جذورها، وأصولها الإسلامية، وكذلك رده على المستشرق اليهودي جولد تسيهر صاحب كتاب "العقيدة والشريعة في الإسلام"، بكتابه "الدفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين"، ويبدو أن هذا التوجه في فكر الغزالي مع تنوعه في القضايا التي عالجها، إنما هو نتاج تأثره بالقرآن الكريم، وإدراكه للبعد الإنساني والنفسي والسلوكي للعقيدة الإسلامية.

(1) -محمد الغزالي: كيف نفهم الإسلام دار الكتب، الجزائر دط، 1987، ص 17

الغزالي في الجزائر:

تم إنشاء جامعة " الأمير عبد القادر " بمدينة قسنطينة، وفي سبتمبر 1984 م كانت بداية السنة الجامعية الأولى بهذه الجامعة، وعين " محمد الغزالي " مشرفا عليها، فاختار لنفسه أن يدرس تفسير القرآن الكريم، وصار في الجامعة موجهها وأستاذا ومفتيا، يزوره الناس للفتوى في الجامعة وفي بيته . وقد كان محور أعماله في الجامعة وخارجها، الدعوة إلى الله تعالى، ودراسة قضايا المسلمين، وتشخيص أمراضهم الاجتماعية، وماسيهم، وأصبح مركز اهتمام ومراقبة من خلال حديثه الأسبوعي الذي يلقيه في التلفزة كل يوم اثنين، كما كان يلقي كل جمعة تقريرا درسا في أحد مساجدها، وغالبا ما يكون في التفسير الموضوعي لسورة من السور، يترها على أوضاع المسلمين قديما وحديثا⁽¹⁾.

لم يكتف " الغزالي " في نشاطه الدعوى في " الجزائر " بقسنطينة " وحدها، بل كان يفعل ذلك في العديد من ولايات الجزائر، وبذلك " وصل ما انقطع من دعوة الإمام بن باديس والشيخ الإبراهيمي وغيرهما من رجال الدعوة والتجديد الذين دعوا في الجزائر وغيرها إلى النهضة والوعي وجاهدوا في الله حق جهاده، وحسب الناس أن بن باديس قد بعث وأن الإبراهيمي قد عاد " (2).

كما كلف من طرف " المعهد العالمي للفكر الإسلامي " بعمل دراسة عن السنة النبوية، فلم يفوت " الغزالي " الفرصة وقام بتأليف كتابه " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث " الذي ثار حوله ضجة عارمة محتواه من فصل في الأمور والقضايا. فأقيمت من أجله مؤتمرات لمناقشة الكتاب وتحديد معالمه⁽³⁾.

بعد رحلة دعوية دامت خمس سنوات من العمل الدؤوب والاجتهاد المتواصل، من سنة 1984 إلى سنة 1989 قرر " الغزالي ترك الجامعة الجزائرية والعودة إلى بلده " مصر " من جديد ،

(1) -عمار طالي: الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر، مرجع سابق، ص 50-51.

(2) -المرجع نفسه ص 21.

(3) -علاء محمد الغزالي: السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي: العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، مرجع سابق، ص 193.

وكان في ذلك الوقت قد تعب لما أصابه من جلطة في دمه، كما أصابه ضيق من اختلاف الجماعات خارج الجامعة وتنازعها، كل جمع منهم يريد أن يسيطر على الجامعة بما له من بعض الأتباع من الطلبة، وضاق عليه أمره، وشعر بأسى شديد، ... فكتب خطابا لوزير الشؤون الدينية يعتذر فيه عن الاستمرار ... " (1).

و كان من بين الخدمات الجليلة التي قدمها الغزالي للجزائريين، فضلا عن الدروس والمواعظ والتوجيهات أنه سمح بإعادة طبع كل كتبه تقريبا، مع تنازله عن تقاضي حقوقه المادية، كل ذلك تيسيرا لاقتنائها على القاري الجزائري (2)، ومكافأة له على جهوده المتواصلة في خدمة الدعوة بأرض الجزائر، وعرفانا بفضلها على شعبها، قام الرئيس " الشادلي ابن الجديد" بتكريم - الغزالي قبل مغادرته - تكريما على أعلى مستوى، مقلدا إياه وسام الأثير من مصف الاستحقاق الوطني (3).

لم ينقطع الغزالي طيلة فترة إقامته في "الجزائر" عن التأليف والكتابة، فأضاف بذلك مجموعة كتب إلى رصيده الفكري، منها: " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث "، " الطريق من هنا"، "قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة"، " جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج"، " سر تأخر العرب والمسلمين" و"المحاور الخمسة في القرآن" والجزء الأول من الحق المر " و" مستقبل الإسلام خارج أرضه"، "كيف نفكر فيه" و"صيحة تحذير من دعاة التنصير".

بعد مضي خمس سنوات قضاها الغزالي بالجزائر، عاد إلى مصر من جديد وهناك شغل منصب رئيس المجلس العلمي لمكتب المعهد العالي للفكر الإسلامي بالقاهرة، وواحدا من مستشاريه وموجهي مسيرته. وفي هذه المرحلة أعاد الغزالي دراساته القيمة في كيفية التعامل مع القرآن الكريم، وكيفية التعامل مع التراث الإسلامي، وقضايا الفنون وموقف الإسلام منها وكثيرا من القضايا الأخرى، وصد

(1)- عم ار طالي: الشيخ محمد الغزالي كما عرفه في الجزائر، مرجع سابق، ص 54-55.

(2)- مسعود فلوسي: الشيخ محمد الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود، مرجع سابق، ص 91.

(3)- المرجع نفسه، ص 92.

له عددا من الكتب المهمة هي: " كيف نتعامل مع القرآن " و " نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكري " و " تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل " ... ومن خلال تلك المرحلة المباركة من عمر الغزالي، أتيح له تسجيل أهم خبراته خلال حياته الحافلة بالعطاء تسجيلا بالصوت والصورة، من خلال إجراء حوارات علمية مكثفة يقوم بها أساتذة محاورون أكفاء بعد دراسة مستفيضة في تراث الغزالي وإنتاجه العلمي، ولعل من أهم ما ورد في تلك التسجيلات أنها عاجلت " ما وراء " فكر الغزالي " الذي دون في كتبه ودروسه ومقالاته. كما أنها تعرضت لتقديم تفسيرات مباشرة، وصریحة لكثير من الأحداث والمواقف التي لم يعرف المتصلون بحياة الغزالي أو معظمه تفسيراً صريحاً لها⁽¹⁾.

وفي هذه المرحلة من حياة الغزالي (1989-1996م)، تم تكريمه في عدة دول إسلامية، فنال من الأوسمة والجوائز ما يثبت جدارته واستحقاقه، فقد حصل على جائزة الملك فيصل عام 1989م، وحصل في العام نفسه على أعلى وسام جزائري، كما حصل على أرفع وسام باكستاني سنة 1990م، كما حصل على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية من المجلس الأعلى للثقافة من حصر عام 1992 واختير لجائزة " كتاب العام " في 1991م، لما تميز من نشاطه الفكري، وقبل وفاته بأيام قلائل منحه ماليزيا وسامها الأول، وكذا رشحته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة " ايسيسكو " لنيل جائزة السلطان " حسن البلقية " العالمية سلطان بروناي " العالمية للدراسات الإسلامية التي يتولاها مركز اكسفورد الإسلامي في لندن ... الخ.

ظل الغزالي يمارس نشاطاته في ساحة الدعوة عاملاً مجاهداً لم يعرف الكلل أو الملل، وقد كان يدعى لسنوات متتابعة لحضور مهرجان " الجنادرية " الذي تتم فعاليته بالرياض، عاصمة المملكة العربية السعودية، لكنه كان يعتذر لظروفه الصحية التي لا تسمح له بالحضور والمشاركة، أما في سنة 1996 التي لقي فيها ربه، شاءت حكمة الله أن يسافر إلى الرياض، للمشاركة في مهرجان " الجنادرية "، أين فاضت روحه الطاهرة مساء يوم الأحد 19 شوال 1416 هـ الموافق لـ 9 مارس

(1) - طه جابر العلواني: الشيخ محمد الغزالي رحمه الله وصفحات مضيئة من حياته، مرجع سابق، ص 11-12.

1996م وهو على منبر الدعوة إلى الله، وتحركت طائرة ملكية إلى القاهرة تحمل إلى السعودية أسرته الكريمة، ثم تحركت طائرة ملكية أخرى تحمله إلى البقيع ليدفن ع طليعة خير أمة أخرجت للناس ... مع صفوة الصفوة رضي الله عنهم⁽¹⁾.

لقد كان لخبر وفاة الغزالي - رحمه الله - دوي هائل في أرجاء العالم الإسلامي كله، بل وحتى خارجه لم يحض بمثله الملوك والرؤساء إذ بكاه الملايين، وبعته وكلاء الأنبياء ووسائل الإعلام العالمية، وأقيمت لتأبينه الندوات والمؤتمرات في الجامعات والمراكز العلمية والثقافية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

ولعل السبب في ذلك يعود إلى خصائص شخصيته واستقلالية معالم فكره والتي نتطرق إليها في المبحث الموالي.

(1) -محمد الغزالي: قصة حياة، مصدر سابق، ص254.

المبحث الثالث: معالم شخصية وفكر الغزالي:

تمهيد:

إن الدارس لشخصية الغزالي وفكره، والمتتبع لمواقفه وإسهاماته الفكرية في تجلية حقائق الإسلام، والدفاع عنه، بغاية فهم قيمه وأبعاده وخصائصه، كدين جاء للعالمين بوحداية الله، والمساواة، ودين خاتم النبوات والرسائل، بما يجعله صالحا لكل زمان ومكان؛ يدرك خصائص شخصيته المستقلة ومعالم فكره المتميز والتي جعلت منه أهلا للدراسة والتحليل. نحاول في هذا المبحث إبراز المعالم الشخصية والفكرية التي صنعت منه شخصية فذة منفردة نجملها فيما يلي:

المطلب الأول: معالم شخصيته

1- القوة والشجاعة الأدبية:

وهي ميزة للغزالي وليدة التربية التي نشأ عليها، والتي تشبع فيها بالقيم الإسلامية، ويقين النضال، مما جعله وفيًا لمنطلقاته الفكرية، مستوعبا لمختلف الآراء وتفاوت الرؤى، مستثمرا في ثراء التعدد ورخاء التنوع، مدركا لواقعه الاجتماعي والاقتصادي، موظفا لبصيرة العقل، جريئا ومستميتا، فقد ألزم نفسه منذ يفاعته بالتحلي بفضيلة الشجاعة، والتخلي عن الخوف، فقد حكى عن نفسه حيث قال: "حدث وأنا غلام في مرحلة التعليم الثانوي أن أجتاح قريتنا حديث عن الأشباح التي تظهر بالليل، وشعرت بوجل يملكني وأنا أستمع إلى أبناء هذه الكائنات المخيفة، ثم أنكرت من نفسي هذا الفزع الذي لا ينبغي أن يخامر مؤمنا فإن المؤمن يخشى الله وحده... إذا فلاؤدب هذه النفس الهلوع وبم؟ إكراهها على مواجهة ما تخاف؟ وبعد العشاء احترقت وحدي الليل المخيم على البلاد والحقول، ولفت على المقابر الموحشة بعيدا عن العمران، وأخذت أنقل خطواتي بين دروبها الضيقة،

وعيناى تستشفان كل شيء حولى، وقلبي لا يفتأ يدق، وكانت رحلة شعرت من أعماقي كرها لها، ولكن ما منها في نظري بد... لقد قررت أن أدخل هذه المقابر من طريق وأخرج من طريق آخر⁽¹⁾.

و هذا ما يعكس تربيته التي كان لها أثرها البعيد في تربيته النفسية والروحية، حيث شارك وقاد عدة مظاهرات احتجاجية ضد الظلم الاجتماعي، والاستبداد السياسي - كما سبق ذكره - ويذكر له أنه عندما كان في معتقل الطور ورأى العسكريين الذين كانوا يشرفون على المعتقل يأكلون حق السجناء، فخطب الجمعة داخل المعتقل، وأهلب المشاعر، وأيقظ الروح ضد الثورة على هذا الظلم، وبعد انقضاء الصلاة قاد الغزالي في السجن مظاهرة أجبرت المشرفين على الرضوخ لمطالب المعتقلين، فأصبحوا منذ ذلك اليوم يتسلمون ما تقرر لهم من الأطعمة الجافة والمعلبات ليقوموا بأنفسهم بطبخها وتوزيعها⁽²⁾، وعلى هذا النحو انطبعت شخصية الغزالي، إذ أنه كان ينبذ الجبن، فالجبان في رأيه لا يؤمن إلا بنفسه إذ يقول " ... لم أر في حياتي جبانا وصل إلى المقدمة وهو ليس لديه الشجاعة أن يتقدم خطوة، وهو في غالب الأحيان لا رأي له فهو يقبل على الشمس إذا أشرفت ويدير لها ظهره إذا غربت⁽³⁾."

فالمقدام في رأيه لا يخاف إلا الله، وغضبه ولا يخشى إلا سلطان الحق، إذا حارب في النور، وإذا آمن برأيه أعلنه ولم يكتمه، وإذا اعتنق عقيدة ضحى من أجلها، فإذا اقتنع بصواب جهر بيقينه، وإذا أدرك ضلالا سارع إلى محاربه دون تردد ودون كلل ولا ملل، إذ نجده مثلا يعلن عن شجاعته في مقدمة كتابه "الإسلام في وجه الزحف الأحمر" يقول: رأيت أن أكتب هذه الصحائف الحافلة بالحقائق العلمية والتاريخية، فأودعتها صرخات قلب غيور على دينه، شفيق على أمته، وأعرف أني

(1) -محمد الغزالي: حدد حياتك، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، دط، 1986، ص 232.

(2) -يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته مرجع سابق، ص 17.

(3) -محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية، دار السلام للنشر والتوزيع، الجزائر دط، ص 188.

بكتابتها سأعرض لعداوات ميّته، ولكن بنسب الحياة أن تبقى ويفنى الإسلام⁽¹⁾.

فلغزالي قد عاش حر ومنعتق الفكر والضمير، حر القلم واللسان لم يخن ضميره، ولم يخضع لعدوه، ولم يعبد إلا ربه، رفض الخضوع لمغريات العوام وسلطة الحكام، فبرزت سمة الشخصية القوي في شخصه من خلال كتبه، ومقالاته وخطبه ومواقفه، حيث كان جريئاً وصائباً مع حسن الأدب، صادقاً في القول، ترجم إيمانه في سلوكه وحسن معاملته لغيره، حسن الجواب، يحترم اختلاف الآراء، يجيب الأمي والمتعلم والمتعصب والمعتدل، بقوة أدبية، كما عرف بصراحته فلا يخاف في الله لومة لائم وهو يدافع عن الإسلام ويبين تعاليمه.

ولقد شهد له الكثير من المفكرين بهذه الشجاعة، فيوسف القرضاوي يقول: "فلسان الغزالي لم يخلق ليهتف باسم الله وحده، ذاكراً له وتالياً لكتابه وداعياً إلى دينه، ويد الشيخ لم تخلق لتصفق لزيد أو عمر من الناس بل لتمسك بالقلم سلاحاً تشهره في وجوه الطواغيت، وينير بكلماته السبيل أمام طلاب الهداية في تيه الضلالات وملتمس النور في دنيا الظلمات"⁽²⁾.

وقد يكون من مواصفات الغزالي سرعة الغضب، إلا أنه سريع الفياء، رجاع إلى الحق إذا تبين له، كما عرف بنقد الذات والرجوع عن الغضب، فهو شجاع عندما يهاجم ما يعتقد خطأ، وشجاع عندما يعترف بأنه لم يحالفه الصواب، ولعل هذه شجاعة لا تتوفر إلا في القليل من الناس. ومن أمثلة إثبات هذه الصفة فيه، مراجعة الغزالي موقفه بعدما اختلف مع حسن الهضيبي³، وتبين له أنه هناك أحيانا حدة في طبعه كثيراً ما تسبب في إبعاده عن الموضوعية، فأصلح ما وقع بينه

(1) -محمد الغزالي: الإسلام في وجه الزحف الأحمر، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د ط، د ت، ص 2.

(2) -يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته، مرجع سابق، ص 66-67.

(3) -حسن الهضيبي: هو المرشد الثاني لجماعة الإخوان المسلمين من مواليد 1891م بمصر، تولى القضاء، ثم مستشاراً قضائياً، خلف حسن البنا إدارة شؤون حركة الإخوان المسلمين، سجن بعد الثورة المصرية، لالتفامه بالتأمر على جمال عبد الناصر، توفي سنة 1973م. انظر: الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج 2، ص 225.

وبين الهضيبي قبل رحيل هذا الأخير⁽¹⁾.

ومن مواقفه أيضا أنه ناقش الاشتراكية، حينما سادت موجتها في العالم العربي تصدى لها الغزالي، فتمنّ فيها ميزة العدالة الاجتماعية، وقد اضطره الأمر إلى استعمال بعض المصطلحات مثل الاشتراكية الإسلامية والديمقراطية وغيرها، هادفا من وراء ذلك رد المعجّين بالشيوعية والمد اليساري عامة، وقد ضاهى الغزالي في خطته هذه الكثير من المفكرين الإسلاميين منه مصطفى السباعي⁽²⁾، سيد قطب، مالك بن نبي⁽³⁾، وغيرهم، لأنه من أهل حرية الفكر عند الوفاق، ومن أهل الموعدة الحسنة عند الاختلاف.

وبعد تراجع المد اليساري، راجع الغزالي منهجه في محاربة هذا التوجه، إذ نقرأ له في الكثير من كتبه وحواراته عن هذه المراجعة معتذرا بذلك عن هذا المنهج رغم جدواه الهائلة في تلك المرحلة التاريخية قوله: " ... والكتب الأولى التي ألّفها في شبابي كانت دفاعا عنيدا عن الإسلام وتقديمها للبدائل التي تغني عن الشيوعية، وهنا نقد موجه لهذه الكتب يتلخص في هذه النقاط: أن حقائقها العلمية مبعثرة يتقصها التماسك الفني، وأن العاطفة الحادة تسودها وأني قبلت مصطلحات الديمقراطية والاشتراكية وذلك لا يجوز، وهذه التهم فيها قدر من الصواب، وفيها أيضا بحس لجهد كبير، وعذري أنني كنت أرتاد ميدانا لم أسبق إليه، والرائد يستكشف ويدع لغيره التنظيم وهذا ما حدث

(1) محمد الغزالي: من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث، دار الهناء للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر د ط د ت

(2) مصطفى السباعي: كان على رأس كتيبة الإخوان المسلمين في الدفاع عن بيت المقدس سنة 1948، كان أستاذ بكلية الحقوق ومراقبا عاما للإخوان، ثم عميد كلية الشريعة عام 1955، من مؤلفاته: السنة والمكانتها في التشريع الإسلامي، اشتراكية الإسلام، شرح قانون الأحوال الشخصية وغيرها. توفي بدمشق 1967م. انظر: الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج7، ص231-232.

(3) مالك بن نبي (1905-1973م): من أعلام الفكر العربي، ولد بقسنطينة، درس في الدراسة القرآنية والابتدائية بالمدرسة الفرنسية، سافر إلى فرنسا وبعد عودته انغمس في الدراسة والحياة الفكرية، ثم انتقل إلى القاهرة بعد 1954، فحضي باحترام كبير، حيث كتب فكرة الإفريقية الآسيوية، وبعد الاستقلال عاد إلى الجزائر وعيّن مديرا عاما للتعليم العالي، حتى استقال سنة 1967، حيث تفرغ للكتابة. انظر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة أو انظر: موقع الأستاذ مالك بن نبي: مالك ابن نبي رجل مفكر وحضارة.

... أما قبول المصطلحات الحديثة، فمازلت مترددا في حكمه ، ولا ريب أني سأهجر هذه المصطلحات الدخيلة بعدما يتحرك الفقه الإسلامي ويضع ما يعني عنها"⁽¹⁾.

كما يشهد محمد عمارة للغزالي الخاصية حيث كتب يقول عن مراجعته له، كما كتب عن الملك عبد العزيز آل سعود في أول مؤلفاته: "وهو مما يضرب نموذجا آخر من نماذج الموضوعية في محاسبة النفس، ونقد الذات، ومراجعة الفكر والعودة لما يراه حقا ... وتلك لعمرى شواهد صادقة على عظمة هذا الشيخ الأواب"⁽²⁾.

ونسجل هنا موقفا بارزا آخر للغزالي مع محمد عمارة نفسه، عندما سارع إلى مراجعة ما بدر منه في شأن هذا الأخير، وهو ينتقد التيار الإسلامي، وقد ذكره من هؤلاء"⁽³⁾.

كما نجد الغزالي يقف وقفة شجاعة مع إنصاف المرأة المسلمة ومساواتها مع الرجل في الحق العام⁽⁴⁾، وليس بالمبالغة في هذا المقام القول أن الغزالي قد قاد تيارا شجاعا لإنصاف المرأة من منطلق الرؤيا الإسلامية المعتدلة والتي توصل لها حقوقها وواجباتها الاجتماعية والإنسانية، فبين أن الإسلام قلب الموازين العالمية السابقة والتي كانت تهم المرأة وتحتقر أنوثتها ووظيفتها الطبيعية، فقد رفض تيار التفريط الذي أوقعها فيه تخلف المسلمين بجرمانه حقوقها، والوظيفية ومساهماتها في المجتمع، وقاوم مقابل ذلك تيار الإفراط الذي أوقعها فيه الحضارة الأوروبية، والتي تعبت بإنسانية المرأة وتجعلها مادة وسلعة تباع وتشترى باسم حرية الجسد وحرية المتعة البهيمية. ومازال موقفه الناري من حقوق المرأة يتردد في كل مكان، حيث يؤيده في موقفه هذا محمد أبو زهرة إذ وجها البحث معا في شؤون المرأة

(1)-محمد الغزالي: الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، دار الكتب، الجزائر ط1، 1987، ص 137-138.

(2)-محمد عمارة: الشيخ الغزالي: الموقع الفكري والمعارك الفكرية، مرجع سابق، ص103.

(3)-أنظر: المرجع نفسه، ص 108-109.

(4)-كحق تولي المرأة جميع الوظائف ما عدا الخلافة، وأيضا حق مساواة المرأة في الدية مع الرجل . انظر: محمد الغزالي: قضايا المرأة

بين تقاليد الراكدة والوافدة، دار الانتفاضة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1992، ص39-42.

وجهته الصحيحة.

ومن مواقفه أيضا التي تعبر عن قوته وشجاعته، موقفه في أحد الملتقيات الإسلامية التي كانت تعقد في الجزائر في أواخر الثمانينات⁽¹⁾ عندما تحدث سعيد رمضان البوطي عن ضرورة انشغال الدعاة بالشرعية وترك السياسة لأربابها، وقد أثار كلامه هذا الكثير من الحاضرين وأقلقهم، وكان الرئيس الجزائري السابق الشاذلي بن جديد حاضرا فطلب الغزالي الكلمة وصعد إلى المنصة فبعد أن أثنى عن صديقه البوطي، خطأه في توجيهه، وبين له بكل أدب وحوار المتعلم أن الإسلام لا يعرف الفصل بين الحكم والعلم، وأن العالم المسلم لا يسعه أن يسكت عن باطل أو يتغاضى عن المنكر من حوله، وأكبرها تعطيل الحكم بما أنزل الله، فاستراح الجميع لتعليقه وتصحيحه الرأي بالشجاعة والدليل⁽²⁾. ولعل رمضان البوطي لم يعبر إلا على فقه مذهب الصوفية الذي دأب على عدم التطلع إلى السلطة ولا التورط في تزكية ممارستها أو بُغضها.

وربما كان رد الغزالي على خالد محمد خالد قبل تراجع ردا جريئا وشجاعا عندما كتب كتاب "من هنا نبدأ" يروج فيه لفكرة فصل الدين عن السياسة، فتصدى له الغزالي بكتابه "من هنا نعلم" وعلق عليه بقوله: "إن نظام الحكم الإسلامي ليس من سائر الأنظمة المعروضة ليختار منها المسلم ما يشاء ويهمل ما يشاء وإنما هو نظام منبثق رأسا على عقيدة التوحيد وعبر عنها في واقع الحياة الاجتماعية"⁽³⁾.

وبهذا استطاع الغزالي بعقليته المستوعبة وبيانه الرائع الأخاذ وجراته وشجاعته أن يعبر عن قيم الإسلام العقائدية ومقاصده الكلية ومشروعه الحضاري.

ومن خلال ما سبق ذكره ندرك أن الشجاعة كانت خلقا أصيلا في شخص الغزالي وسمة لا

(1)-الملتقى الفكري الإسلامي المنعقد بقسنطينة، الجزائر، سنة 1989، ص338-339.

(2)-أنظر يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته، مرجع سابق، ص150.

(3)-معد الغزالي: من هنا نعلم، دار الكتب الحديثة، ط6، 1965، ص10.

تنفك عنه، لأنه يؤمن بلأها إحدى الثوابت العظمى في الدفاع عن الإسلام وعقيدته، إذ أن الشجاعة والجرأة والصدع بالحق لا يكون له معنى بعد رحيل الأحياء لعالم الموت، فكلم من نافذ تناول الزعماء وذوي السلطات بالنقد بعد موتهم، لكن الغزالي كان يصدع بما تأمره عقيدته السليمة، كانت غايته من ذلك تبليغ كلمة الله وتصفية الإسلام من لوث بعض القراءات غير الموفقة، والممارسات التي كرس ثقافة موروثها بما لا يواكب المستجدات، والإسلام دين صالح لكل زمان ومكان.

عزة النفس:

ظهرت عزة النفس من خلال أقواله ومواقفه إزاء الكثير من الأمور، ولعل تطلعه للمزيد من الكرامة إنما استمدته من إيمانه العميق، بأن رب الكون قد كرم بني آدم لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾⁽¹⁾ فلماذا يذل الإنسان نفسه ويستكين للهوان؟ فكان الغزالي يردد دائما قول الشافعي:

همتي همة الملوك ونفسي
نفس حريري المذلة كفرا⁽²⁾

ولقد كان رجلا قرانيا، الأمر الذي مكّنه من الوقوف على أشياء لم يهتد إليها غيره، و قد زاده إيمانا ويقينا بربه عز وجل حتى جعله يردد أيضا قول الشافعي:

أنا وإن عشت لست أعدم قوتا
وإذا مت لست أعدم قبرا⁽³⁾

إن أهم ميزة المؤمن هي التواضع في المواقف والمرونة في الرأي والتسامي في الثقافة، واعتزاز المسلم بنفسه ودينه وربّه، هو من كبرياء إيمانه، وكبرياء الإيمان، غير كبرياء الطغيان، إذ كل عمل

(1) -سورة الإسراء آية 70.

(2) -الشافعي، الديوان، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط 3، 1426هـ-2005م، ص 53. من بحر الخفيف.

(3) -المرجع نفسه، ص 53.

المسلم نابع من إيمانه، فقد كان الغزالي لا يغضب إلا لبغضه للظلم والهوان لنفسه، فلا يجب أن يظلم أو يستخف بكرامته وكرامة غيره، ولا يطبق العوج والانحراف⁽¹⁾، وفي هذا يقول الغزالي " إن اعتزاز المسلم بنفسه ودينه وربّه هو من كبرياء إيمانه وكبرياء الإيمان غير كبرياء الطغيان، إنها أنفة المؤمن أن يصغر لسلطان، أو يتضع في مكان، أو يكون دنيا للإنسان، هي كبرياء فيها من التمرد بقدر ما فيها من الاستكانة، وفيها من التعالي بقدر ما فيها من التضامن، فيها الترفع على مغريات الأرض ومزاعم الناس وأباطيل الحياة، وفيها الانخفاض إلى خدمة المسلمين، والتبسط معهم، واحترام الحق الذي يجمعه بهم، فيها إتيان البيوت من أبوابها، واطلاب العظمة من أصدق سبلها"⁽²⁾.

فالعزة والإيمان من أبرز الحلال الذي نادي به الإسلام، وغرسها في أفراد المجتمع، وتعهدها، لما شرع من عقائد وسنن وتعاليم، والعزة كما يرى الغزالي حق يقابله واجب، فلا يحق لامرئ أن يطالب بماله من حق حتى يؤدي ما عليه من واجب قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁽³⁾.

فالإسلام قد أوصى المسلم بالعزة، وهداه إلى أسبابها ويسر له وسائلها، وأفهمه أن الكرامة في التقوى، وأن السمو في العبادة وأن العزة في طاعة الله⁽⁴⁾، لذا كان الغزالي يقيم المعارك وهو يحمل نفساً خاشعة تأنس للحق وتمش له وتستعلي عن الباطل وتعرض عنه وترى في ذلك كرامتها وعزتها⁽⁵⁾.

(1) -يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته، رحلة نصف قرن، مرجع سابق، ص 44.

(2) -محمد الغزالي: خلق المسلم دار المعرفة، الجزائر د ط د ت ص 196.

(3) -سورة تونس، آية 26.

(4) -أنظر محمد الغزالي: خلق المسلم، المصدر السابق ص (197-198).

(5) -قطب عبد الحميد قطب: خطب الشيخ محمد الغزالي، دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع مصر، القاهرة، المجلد الأول، دط،

كما تلمس فيه نفسية عامرة بالثقة بالله وبتأييده ونصرته عز وجل فكان ذا أنف حمي، وغيره أبيه على دينه، ولقد مكنته هذه من السير والتقدم حثيثا في سبيل الإصلاح رغم العوائق التي اعترضت طريقه. والحقيقة أن استعلاء الإسلام في نفس المسلم لا تنبع إلا من حسن عبادته لربه وحده، ولهذا كانت غيرة المسلم قوة تتضاءل دونها القوى، فمن اعترز بالله أصبح سيدا في نفسه، سيدا في مكانه. كما كانت سمة الصدق في كل أحواله مع نفسه، وفي عمله ومع إخوانه، فإذا رأى أمرا يمحضي على عوج سارع بالصدع برأيه والوقوف عنده.

المطلب الثاني: معالم فكره

الشمول والتنوع

يتسم العطاء الفكري والعلمي عموما والعقدي خصوصا لمحمد الغزالي بشموليته وتنوعه من حيث الموضوعات التي تناولها غاية التنوع، وقد نلمس ذلك أحيانا في المؤلف الواحد، كما أن دعوته بالحاح للمشاركة في العديد من الجمعيات والملتقيات والندوات والنشاطات الفكرية دليل على شمولية فكره وتنوعه، ولعل ما ساعد على بلوغ ذلك:

- دخوله عالم التأليف والإبداع مبكرا منذ أن كان في الثمانية عشرة عاما⁽¹⁾، يضاف إل ذلك محاضراته ودروسه العلمية التي كان يلقيها في الملتقيات والمؤتمرات
- تتبعه الدقيق وانشغاله بما يجري في الساحة الإسلامية من مستجدات وأحداث، فما من حادثة إلا وكتب فيها مقال ورأي بتوجيهاته المستمدة من حقائق الإسلام، وهذا عبد الحلیم عويس يقول (... والخاصية الكبرى لكتب الغزالي أنها واكبت التحديات وتصدت للمشاكل وعبرت عن الإسلام أعمق تعبير)⁽²⁾.

(1)- أول ما ألف ديوان شعر بعنوان الحياة الأولى سنة 1354هـ - 1936.

(2)- عبد الحلیم عويس، الشيخ محمد الغزالي صور من حياة مجاهد عظيم، طبب الصحوة، القاهرة 1993، ص 10-11.

فقد نجد في مؤلفاته ما شمل (الجانب العقدي ، والجانب الاقتصادي ، والجانب السياسي ، والجانب الاجتماعي)، بل وقد نجد في الكتاب الواحد التوجيهات التعليمية ، والأخلاقية، والعقدية، والسياسية، والاقتصادية، ومعالجته لهذه الجوانب بفكره وإبداء الرأي ما يدل على الوعي الكبير لواقعه، وأنه يعيش له، وكما أن لظروف نشأته تأثير على شخصيته، فالظروف السياسية التي واكبت نشأته جعلت من الغزالي يحاول رفع المعالجة السياسية إلى أفق الإضاءة الروحية وجذبها إلى إطار التدين.

كما أن كتبه كانت فكرا يسعى لتربية الأمة واستعادة الثقة في دينها، وبأنها - كما يرى الغزالي - ليست أقل من بني إسرائيل في قدرتها على البعث والانطلاق بالإسلام. كما كان فكره رسالة وعي وخطابا إسلاميا حضاريا، بحث في العقيدة في ظل الكتاب والسنة وربطها بواقع المسلم، عالج منهج تربية المسلم على العقيدة الصحيحة والسلوك القويم وحرص على ضرورة الوصل بينهما. كانت كتبه تواجه التحديات المعاصرة الداخلية والخارجية ⁽¹⁾ على حد سواء، كما كانت كفاحا ضد موجات القهر، والإلحاد والانحلال التي زحفت على المسلمين، -وتصدى لها- وكان من الأوائل الذين أدركوا الثغرات التي يمكن أن يتسلل منها أعداء الإسلام من خلال واقع اجتماعي ليس له من الإسلام سوى الاسم، فكتب "الإسلام والأوضاع الاقتصادية، الإسلام والمناهج الاشتراكية" وكتب في السلوك وعلاقته بالإيمان "عقيدة المسلم"، "ركائز الإيمان"، "الجانب العاطفي من الإسلام"، "مع الله"، "تراثنا الثقافي في ميزان الشرع والعقل".

ولعل من شمولية فكره وتنوعه أن تقف مدرسة الغزالي وسطا جامعيا بين كل التيارات الإسلامية ملتزمة بالكتاب والسنة، تدعو إلى التكامل والتنسيق بين كل العاملين للإسلام، كما تضع الرؤية الحضارية الشمولية فوق الرؤى الجزئية، وهذه الشمولية مستمدة من إيمانه بشمولية القرآن

(1)-سيأتي الحديث عن التحديات الداخلية والخارجية في الفصل الثالث لهذا المبحث.

وعظمته⁽¹⁾، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾⁽²⁾.

فلقد جاء فكره إذا متدققا شاملا من ينبوع الهداية متصلا به ومتوصلا مع الماضي والحاضر والمستقبل ملتصقا هموم الأمة ومتطلبات حياتها المعاصرة، بسعة أفق فكري وعلمي وخلقي، ومنهجية إسلامية تحسن التعامل مع القرآن ومع السنة النبوية، ومع التراث الإسلامي والإنساني، جاهدة ما وسعها الجهد في بناء نظام معرفي متكامل ينشد بناء المجتمع الإسلامي، والإنساني، بناء استخلاف، وعمران حضارتهم البشرية جمعاء في ظل عقيدة سليمة.

2- البساطة في الأسلوب والعمق في الفكرة

إن المتبع لكتب الغزالي يلمس فيها من الخصائص الأدبية والمنهجية ما يجعلها نسيجاً واحداً من الكتب ولذلك كان الشباب يحفظون نصوصه لما فيها من نصاعة البيان، وقوة الإيمان، وروح القرآن⁽³⁾.

فكان دقيق الفكر والفهم، ذا عقل مبصر، وقلب مؤمن، يبحث عن اليقين بالدليل والبرهان، حريصاً على تبسيط المعارف الدينية، وعرض الإسلام من ينابيعه صافياً بأسلوب هادف.

والمستقرئ لكتبه أيضاً يجده قد جمع بين البساطة والعمق، وهما قلما يجتمعان لكاتب أو مفكر إذ أننا نجد بعض المفكرين يعتمدون العمق في إيصال الفكرة بلغة تستعصي على الإفهام، وبعضهم يأخذ بنهج التبسيط، فيأتي بفكرة سطحية عاجزا عن الوصول إلى الأعماق، لكن الغزالي جمع بين ملكة البيان والتبليغ وقوة الحجّة، بأسلوب متميز فجعلت منه الممارسة يجيد أداء ما أعده ذهنه من دقيق الأفكار ومن تحليل لأعقد المشكلات.

(1)- محمد الغزالي: قصة الحياة، مرجع سابق، ص 242.

(2)- سورة الإسراء، آية 09.

(3)- يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته، رحلة نصف قرن، مرجع سابق، ص 24.

فقد تميز بمنهج، وفكر، وتفكير، في كتبه وخطبه وحواره وتواصله مع الناس، ربما لامتلاكه زادا معرفيا دقيقا موهوبا بيقين، فهو عبقرى حيث يكتب، أو يخطب، وقد لمسنا هذا منه أثناء دراستنا في الجامعة⁽¹⁾، فكنا نترقب طلعتة إلى قاعة المحاضرات والشوق يجدونا حتى تتراءى لنا صورته بكل هنية ووقار وتواضع وهو يدخل علينا المدرج بوجهه الباسم ليهرنا بحديثه، لما فيه من دقة النظر وخبرة الحاذق ودراية العارف بكنوز الدين، والتبصر بالواقع، فقد كان يشدنا إلى محاضراته من خلال تناوله للموضوع من زوايا محددة، ومنهجية منتظمة نحو هدف واضح، يصل إليه بسهولة وهو يسوق الجمل التي تشبه القضايا المنطقية بأسلوب يجمع بين العمق والرشاقة وهما ينساقان إلى العقل والقلب.

ونلمس في حديثه وكتاباتة عذوبة وأناقة في التعبير، فلا تجد في كلامه حشوا، ولا تقعرا ولا غرابة بعيدا عن التكلف والتعقيد وذلك لتمكنه من اللغة العربية وعلوم اللسان، وصحيح المنطق.

كما أنه صاحب قلم متميز ببلاغته وروعة أسلوبه، وقوة منطقته، جنده للدعوة وتوضيح معالم الإسلام وبيان حقائقه، وتثبيت العقيدة في قلوب الناس.

وقد زادت الباحثة إدراكا لهذا التميز في الأسلوب عند قراءته المعظم كتبه أثناء إعداد هذا البحث، فوجدت نفسي أمام كاتب من طراز متميز⁽²⁾ كما قال عنه يوسف القرضاوي.

وبهذه البساطة في الأسلوب وعمق الفكرة، خاطب الغزالي الفكرة واجتهد في إقناع العقل وتحريك القلب دون تقعر وتكلف يعيدا عن الرموز وتكثيف المصطلحات.

وعلى سبيل المثال فيما يتعلق بالبساطة والعمق ما لمسناه الكثيرون من خلال الحديث الأسبوعي⁽³⁾ الذي كان يقدمه الغزالي في الجزائر، كان يستقطب الأغلبية الساحقة من الجزائريين وعنه

(1) -درسنا محمد الغزالي: مقياس التفسير الموضوعي بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في مرحلة التدرج سنة 1986 إلى 1988م.

(2) -يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته، مرجع سابق، ص26.

(3) -حديث أسبوعي كان يلقيه الغزالي كل يوم اثنين في التلفزة الجزائرية طيلة مكوته في الجزائر-قسنطينة-

يقول عمار الطالبي⁽¹⁾: "الذين كانوا يجتمعون أمام الإذاعة والتلفزة للاستماع لحديث الغزالي فلم يكن حديثا جافا تنفر منه النفوس، بل لين الأسلوب شيق العرض، بسيط العبارة عميق الفكرة، ولم يكن حديثه حوضا في النظريات والترف الفكري، وإنما كان علاجا لقضايا الناس التي تعترض حياتهم فيناقشها على ضوء تعاليم الإسلام ومبادئه الواقعية الإنسانية، إذ يجد الناس في تلك الأحاديث الأدوية الشافية والأجوبة الكافية، والتوجه المهادن حتى حسب الناس أن بن باديس قد بعث وأن الإبراهيمي قد عاد⁽²⁾. وهنا يشهد له عمار طالبي بوضوح فكرته وسهولة عباراته وصدق لهجته، وحسن استشهاده بالقرآن، ففهمه الجماهير بفطرتها لأنه يخاطبها في أعماقها، فتستجيب له عقولهم وقلوبهم، لفكره السديد وحسن أسلوبه، وكما كان يرد الناس من الجزئيات إلى الكلّيات، ومن الفروع إلى الأصول والأولويات، ومن المختلف إلى المتفق، ومن الغلو إلى الاعتدال، ومن التركيز على أعمال الجوارح إلى أعمال العقول والقلوب⁽³⁾ كما سيأتي بيانه.

وإن تميزت كتابات الغزالي بالبساطة وعمق الفكرة، إلا أنها تعرضت إلى النقد الشكلي في جوانب⁽⁴⁾ وخاصة كتاباته الأولى: أولها أنها تنقصها المنهجية العلمية الأكاديمية، وإن كان لا ينقصها

(1) -الدكتور عمار طالبي الرئيس الأول لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية فترة ما بين 1984-1990م، من مواليد 1934 بقرية جلال (خنشلة)، تعلم في الكتاب، درّس المرحلة الثانوية بتونس (1947-1954م)، تحصل بالزيتونة على شهادة التطويع، المكافئة لشهادة البكالوريا، انخرط في جبهة التحرير الوطني، ثم التحق بجامعة القاهرة، قسم: الفلسفة، فتحصل على شهادة الليسانس سنة 1962م، تكفل بتمرين معلمي اللغة العربية عند عودته إلى الجزائر، ثم معيدا بالجامعة، تحصل على شهادة الماجستير والدكتوراه، بجامعة الجزائر، ثم عميد مدير معهد العلوم الإسلامية (1982-1984م)، ثم رئيسا لجامعة الأمير عبد القادر، ثم أستاذا زائرا بجامعة قطر (1990-1999)، كان عضوا مراسلا لمجمع اللغة العربية في القاهرة وعضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة في الأردن، تحصل على جائزة الدولة التقديرية فيه سنة 1987، من أعماله: ابن باديس حياته وآثاره، مدخل إلى عالم الفلسفة، آراء أبا بكر بن العربي الكلامية. انظر: مجلة الحوار الفكري، دار الهدى، قسنطينة، ع3، 2002م، ص11-16.

(2) -عمار طالبي: الشيخ محمد الغزالي كما عرفته في الجزائر، مجلة إسلامية المعرفة، مرجع سابق، ص49-50.

(3) -المرجع نفسه، ص5.

(4) -محمد الغزالي: الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، رجع سابق، دار الكتب، الجزائر ص138.

النظر السليم، والفكر القويم، والفقهاء المستقيم في الدين والدنيا.

ثانياً: أنها تتميز بالعاطفة الحادة وأنه قد استعمل مصطلحات الاشتراكية والديمقراطية لجلب المثقفين، ولقد أجاب بنفسه على ذلك كما سبق ذكره.

إلا أنه إذا كانت كتاباته -خاصة الأولى- قد تنقصها المنهجية العلمية الأكاديمية، فإن عطاءه

الفكري قد عمل على ترسيخ المبادئ الأساسية للفكر الإسلامي، كي تكون الانطلاقة قوية وفي مسارها السليم، كما جاءت رؤيته المنهجية تعمق الركائز الإيمانية، وتجنّد (تغرس) أصول العقيدة في عقل وقلب المسلم، وتعيده إلى منابع الصافية من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما سعى إلى إبراز حقيقة التوحيد وأنه مبدأ كل شيء، وغاية كل شيء وأساس وحدة الخلق وعليه يقوم بناء الكون والحياة والإنسان والكائنات، وأن الحقيقة كل متكامل وكل هذا عبر عنه الغزالي في كتاباته ودعا إليه وحققه في مواقفه، بأسلوب بسيط وعميق في آن واحد.

محمد الغزالي شاعراً:

عرف عن الغزالي تلك المواهب المعرفية الإسلامية، وأما الذي لا يعرفه الناس هو أنه كان شاعراً ذو موهبة خصبة وقريحة معطاءة، وقلم مطواع وبيان سائح حيث كان له ديوان شعر، وكان الغزالي متمثلاً في حياته حكمة الشافعي في بيته المشهور:

و لولا الشعر بالعلماء نخري لكنت اليوم أشعر من لبيد⁽¹⁾

و هذا البيت الشعري للشافعي ينطبق على الغزالي، فقد قال الشعر في فجر حياته ولم يلبث أن أفلح عنه⁽²⁾.

يقول الغزالي وهو ابن ثمانية عشر ربيعاً قصيدته المبكرة الحياة الأولى أو نحو المجد

(1)-الشافعي: الديوان، مرجع سابق، ص49.

(2)-محمد الغزالي: ديوان الحياة الأولى، حققه وكتب مقدمته: مصطفى شكعي، دار الشروق، ص5.

ثماني عشر مرت سه—أدا أردت على المنام ول —ن أرادا
وكانت في سبيل المجد تسعى تغاليه ولا تألوا اط —رادا⁽¹⁾

موضوعات شعر الغزالي:

أم عن الموضوعات التي طرقها الغزالي في ديوان شعره، هي موضوعات الشعر النظيف التي أسهم بالقول فيها الشعراء من ذوي المروءة والتعفف، فلم يتورط الغزالي في قول المهجاء أو المديح المغلف بالنفاق أو الغزل، وإنما طرق أبواب الحكمة والاخوانيات والتعبير عن ذاته وسلوكه، والأخلاق غمة ومكارم الأخلاق بخاصة، كما تناول موضوعات المتصوفة، وعرج على الموضوعات الإنسانية التي تغذي القلوب وتهذب المشاعر، كما وصف الطبيعة في حالاتها المختلفة، فوصف الفجر والشروق والشمس والنجوم والليل والبدر، بل وصف الطبيعة الخضراء، وخصها بالمناجاة العذبة والحنين الدافق، كما أفرد للوطنيات العديد من قصائده كما كان لشعره في الأخلاق ومكارمها تعبيراً عن الدين كله مصداقاً لقوله ﷺ: «وإنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»⁽²⁾، وكما قال الغزالي — كما سيأتي تفصيله في الفصول اللاحقة — " إن الخلق في نابع الإسلام هو الدين كله والدنيا كلها"⁽³⁾.
ومن الحقائق الظرفية، أن للغزالي ديوان شعري أطلق عليه " الحياة الأولى " ويقصد بها وصف حياته في المرحلة العمرية التي كتب فيها هذا الديوان (1354-1936) وهو إذ ذاك في الثمانية عشرة من عمره، وقد اختار الغزالي عنوان " الحياة الأول " أو " نحو المجد " فبمجرد أن تقع عين القارئ على شعره يدرك أنها سيرة ذاتية رفيعة المستوى، تسعى إلى المجد والسؤدد.

(1) محمد الغزالي: ديوان الحياة الأولى، مصدر سابق، ص6.

(2) —أخرجه الإمام مالك بن أنس في موطأه، كتاب حسن الخلق، باب: ما جاء في الحياء، حديث 1609، ج2، ص568. محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت، وقال في هذا الحديث ابن عبد البر هو حديث مدني صحيح، متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره. انظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ترجمة: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد البر البكري، مؤسسة قرطبة، 333/24.

(3) محمد الغزالي: ديوان الحياة الأولى، مصدر سابق، ص 57-95.

ولما كتب الغزالي الشاب المتحمس الساعي إلى المعالي المستشرف أسباب الجهد، يعيش دنيا ليست كدنيا الناس بل هي دنياه المختلفة عن دنيا الآخرين، ذلك لأن الآخرين رضوا بالهوان وهو لم يرض، وقبلوا النقيصة ولكنه عافها ولذلك كان يردد في قصائده قوله:

هي دنياي عشت فيها فريدا و انتأيت المأوى القص عتيدا (1)

و لما كان الغزالي موصول الأسباب بالأحوال الصوفية آنذاك، نصح مناهج شعراء الصوفية في اتخاذ الحمرة، رمز الحب الإلهي من خلال نشوتها حيث في قصيدته يقول:

ضحوك إلى الشرب الصفي وهيجهما ففي بسمات الكأس بسة نور
عذاب شهيات التحسي كـأنما سرار وجود الروح ذوب نمير (2)

و في مكارم الأخلاق، وحرصه على التزام بشعائر العبادة حيث يقف الغزالي الشاب الشاعر عند طهارة المصلي وقفة تأمل واستغراق وتمنى أن يكون العمر كله صلاة، فقد وصف الغزالي وقفة المصلي بين يدي الله وصفا يغوص فيه إلى أعماق النفس المؤمنة فيقول:

تلکم الوقفة ما أجملها في حقول بالمعاني الداخ —
تلك الوقفة فيها متعة من خلال الفترات الطاه — (3)

أما في مجال الحكمة والتأملات فقد كان الغزالي عميق التأمل حكيمًا، عاقلًا، متأنيا متأملا في الكون والحياة، منذ صغره ولازمته إلى كبره، حيث كتب مقدمة صغيرة يقول فيها: " بين النفس والكون علاقة، فكأن عناصرها أخذت من كل آياته معانيها وترجمت في إحساسها به غوامضه" ثم ينطلق بعد ذلك مفصلا هذه المعاني التي صاغها على هذا النحو العميق والفكر البديع إذ

(1) - محمد الغزالي: ديوان الحياة الأولى، مصدر سابق، ص 89.

(2) - المصدر نفسه، ص 90.

(3) - المصدر نفسه، ص 90.

يقول :

من مديد الفضاء دق عن الفه — ومنوحا أو إراك نهاية
 و ابهام الآفاق عمقا بعي—دا أحاطت به: هوم دراى —
 صاغت القدرة الضاع نفوسا بدعات فمن في الكون آية (1)
 و يجتم الغزالي قصيدته مفسرا في وضوح وحكمة وعمق تأمل، صلة النفس بالكون فيقول:
 نحن في الكون الخلاصة جم—عنا شتيا ن مستدق العناية (2)
 و في الفضائل والدين يقول :
 وددت هو الغني لو أن في المال مسعد سعادة ذي روح سعاد ذي عقل
 غنى أنا بالنفس والسعد والم—نى فأى ثراء يبتغيني سوى غ—ل
 كما تناول الغزالي موضوع الغنى والفقر، والثراء والعدم، يعالج فيه فلسفة الغنى، وأن المال لا
 يؤدي إلى السعادة، بل ليس له وزن إذا لم يقض حاجة بائس أو يعالج معفة فقير ليخلص أن الغنى هو
 غنى النفس . وهكذا كان الغزالي معلما للفضائل في فجر عمره، قال فيها شعر مثلما كان داعية
 لمكارم الأخلاق في جميع مراحل حياته .

كما كان الغزالي يحب النور في مختلف صورته، نور الإيمان، نور الحقيقة، نور البصيرة، نور
 العدالة حتى نور المصباح ونور الشمعة وقد عبر عن ذلك بآيات منها:
 أيها النور أنت تلقى وضوحا لأناس عاشوا بأبشع س —
 لا يطبقون في الحقيقة عيشا فضياء الحقيقة الغري —زري
 فقد كان بذلك ديوان الغزالي قبل سن العشرين مزدانا بشعر الفضائل، م ليثا بقصائد مكارم

(1) -محمد الغزالي: ديوان الحياة الأولى، مصدر سابق، ص91.

(2) -المصدر نفسه، ص91.

الأخلاق، وهي منتشرة على صفحات الديوان مثلما تنتشر النجوم في صفحة السماء، تعلي من قدر الديوان، وترفع من شأنه وتحبب قراءته إلى ذوي الفطرة السليمة وطلاب الأدب الرفيع.

و عن قصائده الوطنية التي ساهم من خلالها في استنهاض عزيمة الأمة، واستيقاظ وطنيتها فقد كتب ثلاثة قصائد طويلة عودة الأمس، " وإلى الأمة الكريمة " "أمة مسرقة تحت الشمس"

دم الضحايا أكان الماء نسكبا مستمري الهون في واد به إزدانا

دم العزيز لمصر جد مرتحض لو خلف التعب الحزون شجعان

كما صور الغزالي مجد الأمة الإسلامية، العلمقي والفكري والحضارتي مع تذكير واضح، وعين فاحصة إلى الحاضر المخيب، والواقع المتدهور للمسلمين، وتصوير الحضارة الغربية بصورتها الحقيقية المتوحشة التي ناصبت الشرق العداء، واستباححت أرضه وخيراتة ظلما وعدوانا إذ يقول :

أيها الشرق قد غفوت طويلا و تماديت غافل الته—ويم

ارتضتلك السماء مهبط وحي حقب الطهر في ديار النعيم

يا حفيد العتيق من كل مجد أين في الإبنى جد أكرم خيم (1)

و عليه من خلال ما قدمناه من نماذج لقصائد ديوان الغزالي ، يتبين أن محمد الغزالي الشاب

كان شاعرا واعدا أسهم بفننه الشعري الجاد في جميع قضايا زمانه، وتحدث في صراحة عليها وعن قضايا نفسه.

و قد نلاحظ في قصائد الغزالي الشاب أنه يختار كلمات غير شائعة الاستعمال، وألفاظ غير

مأنوسة للناس يصعب على القارئ غير المتمرس فهم معانيها ودلالاتها، وهذا إن ذل على شيء فإنما

يدل على ثراء لغته، إلا أننا نلاحظ أنه عندما أصبح مفكر وداعية، أدرك أنه لابد من مخاطبة الناس

بلغة بسيطة ومتواضعة مع عمقها، حتى تصل إلى قلوب وعقول الناس، قارئاً أو سامعاً أو مفكراً، وقد وصلت ولم تزل تصل إلى كل من يقرأها.

(1) محمد الغزالي: الحياة الأولى، المصدر السابق، ص 72.

التأصيل والتجديد

يحتوي الدين الإسلامي الحنيف على آليات ذاتية لتجديده، وإذا بحثنا عن أصول مفهوم تجديد الدين في القرآن والسنة النبوية نجد أنهما احتويا على العديد من النصوص التي تشير إلى المفهوم بشكل أو بآخر، أما حديث النبي صلى الله عليه وسلم فهو يشير إلى التجديد بشكل مباشر «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»⁽¹⁾ فلم ترد كلمة التجديد بلفها في القرآن، إلا أنه لا يخلو من مفهوم التجديد في عييه بمعان كثيرة منها: الإصلاح، الإحياء والتغيير⁽²⁾.

فالتجديد لا يعني تغيير جوهر الدين أو أصوله، وإنما يعني إعادته إلى النقاء الذي كان عليه يوم نشأته، حيث الأصالة والالتزام بتعاليمه الصحيحة بعيدا عما قد تعثر بها من شوائب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يعني القدرة على استيعاب مستجدات العصر، وما يحمله من قضايا لم تكن معروفة من قبل، وتحتاج إلى موقف الشريعة منها، حيث يتم ذلك من خلال الاجتهاد سواء كان فرديا أو جماعيا، فهو إذا في حقيقته تجديد وإصلاح لعلاقة المسلمين بالدين والتفاعل مع أصوله والاهتداء بهديه⁽³⁾.

و لقد أدرك الغزالي أن مشكلات العالم الإسلامي لا زالت نفسها، وهي التي خاضت فيها مدرسة التجديد والإحياء منذ زمن جمال الدين الأفغاني⁽⁴⁾، ومرورا بتلاميذته جيلا بعد جيل ظلت

(1) -أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب: ما يذكر في قرن المائة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1، (1425هـ-2005م)، ح4291، ص799.

(2) -يوسف عبد الفتاح: التجديد السياسي والواقع العربي المعاصر رؤية إسلامية، مركز البحوث والدراسات الإسلامية القاهرة، دط، ص4.

(3) -المرجع نفسه، ص5.

(4) -سيأتي الحديث عن مدرسة الغزالي وجذورها في الفصل الأخير من البحث.

هذه القضايا¹ مجرأ أساسيا في المشروع الفكري الإسلامي المعاصر، لذا وجد الغزالي نفسه مدفوعا لأن يواصل الطريق الذي بدأه الأفغاني، وسار عليه محمد عبدو، كما أن الدواعي العقدية والفكرية والسياسية التي حركت الأفغاني ما زالت نفسها التي تحرك العاملين في مجال إحياء الروح وتنوير العقول وإيقاظ الوعي.

و باستقراء أعمال الغزالي يمكن القول بأن سمة الاجتهاد والتجديد حاضرة بوضوح في كل إنتاجه، سواء في تركيبه للأفكار أو في أسلوبه في الطرح والحوار، أو في الوعاء اللغوي الأنيق - كما سبق ذكره - الذي استخدمه لبث تلك الأفكار، وعلى مدى نصف قرن من جهاده الفكري هبت في وجهه مختلف الجبهات المتناقلة في تفكيرها والتي أخذت من حيث اعتراضها على أفكاره متطلباته التجديدية.

لعل ما يقصده الغزالي بالتأصيل، هو رد الأفكار والنظريات إلى المرجعية الإسلامية، ومحاولة التدليل عليها، والاحتجاج، والاستشهاد لها من القرآن والسنة أو ما صح من تراث الأمة الفكري، وهو تأصيل فكري.

أما التأصيل العلمي⁽²⁾، فهو أن تستمد حقيقة النظرية العلمية من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، أو السنة النبوية أو من اختراع علماء الأمة.

أما التجديد فهو السبق إلى معرفة الفكرة أو اكتشافها واختراعها وإبداعها، وقد اهتم الغزالي بالإبداع والعمل من أجل تحقيق شمولية الإسلام، ولذا حرص على تأصيل المعرفة الإسلامية بردها إلى

(1) هذه القضايا: سوء فهم العقائد والجنوح بها والتواكل، وفصلها عن العمل والواقع، وفصلها عن الشريعة، حيث ما زال البحث عن تحديد الهوية وتحديد معالم الطريق الصحيح.

(2) محمد هيشور: منهج الشيخ الغزالي في التجديد والاصلاح، أعمال الملتقى الوطني الأول 22-23-24 أبريل 2001، منشورات الاتحاد العام الطلابي الحر في الجامعة الإسلامية، دار البحث للنشر والتوزيع والإعلام، ص 81.

ينابيعها أولاً، والتجديد يكون في الوسائل والكيفيات لا في المرجعية والمقاصد⁽¹⁾.

فالراصد لكتب الغزالي يدرك أنه جمع فيها بين التأصيل وعناصر التجديد، فقد إهتدى بفكره إلى موضوعات ينبغي التأصيل لها والتجديد فيها برؤية شاملة، وأداة واقعية تحققت بها نظرتة الحضارية والتي ظهرت جليلة في العديد من كتبه "سر تأخر العرب والمسلمين" و"دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين" هموم داعية، و"الغزو الثقافي يمتد في فراغنا".

كما أنه أُلّف عن قضية التأصيل لمعارف الدّين بأسلوب استجاب لدواعي الواقع الإسلامي المعاصر، حيث اهتدى فيها إلى كيفيات التأصيل ومواطن التجديد في طرحه الفكري الحضاري تجلّى ذلك في كتاباته "عقيدة المسلم"، "كيف نفهم الإسلام"، "عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق".

ولعل اهتداء الغزالي إلى هذه الكيفيات يعود إلى طبيعة شخصيته وتكوينه العلمي وثقافة عصره التي عاشها قلباً وعقلاً، وكما سبق ذكره في المبحث الأول فإن محمد الغزالي من أسرة عريقة في التدين، والأصالة التاريخية والحضارية، وكأنه وُلد مزوداً بترعة التجديد، دعمها انتماءؤه إلى الحركة الإسلامية، إضافة إلى دراسته في الأزهر، والغزالي كان من المجددين الذين سعوا إلى إخراج الدراسة في الأزهر من دائرتها الأكاديمية إلى الميدان التطبيقي العملي، ومن مثالياتها التاريخية إلى واقعية معاصرة، لذا حاول الغزالي أن يستفيد من محاسن ثقافة عصره ويعرض عن مساوئها، حيث أننا نجد كثيراً ما يشيد بمحاسن الحضارة الغربية، وينتقد سلبياً، حتى أن بعض خصومه قد أخذ عليه هذا التوجه.

إلا أن هذه المكونات الثقافية مكنته من أن يجعل من التأصيل تجديداً ومن التجديد تأصيلاً، بمعنى أن دعوته إلى تأصيل التجديد هو تجديد في حد ذاته.

كما أنه دعا إلى استثمار الجهود الفكرية، وذلك بتجاوز التقليد بالتأصيل للفهم الصحيح للإسلام، فوجه المسلمين إلى القراءة الصحيحة والعمل الثقافي فيقول: "إن القراءة هي الشيء الوحيد

(1) محمد هيشور: منهج الشيخ محمد الغزالي في التجديد والإصلاح، مرجع سابق، ص 80-81.

الذي يعطي فكرة صحيحة عن العالم وأوضاعه وشؤونه وهي أن تضع حدودا صحيحة لشتى المفاهيم"⁽¹⁾.

وشغفه بالقراءة منذ الصغر جعله يؤمن بأن القراءة هي الخلفية القوية التي يجب أن تكون وراء الفقيه والمفكر والداعية، إذ أن قصور الكثير من الفقهاء والدعاة راجع إلى فقرهم الثقافي فكيف يكون لهم تجديد في رؤيتهم؟

ففي إصلاحه لعلم الكلام⁽²⁾، يرى أن صياغة علم العقيدة كما عرضته الثقافة الدينية في المراحل السابقة، لم يعد وافيا بحاجة المسلمين المعاصرين، نظرا لاختلاف الزمان وتغيير التحديات التي ترد على أصول العقيدة الإسلامية، وأن أسلم طريق لإصلاح هذا الفهم هو العودة بأصول العقيدة إلى نصوص الكتاب والسنة على أن تكون هذه العودة مجردة من الآراء التي أنتجها صراع الفرق والمذاهب عبر التاريخ الإسلامي.

ونلمس توجهه في تجديده في هذا العلم من خلال تأليفه لكتاب "عقيدة المسلم" حيث يقول في المقدمة "هذه بحوث في العقيدة دفعتني إلى كتابتها قلة الرسائل التي تعنى بهذا اللون من علوم الدين وتعرضه في أسلوب يتفق مع حاجة المسلمين والمعاصرين ، وقد رأيت أن أسوق الأصول العلمية (لعقيدة المسلم) في نسق يخالف ما ألف الناس قراءته من هذه الأصول في كل مضامينها من ثقافتنا الدينية، لا لأني سأتى بجديد في هذا الميدان، بل نزولا إلى منطق التجارب ، وانتفاعا بلم اكتشاف جوانب التاريخ الإسلامي من أحداث وتوخيا للسير على هذه النصوص المجردة من الكتاب والسنة، مع استخدام العقل المنفعل بالوعي والاستعانة بنتائج العلم الحديث"⁽³⁾.

كما أنه نحا في تفسيره للقرآن الكريم منحى جديدا وسبيلا لم يسلكه أحد من قبله، وقد عبر

(1) -محمد الغزالي: قصة حياة، مرجع سابق، ص 64.

(2) -سيأتي الحديث عنه في الفصل الثاني.

(3) -محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 7.

عن ذلك بقوله: "هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم قد أرتاد طريقا لم أسبق إليه، أفتح به بابا من أبواب الخير"⁽¹⁾.

وفي هذه الدراسة الجديدة ذكر القرضاوي أن تفسير الغزالي لسور القرآن ه و دراسة جديدة حاول فيها أن يرسم صورة موحدة تدور حول موضوع معين، ويربط أوائل السورة بأواخرها ويصل أطرافها بأوسطها، فنظر إلى كل سورة باعتبارها وحدة متكاملة، وهذا توجه جديد في التفسير⁽²⁾.

كما دعا الغزالي إلى إيجاد منهج معرفي إسلامي جديد قادر على صياغة جديدة يكون من خلالها ركيزة وحدة ومناصرة وتأييد، يؤلف له مجمع علمي يتعاون رجاله على غربة التاريخ الإسلامي كله غربة قوامها نشدان الحق ، وعلاج الهفوات الفردية بما يرد للشعوب الإسلامية اعتبارها، ويجمع شتاتها⁽³⁾.

وتبرز نظرتة إلى التراث الإسلامي المحددة، بتجديده ما يناسب المبادئ والمقاصد أو ما يخالفها، ودعوته إلى إزالة العوائق المفتعلة والفهوم القاصرة، وفتح الباب لذوي الكفاءة والإبداع أن يخطوا بالأمة قدما، إذ كثيرا ما كان يردد قوله بأن الأمة تحتاج إلى أن تعيد النظر في الطريقة التي تفكر وتحيا بها، وهذا تجديد في الفكر والرؤية، وربما هذا ما يقصده الغزالي بالتأصيل الإسلامي الذي -يعني في نظره- رد الأفكار والنظريات إلى المرجعية الإسلامية ومحاولة الاستدلال عليها والاستثمار لها من القرآن والسنة، أو ما صح من تراث الأمة الفكري، وبيان السبق العلمي والفكري لرواد الحضارة الإسلامية في مجالات كثيرة كالطب والرياضيات وتخطيط الخرائط الجغرافية، فابن الهيثم والخوارزمي والإدريسي وغيرهم كانوا روادا في مجالات العلوم الطبيعية والفلكية، أبدعوا من خلال الحوافز الإيمانية التي استمدوها من الوحي، حيث آمنوا بشمولية العبادة في حياتهم حتى كاد يتساوى عندهم الوجود

(1) -محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط2، (1413هـ-1992م)، ج1، ص3.

(2) -يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي ما عرفته، مرجع سابق، ص136.

(3) -محمد الغزالي: ظلام من الغرب، دار الشهاب للطباعة والنشر، الجزائر، دط، ص290.

في المحراب والمخبر، وهذا النهج¹ أراد الغزالي إستئنافه مرة ثانية، فسعى إلى نقل موضوع الخطاب الإسلامي إلى قطاعات وميادين لم تعهد في الماضي كالبيئة، ونقل التكنولوجيا والتصنيع، وأمور الحكم والسياسة والاجتماع إلى منابع الصحيحة، فلم يكن الغزالي من الذين يظنون انغلاق باب الاجتهاد، بل دعا إليه وعمل به، وهو يؤمن بالتفاعل المؤثر واتخاذ القرار من الواقع.

وبهذا التفكير وضع الغزالي قواعد التأصيل، وضوابط التجديد التي تربط الأمة بماضيها، وتضع لها مستقبلاً متألقاً في عمل إيجابي متقن، كما حارب التدين المغلوط والتطرف في فهم الدين، ودعا إلى الرجوع به إلى السير والاعتدال⁽²⁾، بعيداً عن الغلو والتفريط، وقد تجلّى ذلك في معظم كتبه⁽³⁾، كما أنه دعا إلى النظرة الشمولية والتوازنية للإسلام مقابل النظرية الجزئية، وحارب التخلف، ودعا إلى التقدم واللاحاق بموكب العالم المتحضر عن طريق التفوق في علوم الكون، والرياضيات، والتكنولوجيا، وحسن الإدارة والتنظيم، وضرورة الانتفاع بما عند غيرنا في الجوانب الإيجابية من حضارتهم، واجتناب النواحي السلبية في أخلاقهم وسلوكياتهم، في هذا كتب تلامذة وأصدقاء الغزالي وكذا مفكرون مؤلفات ومقالات يبرزون فيها سمة التأصيل والتجديد في فكره وانتمائه إلى مدرسة الاعتدال والوسطية، ونقرأ لمحمد عمارة قوله: " رأى أن الشيخ الغزالي واحد من أبناء مدرسة التجديد والاجتهاد والإحياء في عصرنا الحديث، فهو قيمة إسلامية كبيرة،... جمع الشيخ الجليل من قلب الداعية وعقل الفقيه المحدد، وشجاعة المجاهد، كان يولي اهتماماً كبيراً للعلم وإنجازاته، ولهذا كان الشيخ يشبع في كتاباته الاستشهاد بالاكشافات العلمية الحديثة، وكان دائم القول لنا: تأملوا عظمة

(1)- سيأتي الحديث عن أسس منهجه العقدي في الفصل الثالث.

(2)- سيأتي الحديث عنه في الفصل الثاني.

(3)- انظر الكتب: الوحدة الثقافية، تراثنا الفكري بين ميزان الشرع والعقل، سر تأخر العرب والمسلمين.

المصنوع لتدركوا عظمة الصانع⁽¹⁾، أما فهمي جدعان⁽²⁾ فيقول: "عرفت التجربة الإسلامية الحديثة والمعاصرة في تركيبها النظري والعملي الشامل ثلة مرموقة من الرجال الذين رقدوها بعلم نظري غزير وبعمل دعوي وفير، إننا لا نفتأ نذكر محمد بن عبد الوهاب والقاضي الشوكاني، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا، وعبد الحميد بن باديس، وحسن البنا، والقاسمي والمغربي، والندوي وسيد قطب وكثيرين آخرين لكننا لا نملك الإقرار بأن الشيخ محمد الغزالي كان في تقدير جملة الناظرين من أبعدهم أثراً في الملة منهم، لا أحد يخطر في باله أن الشيخ الغزالي قد ابتغى صوغ منظومة فكرية تصورية محكومة بآليات المنطق التقني ومنهجيات العلم الطبيعي السائرة على ما نجد عند المفكرين والفلاسفة، أو المتكلمين المحترفين أو فلاسفة العلوم الوضعية، لأن منظومته التي تمثلها وأحيائها وسعى على الدوام إلى نشرها كانت الإسلام نفسه في جملته وفي وجوهه التفصيلية المختلفة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والخلقية والروحية ولأن المبدأ الرئيسي الموجه لتجربته وحياته تمثل في أن الإسلام للحياة³، نعم إن الإسلام بعقيدته وشريعته للحياة، وقد يقصد فهمي في تحليله هذا شمولية فكر الغزالي، بإدراكه أن الإسلام إيمان وعمل وخلق يجيبا به الإنسان، حيث أثبت ذلك في كتاباته وأقواله ومواقفه بل وفي سلوكياته.

ويمكن أن نستخلص من خلال تتبع عناصر التجديد ومواطنه في فكر الغزالي نجد أنه قد اشتمل على النقاط التالية:

التجديد في الفهم: إذ حاول الغزالي ترشيد الفهم للإسلام وواقع الحياة الإسلامية فقد تجلّى ذلك في العديد من كتبه "كيف نفهم الإسلام"، "من هنا نعلم"، "تأملات في الدين والحياة"، "الطريق

(1)- الشيخ الغزالي: قصة حياة، مرجع سابق، ص 237.

(2)- فهمي جدعان: دكتوراه دولة في جامعة الصربون، مارس 1968، أستاذ الفلسفة و الفكر العربي الإسلامي، وعميد كلية الآداب بجامعة البنات الأردنية بعمان. انظر: مجلة إسلامية المعرفة، مرجع سابق.

(3)- محمد الغزالي: قصة حياة، المرجع السابق، ص 264.

من هنا، فكان تجديده محاولة الموازنة بين التناقضات سواء في الفكر الإسلامي وغيره، وكأنه يبحث عن الإنصاف والعدل بينهما وينتصر للوسطية والاعتدال، فألف في ذلك الإسلام "المفتري عليه"، "الدعوة الإسلامية بين عجز الداخل وكيد الخارج"، "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث"، "قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة"، "تراثنا في ميزان الشرع والعقل"، "التعصب والتسامح بين الإسلام والمسيحية".

التجديد في الكيفيات: عمل الغزالي على الجواب على سؤال كيف؟ ذلك أن مضمونه عملي يتحقق في الميدان، وهو نوع من التأصيل والتجديد معا، حيث يأتي التأصيل في كيفية العودة إلى المرجعية الإسلامية، ويأتي التجديد في كيفية الاهتداء إلى الطريق السليم، كما برزت في عمله هذا منهجية جديدة تجمع بين الموروث الأصيل والحديث المطلوب، كاشفة بأسلوب عالم متمكن ما يقدمه القرآن من قيم مطلقة وعقائد ثابتة⁽¹⁾.

كما فُهِج آخرون المنهج نفسه فكتب يوسف القرضاوي "كيف نتعامل مع السنة النبوية" ومحمد عمارة "كيف نتعامل مع التراث" وغيرهم.

فلقد كان في منهجه مجتهدا ملتزما ومجددا متأنيا، فإذا كان الإجتهد هو وليد التفاعل والتعامل مع الواقع، ولا يمكن أن يكون إلا بممارسة العمل في واقع الإنسان، فإن الغزالي قد نزل يتعامل مع قضايا العصر تعامل المتفاعل مع الواقع حتى وجد نفسه قد اجتهد في أمور كثيرة، فدعا إلى تجديد الإيمان وتزكية النفس كما دعا إلى ضرورة تعميق الصلة بالله وبالآخرة، وإصلاح النفس في ضوء هداية الوحي لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ۝١٠﴾⁽²⁾ وهو يؤمن أن

(1) -عمار جيدل: منهج الشيخ محمد الغزالي: التأصيل والتجديد في الطرح الفكري الحضاري عند الشيخ محمد الغزالي، مرجع سابق، ص 84-85.

(2) -سورة الشمس، الآيات: 9-10.

السنة الكوفية في التغيير يبدأ بما في الأنفس لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾⁽¹⁾. وفي هذا يقول الغزالي: "نحن نشد إقامة الشرائع التي تقينا السيئات وترهب المجرمين، ولكنها قبل ذلك تقيم العقائد التي تربط الناس بالله عز وجل وتجعل تعاملهم معه وخوفهم منه وأملهم فيه"⁽²⁾، ولعل دعوته إلى الاستفادة من التصوف النقي هو شعور كبير بحاجة الأنفس إلى تزكية وإصلاح وتجديد إيمانها، حيث يقول: "مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيد والبحث الأصيل، وحظه على الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملاً وتأملاً، مع ذلك كله فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحُب والبر إلى جانب أنه نظر يتسم بالسداد"⁽³⁾.

وإلى جانب ذلك فإن للغزالي خيارات فقهية، ولكنه لم يخرج بالكلية عن التراث، فقد نرى له رأياً في حد الردة⁽⁴⁾ مثلاً، وله رأي في وقوع الطلاق⁽⁵⁾ بمجرد اللفظ بعد شيوع الاستهانة به عند المسلمين، كما له رأي في مسائل الميراث والوصية والزكاة⁽⁶⁾ ومصارفها، وغير ذلك مما يعد من اختيارات الغزالي التي لم يشد باجتهاده فيها عن الموروث الفقهي عامة، كما نلمس تجديداً في اجتهاده الملتزم والذي تجلّى في التفرقة بين القطعي⁽⁷⁾ والظني، وتحديد مصلحة كل منهما فكان يتقبل النقاش والحوار داخل المذاهب الإسلامية، أو داخل الفكر البشري، ما دام في نطاق الظن، وما دام يعد أيضاً

(1) -سورة الرعد، الآية: 11.

(2) -محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، دار الهناء، الجزائر، ص 95.

(3) -المصدر نفسه، ص 103.

(4) -انظر: يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته، مرجع سابق، ص 273-286.

(5) -انظر: محمد الغزالي: تراثنا الفكري بين ميزان الشرعي والعقلي، مصدر سابق، ص 133-134. انظر: هذا ديننا، مصدر سابق،

ص 179. انظر: قضايا المرأة، مصدر سابق، ص 181-187.

(6) -انظر: محمد الغزالي: هذا ديننا، مصدر سابق، ص 136-137. انظر: الأوضاع الاقتصادية، مصدر سابق، ص 163-169.

(7) -سيأتي الحديث عنه في الفصل الثالث.

نتاجا بشريا وما يمكن أن يكون فيه من رأي.

ولكنه لا يقبل النقاش إن كان الأمر على سبيل القطع الذي لا يمكن فيه الخلاف، وهنا نجد أنه يتمسك بالإجماع الصحيح في كثير من مسائل الفقه⁽¹⁾، حيث يحول الإجماع النصي وإن كان ظنيا إلى قطعي وهذا الجانب من منهجه يفسر لنا جيدا موقفه من جزئيات الفكر الإسلامي في تراثه أو حاضره، وكذا مواقفه من جزئيات الفكر الغربي والإنساني بصفة عامة.

كما جدد بدعوته لتحرير المرأة من نبر التقاليد الشرقية الموروثة—وتحريرها من زيف التقاليد الوافدة التي جرّها الاستعمار، حتى أصبحت المرأة المسلمة منسلخة من دينها في خلقها وفكرها، ولقد حاول الغزالي أن يرد كل شبهة يشيرها مستشرق فيها إساءة للمرأة، ويرد كل جاهل بحقها في المجتمع المسلم، وينفض عنها التقليد الأعمى الذي يجعلها حبيسة الجهل المركب، كما حاول تصحيح مفاهيم قاصرة لنصوص القرآن والسنة جاءت في المرأة، وفي هذا يقول الغزالي: "الحق أن قضايا المرأة تكتنفها أزمات عقلية وخلفية واجتماعية واقتصادية، لكما أن الأمر يحتاج إلى مراجعة زكية لنصوص وردت، وفتاوى توارثت، وعادات سيئة ترك طابعها على أعمال الناس⁽²⁾".

ومن خلال كل هذا يمكن الوصول إلى أن الغزالي كان صاحب تأصيل وتجديد وتفكير حضاري ينتمي إلى مدرسة الاعتدال والوسطية، كما سوف يتضح لنا هذا أكثر في الفصول اللاحقة للبحث.

ولعل الغزالي من الذين قصدهم حديث النبي ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»⁽³⁾، وكما قال القرضاوي: "ولا يرتاب راصد لحركة الإسلام ومسار أمته على رأس القرن الرابع عشر الهجري أن يكون الغزالي أحد أعمدة التجديد الإسلامي الرئيسية في هذا

(1)-انظر: محمد الغزالي: السنة النبوية، مصدر سابق، ص14-15. وانظر: ليس من الإسلام، مصدر سابق، ص37-38.

(2)-محمد الغزالي: قضايا المرأة بين التقاليد الواكدة والوافدة، دار الانتفاضة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 1992، ص176.

(3)-رواه أبو داود، في سننه، (سبق تخريجه).

العصر سواء نظرنا إليه من خلال جهوده الذاتية في الفكر والإصلاح، والتوعية والتربية، أم من خلال عمله في الحركة التجديدية الكبرى لحركة الإخوان المسلمين التي يعد أحد أركانها الراسخة⁽¹⁾.

استقلالية الفكر والرأي:

كان الغزالي حر الفكر والقلم واللسان، ورغم تأثره بمن سبقوه واستفادته منهم في الفكر والعلم (كما سبق ذكره)، ورغم انه كان على منهج السلف⁽²⁾ في عقيدته إلا أننا نلمس استقلالية جلية في تفكيره، وهو يكتب أو يحاور أو يخطب، إذ كان كثيرا ما يردد قول الشافعي رحمه الله معبرا عن نفسه:

أنا وإن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا⁽³⁾

حيث نجده يهتهد بالدليل والتعليل، وبأسلوب مقنع متحملا مسؤولية أقواله وأفعاله، مؤمنا بالتغيير إلى الأحسن ولم نلمس له في مسيرته الفكرية تعصبا للرأي بقدر ما نلمس منه سعيا لتوصل الحقيقة بلطف الإقناع وأدب الحوار حيث يقول هنا: "الشيء الذي نرفضه ويرفضه جموع الفقهاء العقلاء أن يحسب أحد الناس أن رأيه دين وأن ما عداه ليس بدين، وأن يجمد ما عنده جمودا قد يضر بالإسلام كله ويصدع وحدته"⁽⁴⁾.

وكثيرا ما حارب الغزالي التعصب المذهبي الذي لاحظ أنه أدى في كثير من الأحيان إلى نزاع محتد بين أصحاب المذاهب، حيث يقول: «لم أر أناسا حبستهم الجزئيات على رشدتهم مثل صرعى التعصب المذهبي»⁽⁵⁾ فلم يتحيز في مسيرته الفكرية لمذهب دون مذهب أو فكر دون فكر، إنما كان

(1)-يوسف القرضاوي: الغزالي كما عرفته، مرجع سابق ص 256.

(2)-سيأتي مفهوم السلف عند الغزالي وموقفه منه، في الفصل الثالث.

(3)-الشافعي: الديوان، مرجع سابق، ص 53.

(4)-محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية، دار السلام للنشر والتوزيع الجزائر الوادي، ص 93.

(5)-علاء الدين وحيد: محمد الغزالي وتحطيم اليهود، دار السنابل للنشر والتوزيع، المنصورة، دط، ص 144.

يقول عن نفسه أنه عند الحق حيثما كان فيقول: "أنا أحترم حرية الرأي إلى أبعد حد، أكره الغباء والافتراء ومساندة الدعوة بالعصي، واستغلال العمل بحيث تعجز كل المفاتيح الحقيقة عن فتحه"⁽¹⁾.

فلاستقلالية الفكرية لا تعني عند الغزالي مخالفة الصواب والتعصب له، والخروج عن الإجماع كما يقول: (قد أعطي نفسي الحق في مخالفة أي فكر ديني سابق أو لاحق، ولكني لا أعطيها أبدا حق الشذوذ أو الخروج عن الإجماع، إني أؤثر السير مع الجماعة الكبرى وأحب وحدة الصف والهدف وأرفض أن تكون القضايا الصغرى سببا في تنافر الأفتدة وأوصي أن نتشبت بمعاهد الدين وعراه الوثقى)⁽²⁾، بل تعني حسب ما ذكر أن لكل إنسان شخصيته المستقلة، وفكره الحر، إذ حافظ على هذا الاستقلال، ودعم أصوله وزكى فروعه، وعاش في نطاق ذاتيته الخاصة، فقد مضى على سنة الله لقوله تعالى: (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات)⁽³⁾.

كما أنها لا تعني أيضا عدم تحري الصواب، ومنح النفس عنانها للفساد والابتعاد عن الحق، إذ يقول مؤكدا هذا المعنى: "إنني أسير وفق خصائصي النفسية كما يسير القطار على قضبانه، عندما أخرج عنها أتوقف لفوري"⁽⁴⁾.

بل إن النظر إلى الحياة من زواياها المختلفة كما يرى الغزالي يكفل الإحاطة بأوفر حظ من الصواب والخير⁽⁵⁾، بل هو نوع من التعاون الذهني على استشارة ما في الكون من منافع حسية ومعنوية.

ومع أن حرية الرأي هي حق طبيعي، إلا أنه حق يتخذ صفة التكليف اللازم والرسالة الواجبة

(1)-محمد الغزالي: دستور الوحدة، المصدر السابق ص937.

(2)-المصدر نفسه، ص235.

(3)-سورة البقرة، الآية: 148.

(4)-محمد الغزالي: جدد حياتك، دار الهناء للطباعة والنشر، الجزائر، دط، دت، ص 123.

(5)-المصدر نفسه، ص130.

الأداء، فكل مسؤول على ما يفكر ويقول، وبهذه الرؤية عبر الغزالي عن آراءه في التأصيل والتجديد، وفي كثير من القضايا في كتبه. وعلى سبيل المثال فيما يتعلق باستقلالية فكره وعدم تعصبه أن كثيرا من المفكرين من ردوا عليه بعض آرائه أمثال عبد الله عويس، يوسف القرضاوي، فقبل ذلك بصدر رحب وحاوورهم موضوعيا، كما أنه في كثير من المواقف أعلن الغزالي استعداداه لتغيير آرائه إذا أقنعه الآخرون بخطأ تصوره.

وفي رد الكاتب السعودي إبراهيم النبلي في جريدة الرياض السعودية عن الهجمات الشرسة ضد الغزالي، كتب يقول: " أن الغزالي يؤمن بأن القدرة على التفاهم هي ذروة الإدراك العقلي، وبامتلاك الإنسان لهذه القدرة يتسع علمه ويتعمق فهمه فيدرك حدود الفهم البشري، ويفقه العوائق التي تعوق الفهم، إذ أنه كلما تألق عقل الإنسان صار أكثر تواضعا، وأقل ادعاء وأشد تسامحا وعفوا عن الآخرين وأكثر تفهما لوجهات النظر المتفاوتة والمختلفة، ذلك أن الاختلاف أمر طبيعي ناشئ عن النقص الملازم للبشر⁽¹⁾، وهذا منهج الغزالي في الحوار بل في الفكر أيضا إذ يقول: "إني لا أتعصب للأولين ولكني أقدرهم قدرهم، وأطلب أن يكون المجتهدون الجدد على مستواهم الفني والخلقي، وأن يدركوا ما وفرت به الحياة من مشكلات، ويحسنوا التماس الحلول الجدية"⁽²⁾، ويقول الغزالي أيضا في بعض ردوده: "وللرأي الفقهي مكانته العلمية ولمن شاء أن يأخذ به، وأن يدعو إليه غيره، ونحن نؤثر رأيا عن آخر، لأن اقتناعنا بهذا أكثر من اقتناعنا بذلك، ولأن هذا الرأي أدنى إلى تحقيق المصلحة العامة وأرفق بعباد الله⁽³⁾."

وليس فيما سبق تركية للغزالي، ولا أن يُتصف بالعممة، فهو مفكر مجتهد قد يخطئ ويصيب وله في ذلك الأجر والأجران، إلا أن رد الغزالي مثلا على هجوم بعض النقاد والسلفية (السلفية

(1)-مجلة إسلامية المعرفة، مرجع سابق، ص 63.

(2)-محمد الغزالي: دستور الوحدة بين المسلمين، مصدر سابق، ص 99.

(3)-المصدر نفسه، ص 93.

بمفهومها المعاصر) ودعاؤه لهم بالخير جعله ينفرد بشخصية متميزة ومستقلة، والحقيقة أن التفكير السليم -في نظر الباحثة- لا يتعارض مع منهجه الموضوعي والإنساني المتفهم للواقع والوعي له. ولعل ما ساعد الغزالي على ظهور هذه الاستقلالية في فكره، وثباته عليها -دون تعصب لها- هو سعة علمه وإطلاعه على العلوم والمعارف والتخصصات الأخرى، بل وعلى الديانات المختلفة بهدف تجليه الرأي الصحيح، وكذلك حسن استفادته من التجارب والقراءات الكثيرة ودراسته للتاريخ، تدل على أنه دقيق الفكر والفهم فيما يقرأ ويقول، تتداعى الآيات والأحاديث والحجج والبراهين العقلية والواقعية على لسانه وفكره كأنه طوع بنانه، إذ يعبر عن هذا فيقول: "إني أطيل النظر في كتب السنة معتقداً أن بها كنوز من تراث النبوة وأستهدي بفطرتي في تجنب الضعيف وقبول الصحيح، وهي فطرة صقلتها التلاوة الدائمة لكتاب الله والحب الصادق لعلي الوحي المبارك"⁽¹⁾.

ويقر الغزالي عن نفسه بكل قوة وجدية أنه تعلم من غيره آداب الحوار وفضل الخلاف فيقول: "وقد تعلمت من حسن البنا الإنصاف للغير مهما خالف في الرأي، نعم عندما أخالف أحداً في الرأي في حكم ما، لا يجوز أن أهمل ما لديه من صواب كثير ومواهب قد أفاءها الله عليه، يجب أن أحترم ذلك فيه، بل يجب أن أحترم ما وراء خطئه من غير دينية تربطني به وإن أنكرت قوله"⁽²⁾.

وفي الأخير، وبعد التعرف على أهم الأحداث، والوقائع التي اكتنفت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، للفترة التي عايشها الغزالي، والتعرف على أهم محطات حياته الشخصية والتعليمية، والتي جعلت منه شخصية ذات معالم متميزة، كان بما أهل للدراسة والتحليل، ويمكننا القول بأن الغزالي كان متأثراً ومؤثراً فيما حوله، متفاعلاً مع مختلف الأحداث التي شهدتها ومستفيداً من أغلب التجارب التي خاضها أو لمحها، مما يؤكد أن أولى دواعي اهتمامه بترسيخ العقيدة الإسلامية في قلوب المسلمين، ونشر الفكر الإصلاحية الإسلامي، وربطه بضرورة الجد في العمل

(1)-محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: دار الشروق، بيروت، ط 1409هـ، ص72..

(2)-محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، مصدر سابق، ص235.

وحرية الاجتماعي، وربطها أيضا بالعمل والخلق ، كانت منبثقة من هذا التفاعل ونظرتة لواقع المسلمين، حيث شكلت له حافزا قويا لإنكار هذا الواقع ورفضه، ودافعا جادا لإيجاد الحل الكفيل بتخليص أمته من براثن التخلف ورد الأمة إلى أصولها، التي تقوم على أن الإسلام عقيدةً وسلوكا وعملا، وآفاق متجددة واعدة بالآمال، وليس مجرد تراكمات تاريخية وصلت عن طريق التركة الموروثة، وهذا ما نكشف عنه في الفصل الثاني من البحث.

عبد القادر للعلوم الإسلامية

المفصل الثاني:
خصائص الفكر العقدي للغزالي

المبحث الأول: الوسطية والاعتدال

المبحث الثاني: الربط بين العقيدة والشريعة

المبحث الثالث: علاقة الإيمان بالأخلاق

المبحث الأول: الوسطية والاعتدال

تمهيد: بعد عصر ﷺ، ومضى عصر الخلافة الراشدة بدأ في آخر عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؓ ظهور التفرق والاختلاف، فخرجت الخوارج بغلوها، والشيعنة بتصوراتها، وتوالى ظهور الفتن والابتداع، وتكونت الفرق وظلت الأجيال تتوارث الكثير من الانحرافات العقدية، والسلوكية وغيرها، وابتعدت عن نهج الاعتدال والتوسط الذي رسمه القرآن الكريم، ومارسه في الحياة الرسول الكريم، سيد المرسلين إلى يومنا هذا، فإن المتدبر في الواقع الذي نعيشه، نرى فرقا شاسعا في أهدافها واختلافها في عقائدها وغاياتها، وترى الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء والإسراف، وإذا انتقلنا إلى حال المفكرين والدعاة، والمصلحين الذين أقلقهم هذا الواقع المؤلم، وسعوا إلى إخراج البشرية من الانحراف إلى الطريق المستقيم، نجد تأثير واقع الأمة على وضعهم فمنهم من شرق وغرب، كما نجد المفرط، والمفرط وبين هؤلاء من غلا وأفرط في الغلو، وأضاع بهم معالم أصول الدين. وبين هؤلاء وقفت فئة تفتني الأثر وتصحح المنهج، ينفون عن هذا الدين غلو الغالين، وانتحال المبطلين، وتفريط المرجئين، والحاجة في هذا الوضع إرشاد الأمة على النهج الوسط القويم.

ولو تأملنا طويلا قضية الغلو والجفاء والإفراط والتفريط وخاصة في الجانب العقائدي، نخلص إلى أن الأمة بأمس الحاجة إلى منهج الوسطية، وخاصة وأن القرآن الكريم رسم لنا هذا المنهج في أساليبه تصريحاً وإيماءً مفصلاً ومجماً، وفي جميع جوانبه أصولاً وفروعاً عقيدة وعبادة وخلقا وسلوكاً وتصوراً وعملاً، فقد شرع الله الإسلام لحفظ عقيدة الأمة وأخلاقها وارتضى لهم الوسطية لتبعدهم عن الفساد وتحقق لهم الخلافة الصالحة.

وعليه فهل كان الغزالي في فكره ممن سلكوا منهج الوسطية والاعتدال؟ وهل ارتقى فكره العقدي إلى مستوى هذا المنهج الرباني القويم؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه من خلال مفردات هذا المبحث.

المطلب الأول: الوسطية في اللغة والاصطلاح

معنى الوسطية في اللغة:

تأتي كلمة الوسط لمعان متعددة ومقاربة فهي:

- 1 - اسما لما بين طرفي الشيء: تقول قبضت وسط الحبل، وكسرت وسط القوس، وجلست وسط الدار⁽¹⁾.
 - 2 - و تأتي صفة بمعنى خيار وأفضل، وأجود فأوسط الشيء أفضله وخياره، كوسط المراعي. وواسطة القلادة⁽²⁾: الجواهر الذي وسطها وهو أجودها، ورجل وسط ووسيط: حسن⁽³⁾.
 - 3 - و تأتي وسط بمعنى (عدل)...أعدل الشيء أوسطه⁽⁴⁾ وتأتي وسط : بمعنى الشيء بين الجيد والرديء : قال الجوهري : ويقال أيضا شيء وسط: أي بين الجيد والرديء.
- وكيفما تصرفت هذه اللفظة نجدها لا تخرج في معناها عن معاني: العدل والفضل، والخيرية والتوسط بين اثنين.

أما في الاصطلاح: كلمة وسطا: وردت في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً

وَسَطًا﴾⁽⁵⁾.

و قد ورد تفسير هذه الكلمة في السنة النبوية، كما ذكرها المفسرون عدة معان وتفصيل ذلك كما يلي:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يدعى نوح يوم

(1)-ابن منظور: لسان العرب، دار لسان العرب، سوريا، دط، دت، فصل الواو: باب الوسط، 427/7.

(2)-المرجع نفسه، ص 3 / 427 - 43.

(3)-المرجع نفسه، ص 7 / 430،

(4)-المرجع نفسه، ص 7 / 430.

(5)-سورة البقرة، الآية: 142.

القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد و أمته فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيدا¹، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (2) الوسط: العدل.

و روى الطبري بإسناده عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عدولا⁽³⁾.

و قد ساق الطبري عددا من الروايات في هذا المعنى، ثم ذكر تفسير هذه الآية منسوبا إلى بعض الصحابة والتابعين كأبي سعيد الخدري ومجاهد وغيرها حيث فسروها: (عدولا).

قال الإمام الطبري: وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضوع هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين الطرفين، مثل وسط الدار، وأرى أن الله - تعالى ذكره - إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، كغلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقولهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبيائه، وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها لأن الخيار، من الناس عدولهم⁽⁴⁾.

ويقول محمد رشيد رضا في تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ إن الوسط هو العدل والخيار، وذلك أن الزيادة على المطلوب في الأمر، والنقص عنه تفريط وتقصير، وكل من الإفراط والتفريط هو ميل عن الحياة القويمة، فهو شر مذموم، أي أن المسلمين خيار وعدول، لأنهم وسط ليسوا من أرباب الغلو في الدين المفرطين، ولا من أرباب التعطيل المفرطين،

(1)- البخاري صحيح البخاري، كتاب التفسير باب (وكذلك جعلناكم....) 5 / 176 رقم 4487.

(2)- سورة البقرة، الآية: 142.

(3)- محمد بن جرير الطبري: تفسير الطبري، مرجع سابق، 2 / 7.

(4)- المرجع نفسه، ص 7/2.

وهم كذلك في العقائد والأخلاق والأعمال، ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين: قسم تقضي عليه تقاليد المادية المحضة فما له إلا الحظوظ الجسدية، كاليهود والمشركين وقسم يحكم عليه تقاليد بالروحانية الخاصة وترك الدنيا وما فيها من اللذات الحسية كالنصارى والصائين وطوائف من وثني الهند⁽¹⁾.

و أما الأمة الإسلامية فقد جعل الله لها في دينها بين الحقين حق الروح وحق الجسد فهي روحانية جثمانية، أعطاهما جميع حقوق الإنسانية فكأنه قال: جعلناكم وسطا تعرفون الحقين، وتسبقون الأمم كلها باعتمادكم وتوسطكم في الأمور كلها، وذلك أن ما هديتم إليه هو الكمال الإنساني الذي ليس بعده كمال⁽²⁾.

أما سيد قطب⁽³⁾ يقول في تفسيره لهذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وأنها للأمة الوسط بكل معاني الوسطية سواء كان من الوساطة بمعنى الحسن والفضل أم من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أم الوسط بمعناه المادي والحسي، أمة وسطا في التصور والاعتقاد، أمة وسطا في التفكير والشعور والأخلاق بين الحسنة والرذيلة - أمة وسطا في التنظيم والتنسيق، أمة وسطا في الزمان والمكان⁽⁴⁾.

وعلى هذا القسم ذهب جمهور المفسرين في تفسير "أمة الوسط" على خلاف الأديان السابقة للإسلام، حيث ظهر الميل فيها إما إلى أحد طرفي النقيض، الإفراط أو إلى التفريط من أهلها، فتزل القرآن الكريم بالميزان فرقانا ما بين الطرفين، مهيمنا على الأوضاع المنحرفة، يعيد للهدى الرباني اعتداله وتوازنه الذي افتقده جراء تفريط المغضوب عليهم وإفراط الضالين، فتجاوز

(1) -محمد رشيد رضا: تفسير المنار، دار البار للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، دط، دت، ج2، ص 4-5.

(2) -محمد رشيد رضا: تفسير المنار، مرجع سابق، ص5.

(3) -سيد قطب: مفكر إسلامي، ولد بمصر سنة 1906م، اشتغل بالصحافة والتعليم، انظم إلى الإخوان المسلمين، وسجن معهم، حيث عكف على الكتابة والتأليف وفي السجن، إلى أن أعدم سنة 1965م، من مؤلفاته: في ظلال القرآن، العدالة

الاجتماعية في القرآن، التصوير الفني في القرآن. انظر: الزركلي، الأعلام، ج3، ص 147-148.

(4) -سيد قطب: تفسير القرآن العظيم دار الشروق ط2 (1986-1400) ج1، ص 135.

القرآن الكريم بذلك على ما أفرط فيه اليهود والنصارى لأن الوسطية القرآنية كانت تقوم على استخدام العقل لإدراك المغزى من الحياة لقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۗ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾⁽¹⁾. و أيضا التفكير في رسالة القرآن، ولزيادة المعارف لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾⁽²⁾ وفي هذا يقول الشاطبي: "إذا نظرت في كليات الشريعة، فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلا إلى جهة طرف من الأطراف، فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر، فطرف التشديد يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد، وإذا لم يكن هذا وذاك رأيت التوسط لائما، ومسلك الاعتدال واضحا، وهو الأصل الذي يرجع إليه، والمعتقل الذي يلجأ إليه"⁽³⁾.

و من خلال ما وردناه في تفسير الوسطية والتي وردت في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ تبين لنا أن مفهوم الوسطية، ليس مجرد التجاوز بين الشيعين فقط، بل تعبر عن العدل والخيار والأفضل، وعلى هذا الأساس عرف العلماء الوسطية كمايلي: التوسط حالة محمودة غالبا ما تقوم في العقل السليم، والفطرة وتعصمه من الميل إلى جانبي الإفراط والتفريط.

الوسطية منهج قرآني:

نزل القرآن الكريم هداية ونورا يخرج الله به من شاء من الظلمات إلى النور، فلنوم منهج الوسطية عين الاستقامة والهداية والصراط المستقيم، لذا جاءت الآيات مستفيضة ترسم منهج الوسطية، وتدل عليه، حيث أنها نهج متكامل شامل غير محصور في ركن من الأركان، ولا في جزئية من الجزئيات، ولا في حكم من الأحكام ولا في أصل من الأصول، فالإسلام كله وسط، وهذه الأمة هي أمة الوسط لقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

(1) -سورة الأنعام، الآية: 32.

(2) -سورة الأنبياء، الآية: 10.

(3) -أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الأحكام دار المعرفة، بيروت، دط، دت، ج1، ص 529.

و لذلك جاء القرآن الكريم مقرر لمنهج الوسطية في أبواب الاعتقاد والعبادات والأحكام،
والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها.

و لعل أول ما نقف عنده سورة الفاتحة التي تقرّر منهج الوسطية من أولها إلى آخرها وأدل
آية على ذلك ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾⁽¹⁾. هذه الآية صريحة في تحديد المنهج الوسط، ذلك أنها
بينت أن هذا الصراط هو صراط الدين أنعم الله عليهم، قال الطبري: اجتمعت الأمة من أهل التأويل
جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وكذلك في لغة جميع
العرب، فمن ذلك قول الشاعر⁽²⁾:

أمير المؤمنين على صراط إذا تعوج الموارد مستقيم

قال ابن عباس رحمه الله (اهدنا الصراط المستقيم) يقول أهدنا الطريق الهادي، وهو دين
الله الذي لا عوج فيه. وقد بين الله لنا أن الصراط المستقيم هو منهج الوسط، حيث قال واصفاً
الصراط المستقيم ﴿عَبْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾⁽³⁾ ومنهج المغضوب عليهم يمثل التفريط،
بينما يمثل منهج الضالين الإفراط، فهما نهجان دائران بين الغلو الجفاء.

و بهذا تبين لنا أن هناك ثلاثة طرق: طريق الذين أنعم الله عليهم، وطريق المغضوب عليهم،
وطريق الضالين، والله أمرنا بالالتزام بسبيل الذين أنعم الله عليهم، لأنه هو الصراط المستقيم. وهو
نهج وسط بين سبيلين منحرفين: اليهود والنصارى، فطريق الاستقامة هو طريق الأمة الوسط، ومن
هذا فإن المتدبر للقرآن الكريم يدرك أن كل آية وردت في الاستقامة فهي آية في تحقيق الوسطية⁽⁴⁾
مثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾⁽⁵⁾ والآيات كثيرة في هذا

(1) - سورة الفاتحة، الآية: 6.

(2) - محمد بن جرير الطبري: تفسير الطبري، مرجع سابق، ص 53.

(3) - سورة الفاتحة، آية 7.

(4) - محمد جرير الطبري: تفسير الطبري، المرجع السابق، ج 1، ص 54.

(5) - سورة هود آية 12.

الصدد. و مما سبق يتضح لنا أن سورة الفاتحة وضعت القاعدة والمنطلق، ورسمت المنهج، وحددت معالمه، ثم جاءت الآيات مقررّة لذلك وداعية له.

مفهوم الاعتدال:

تفرع الاعتدال عن مفهوم الوسطية من الآية الكريمة، ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ فهو نهج أمة أي نهج جماعي، إذ ليست الوسطية لأفراد فحسب، ولا يجب أن يحتكرها أحد، فهي خاصة للأمة الفائدة والشاهدة على الناس، وهي من أهم معالم الإسلام إذ لا تصاغ أي نظرية - مستنبطة من القرآن - دون مراعاة لهذا المبدأ، فالوسطية أقامها الله عز وجل وأمر بها، وهي صفة لهذه الأمة، فكانت بذلك سمة ربانية موهوبة، غير مكتسبة، والرسول ﷺ هو أول مطبق وممثل لهذه الوسطية اعتقاداً وقولاً وعملاً. فقد كان مثالا في توسط عباداته، وأخلاقه، حيث كان لا يختار بين أمرين إلا أوسطها.

فالإسلام إذا هو المنهج الذي يبدو واضحاً مستقيماً في أصالة وعدالة بين السرف الروحاني والتطرف المادي، فهو يعرف الإنسان كإنسان ويدركه، يدرك عمق كيانه وأصالة طبيعته، ومن ثم فإنه يحرص عليهما بكل مقتضياتهما وحيثاتهما، لذا جاءت تقديرات الإسلام للإنسانية أسلم وأصوب.

ولقد برزت سمة الوسطية من أهم ملامح الفكر الإسلامي الحديث التي تعبر عن أبرز مظاهر الرشد وتكويناته، بل ولأن الوسطية هي أنضج محاولات الفهم لحركة الواقع، ومنهجية التعامل في نفسه وقوانينه، وتغيراتها. فلقد حاول الفكر الإسلامي الحديث إبراز خاصية الوسطية والاعتدال ويميز نهجه بها، ويقرر على أساسها خطابه عن الخطابات الإسلامية في العقدين الأخيرين، لترعات العنف والتطرف والغلو والتكفير، ويقدم أطروحته كبديل عن هذه الترعات، متجاوزاً لذهنيتها، الموروثة وتكوينها الفكري وعملها، فأصبح يؤمن بالجوار بديلاً عن الصدام، والانفتاح بديلاً عن الانغلاق، والتواصل بديلاً عن القطيعة والتدرج والتأني بديلاً عن الفورية.

والغزالي أحد أبرز النماذج البشرية الرائدة في عصرها، إذ استطاع أن يؤثر في قطاع كبير من الناس ويطبعه بطابع خاص، فأمكن أن يكون من الشخصيات التي جاد بها الزمان، فقد جمع الرؤية الصادقة لخريطة الإسلام عملاً وسلوكاً وفكراً، بوسطيته واعتداله وتسامحه، وعقلانية، فأدرك أن الإسلام أنظومة جيدة تتميز بالحركة والوسطية تجلت في عقائدها وعباداتها وأخلاقها

كما يقول الشاعر:

اقتصد في كل حال واجتنب هما وذما
لا تكن حلو فتوكل ولا مرا فترمي⁽¹⁾

ولقد تبين للغزالي أن غياب عنصر الوسطية في الشرائع السماوية السابقة هو الذي أفقدها الاستمرارية والواقعية⁽²⁾ في حياة أتباعها: هما جعل سمة الوسطية حجر الزاوية في أي منظومة أخلاقية ناجحة، وقد تمتد آثارها لمختلف جوانب الحياة العقائدية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية، مما يجعل ضرورة ترسخ هذه الوسطية من صميم ترسيخ عقيدة الإسلام في حياة الناس، وفي هذا يقول يوسف القرضاوي: «ووسطية الأمة الإسلامية، إنما هي مستمدة من وسطية منهجها ونظامها، فهو وسط في اعتقاداته وعباداته وشعائره أخلاقه»⁽³⁾.

و بتتبعنا لمسار الغزالي الفكري، نجد أنه يرى أن الإفراط والتفريط في تزييف أسلوب الإسلام وحقائقه سواء حيث كان يرفض تطرف البعض عند وقوفهم عند الجزئيات والخوض في الفرعيات الفقهية، بل كان يدعو إلى النظرة الشمولية التي تجمع بين ثنائية العقل والقلب، وبين العقيدة والشريعة، كان يرفض التفريط في الدين والغلو فيه، وكان حازما صارما في رده عن بعض التجاوزات والانحرافات التي تسيء إلى وسطية الإسلام، وكثيرا ما كان يدعو إلى ضرورة إصلاح الفهم الخاطئة، في الثقافة الإسلامية والتي أبعدت الناس عن التدين الصحيح فيقول " والتدين الفاسد لن يصلحه إلا التدين الصحيح، وعلاج الإفراط والتفريط أن تعود إلى حد الاعتدال"⁽⁴⁾.

(1)-نسبها تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى لعبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدّميري الديري، مع بعض الاختلاف في رواية بحر البيت الأول: واجتنب شحا وغمرا. انظر: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، دار الطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1413هـ، ج8، ص201.

(2)-محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، مصدر سابق، ص100.

(3)-يوسف القرضاوي: الشيخ محمد الغزالي كما عرفته، رحلة نصف قرن، مرجع سابق، ص192.

(4)-معد الغزالي: الحق المر، دار المعرفة، الجزائر، دط، دت، ص33.

المطلب الثاني: وسطية الغزالي في العقائد

1 في باب أسماء الله وصفاته

إن المتأمل في كتاب الله عز وجل، يجد أن الحقيقة التي جاء بها جميع الرسل، هي توحيد الله وعبادته دون سواه، فهي أساس الرسالات كلها وعمودها الفقري، هي القاسم المشترك فيما بينها، وإن اختلفت بعد ذلك شرائعه. فما من نبي أرسل ولا كتاب أنزل إلا ودعا إلى توحيد الله تبارك وتعالى، وجاء في تقرير هذه الحقيقة قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾⁽¹⁾.

فكل الأنبياء اخبروا بأنهم مسلمون، وهو الدين الحق الذي لا يقبل الله غيره لقوله تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾⁽²⁾؛ على هذا مضى رسل الله في أممهم، ولكن قومهم غيروا وبدلوا بعدهم وحرفوا وقد شمل التحريف والتبديل أساس دعوة الرسل، وهو التوحيد، وما يتعلق بذات الله عز وجل من الأسماء والصفات، فتفرقت الأمم في ذلك ما بين مفرط ومفرط وغال ومقصر لإعراضهم عن هدي المرسلين، ومن أعظم الأمم اختلافا وضلالا في هذا الباب، اليهود والنصارى، فاليهود بتقصيرهم وتفريطهم، والنصارى بغلوهم وإفراطهم، أما المسلمون فقد وحدوا الله عز وجل، ووصفوه بصفات الكمال، ونزهوه عن جميع صفات النقص وقالوا: ليس كمثل شيء في ذاته ولا في صفاته⁽³⁾ وتلقى المسلمون الأوائل أسماء الله وصفاته بالقبول والتسليم، وبالإيمان والتعظيم. إلا أنه بعد مضي عصر الصحابة، على ذلك كلمتهم واحدة ليس لهم في ذلك قولان، ولا تنازع فيها اثنان، ثم خلف من بعدهم أخلاف، وبسقت قرون بدع، ونبتت نوابت فرقة واختلاف، فاختلف الناس بعد ائتلاف فكانوا طوائف

(1) -سورة الأنبياء، آية 25.

(2) -سورة آل عمران، آية 19.

(3) -ابن تيمية: منهاج الرنة، تحقيق: محمد رشاد سالم، مطبعة المدني، القاهرة، دط، ص 168-169.

ثلاثة:

الأولى: أهل تعطيل وهم الذين أنكروا ونفوا ما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات. وتمثل هذه الطائفة الجهمية والمعتزلة الذين يتفوقون في نفي الرؤية والصفات عن الله⁽¹⁾.

والثانية: طوائفة مالت إلى التمثيل والتشبيه وهم الذين شبهوا الخالق بالمخلوق، وجعلوا ما ورد من صفات الله عز وجل مماثلا ومشابها لصفات المخلوقين ويشمل هذا المذهب الروافض⁽²⁾.

و الثالثة: فهم أهل السنة والجماعة: وهؤلاء يشبتون ما ورد في كتاب الله عز وجل، أو على لسان رسول الله ﷺ من أسماء الله وصفاته لا يفرقون بين أسماء الله وصفاته، فلا ينفون ولا يؤولون شيئا منها، ولا يشبهون، وهم مذهب وسط بين الطرفين فلم يشبهوا شيئا من خلقه، لا في ذاته ولا في شيء من صفاته، ولم يجعلوا له نظيرا أو ندا أو مثيلا أو شريكا في شيء من خصائص ألوهيته - كما صنع النصارى - بل نزهوه سبحانه عن التشبيه والنظير والند والمثيل⁽³⁾.

ولقد أدان الغزالي هذه الفرق الكلامية، وأدان الانشغال بها على حساب تجليه العقيدة الإسلامية، من خلال إبداع الله في الكون والإنسان والحياة كما أنكر على انشغال بعض المتعصبين بالتقليل من شأن بعض المفكرين المسلمين أو تكفير بعض الفرق، والأشخاص كما دعا المسلمين إلى الكف عن تجديد المعارك بين الموتى والأحياء، والكف عن اجترار الخلافات القديمة، قائلا: "ماذا يكسبه هؤلاء من شتم الأشعري والرازي والغزالي والقرطبي وبقية علماء المسلمين؟ أليس الأولى بهم أن يدركوا الخلاف ويجنبوا الأمة بلاءه"⁽⁴⁾.

ويرى الغزالي أن كثيرا من أفكار الفرق الإسلامية الكلامية، فضلا عن تقليد المعتزلة لليونان

(1) -جمال الدين القاسمي الدمشقي: تاريخ الجهمية والمعتزلة، دار نشر مؤسسة الرسالة بيروت ط 1401-1981 ص 60.

(2) -انظر: عبد القادر بن الطاهر بن محمد بن أبو المنصور البغدادي: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1997، ص 227. والشهرستاني: الملل والنحل، 84/1.

(3) -محمد باكريم محمد با عبد الله: وسطية أهل السنة بين الفرق، دار الراية للنشر والتوزيع ط 1، 1415 - 1994، الرياض، ص257.

(4) -محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين، دار القلم، دمشق، ط 2000، ص 69.

ولا سيما (أرسطو) في فهم الألوهية إنما أفكار لا وزن لها من ناحية العقل والنقل، وكان الأجداد أن يبقى منهج المسلم على أصول الإيمان، كما ورثناها عن نبينا ﷺ وصحابته الكرام ﷺ، وأن يشتغل الجمهور بما يرفع مستواه في معاشه ومعاذته⁽¹⁾.

لذلك نجد الغزالي يختلف في منهجه عن الفلاسفة الذين تتناقض آرائهم، ومع الماديين الذين يحاولون إخضاع ذات الله لعقولهم - إذ شبه الغزالي هؤلاء بالذبابة التي تحاول أن تعرف ما يدور في رأس الإنسان وهي لا تدري حقيقتها.

فهو يقدم عقيدة التوحيد صافية نقية لا تجسّد لله أو تشبيهه أو تأويل، أو تعطيل لصفاته قائلا: "إننا معشر الإنس والجن. لا نعرف إلا القليل من عالمنا... فكيف يدرك عالم الغيب من يجهل عالم الشهادة، وكيف يحاول الغرور البشري اكتشاف الذات أو الصفات العليا، حسب هؤلاء أن البطالة النفسية والتطاول الرديء من وراء الترف العقلي... وقد ظهر في عالم الكلام جماعة يوغلون في التزيه إلى حد التجريد وآخرون يبالغون في الإثبات إلى حد التجسيد، والقرآن الكريم بعيد عن المسلكين، ونحن لا نقبل إلا منهجا ولا نأخذ عقائدنا إلا من توجيه الحق نطلق أو نتوقف وفق ما يريد"⁽²⁾، وعليه وانطلاقا من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾⁽³⁾، يبين الغزالي أن الله قد وصف نفسه بصفات كثيرة، من الصعب إدراك حقيقتها على النحو المعتاد لدينا، بل هذا مستحيل، إذ كيف للنملة مثلا أن تعرف حقيقة الإنسان، بل إن الإنسان بقدراته العقلية وملكاته الإدراكية عاجزا عن إدراك حقيقة الوجود المادي الذي يعيش منه فكيف له معرفة ما وراءه من عيوب⁽⁴⁾.

فإذا قيل مثلا: أن الله يسمع، فليس ذلك بأذن كأذاننا، أو يرى فليس بعين كأعيننا وفي هذا

(1)-محفوظ عزام: الشيخ الغزالي: صور من حياة مجاهد عظيم، دراسة حول العقيدة الإسلامية في فقه الشيخ الغزالي: ص 88-

(2)-محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين، مصدر سابق ص 71.

(3)-سورة الشورى، آية 11.

(4)-محمد الغزالي: عقيدة المسلم مصدر، سابق، ص 35.

يقول الغزالي: "والذي نوقن به ابتداء، أن صفات المحدثين وأحوالهم لا يجوز أن تنسب على الله فهو سبحانه وتعالى - غير مخلوقاته-، وشأن الألوهية أسمى ما تتصور الأذهان العليلة والعقول القاصرة"⁽¹⁾. وقد لاحظ الغزالي أن الخوض في صفات الله ومحاوله استكناه ودلالاتها واستكشاف حقيقتها لم يرجع عليه إلا بالحيرة حتى قيل فيهم:

نهاية إقدام العقول عقبال وآخر سعي العالمين ضلال
و لم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
و كم من جبال قد علا شرفاتها رجال فباودا والجبال جبال⁽²⁾

أي أن الإنسان إن كان لا يملك في بحثه وسائل الخوض فيه، فلا طائل منه، ويضرب الغزالي هنا مثل الكيميائي الذي قد يعرف خواص سائل أو غاز بقلبه تحت يديه يجري عليه ما شاء من تجارب، فكيف يمكن بالبحث النظري في شأن الألوهية لينكروها أو يثبتوها؟⁽³⁾ والله عز وجل يقول في الحديث عن صفاته وذاته: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ۗ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾⁽⁴⁾.

و على هذا فالغزالي يؤكد أن كل ما قطعنا بثبوتيه في كتاب الله وسنة رسوله، مما وصف الله به نفسه وأسنده إلى ذاته، قبلناه على العين والرأس، لا نتعسف له تأويلا ولا نقصد به تجسيما ولا تشبيها⁽⁵⁾.

إلا أن الغزالي يلفت النظر هنا إلى أن لغات البشر عبارة عن قوالب صالحة لما يدور في

(1)-محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 35.

(2)-الأبيات لفخر الدين الرازي، ينظر: فح الطيب لشهاب الدين المقرئ، ترجمة: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط 1، 1997، ج 5، ص 232.

(3)-محمد الغزالي: المصدر السابق، ص 36.

(4)-سورة آل عمران، آية 7.

(5)-محمد الغزالي: المصدر السابق، ص 36.

حياتهم من تفاهم، ولكنها دون ما ينبغي لذات الله من تجلية وإدراك، وإذا كان المسلمون قد اختلفوا في المنهج والأسلوب فإنهم متفقون على تزيه الله وتمجيده وتوحيده. و في هذا يقول الغزالي: "و كنت أود لو كف المسلمون الأوائل عن خوض معارك الجدل في الموضوع أو لو استبان بعضهم وجهة نظر الآخر بدقة... وأنا شخصيا، أوتر مذهب السلف وأرفض أن يشتغل العقل الإسلامي بالبحث المضني في ما وراء المادة، وأرتضي قبول الآيات والأحاديث التي تضمنت أوصافا لله جل شأنه دون تأويل. ولئن كنا نسلك هذا المسلك في تفديس الذات وبنسبة الصفات، فإننا لا نحب أن نتخذ منه ذريعة لتكفير من قصدوا إلى تزيه الله عن طريق التأويل... فإن الذين أولوا فعلوا ذلك خشية أن يؤول أمر الألوهية إلى مثل ما عليه اليهود والنصارى من تجسيم زري وأحوال مضحكة"⁽¹⁾.

وبهذا المنطق السليم والتفكير المعتدل يعرض الغزالي آرائه في مسألة أسماء الله وصفاته، مؤكدا أن العقل لا يستطيع أن يجمع بين النقيضين. وهنا يستشهد الغزالي فيما يذهب إليه بأحد أقوال المفكرين في هذا الموضوع نقله إتماما للفائدة قال: والذات الإلهية ليست ذاتا مبهمه مجمله، كما أنها ليست محدودة مجسدة هي "ذات" لا كالذوات التي يراها الحس أو يتخيلها الوهم، لأنها لو وقعت في دائرة الخيال مهما امتد واتسع كانت بهذا المعنى محددة مقيدة... ومع هذا فلا بد أن تضاف إلى "ذات" كما تضاف مثل هذه الصفات وغيرها إلى ذواتنا، مع الفارق البعيد بين كمالها في ذات الإله، ونقصها في ذات الإنسان⁽²⁾.

و يوضح الغزالي أن الكثير من الآيات تضيف إلى الله صفات عاملة في الوجود، أي كائنة في الوجود الإنساني، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾⁽³⁾، فالله مرید وبارادته تتحقق مصائر الأمة، وأيضا قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا

(1) - محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق ص 38.

(2) - المصدر نفسه، ص 39.

(3) - سورة البقرة، الآية: 185.

وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ فذات الله تسمع، وترى كل شيء وفي السنة النبوية قول النبي ﷺ: " قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن يصرفه كيف يشاء (2) .

فهذه النصوص كما يرى الغزالي وأمثالها، لا يمكن أن يقرأها قارئ أو يستمع إليها مستمع دون أن يتحرك في ذهنه صور لهذه الصفات، ذلك أن من عرف حقيقة الألوهية فإنه يتلقى هذه الصفات بقلبه وبفطرته السليمة. وبناء على هذا المفهوم يقول الغزالي: عاش الصحابة رضوان الله عليهم لا يسألون ما يد الله وما عينه؟ وما علمه؟ فلقد هدوا بفطرتهم أن العقل لا يستطيع كنه صفة من هذه الصفات ولا أن يمسك بها على أية صورة ما دام الكمال المطلق هو صفتها (3) .

و مقابل هذا حسب نظر الغزالي فإن "الله" الذي جاء بالقرآن ليدل الناس عليه وعلى وحدانيته، قد أقامت الشريعة (مفهوما) للإله في عقول الناس، كي يكون حقيقة يؤمنون بها ويتعاملون معها، وكأنهم يرونها ولقد صاغ في ذلك القرآن معجزة المعجزات الدالة على صدق الرسالة الحممدية وعلى أنها من عند رب العالمين ويخلص الغزالي بعد نظر وتدبير عميق بقوله:

فأولا: لم يكن مفهوم الألوهية في شريعة الإسلام مفهوما ماديا لأنه لو كان كذلك لتجسد الإله ولو تجسد لتحدد، ولو تحدد لوقع في دائرة الحس وفي محيط النظر، ومثال ذلك سيدنا إبراهيم لما نظر إلى الشمس وسائر الكواكب ووجدها تأفل (4) قال: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (5) ، فالعقل الرشيد لا يقبل أن يكون الإله محيزا يحضر ويغيب، يظهر ويختفي.

(1) - سورة المجادلة، الآية: 1.

(2) - أخرجه بنحوه الإمام مسلم عن أنس في ص حجه: كتاب القدر، باب تصريف الله القلوب كيف يشاء، ج 4، 265، ص

675.

(3) - محمد الغزالي: عقيدة المسلم ص 41.

(4) - المصدر نفسه، ص 425.

(5) - سورة الأنعام، الآيتين: 78-79.

ثانياً: لم يرتضي الإسلام أن يكون مفهوم الإله أمراً معنوياً وفكرة مجردة مطلقة لا يدل عليها وصف ولا يدرك لها واقع يتجلى فيه، فإنها لو كانت كذلك لما أمسك بها عقل، ولأطمأن، إليها قلب ومن أجل هذا لم يكن مفهوم الإله في شريعة الإسلام هذا أو ذاك ولم يكن شيئاً مادياً كما لم يكن فكرة محددة.

و إنما اختار الإسلام لهذا المفهوم في أذهان البشر مقاما وسطا بين هذين بين التجسيد والتجديد، وهذه من النظرة الوسطية السليمة التي يجب على كل مسلم أن ينظر بها لما لها من أثر على نفس وقلب المؤمن، وبالتالي تأخذ تلك المفاهيم الخاطئة تدوب ولكن لما لم يكن بد من أن تتصور، فقد اسعفنا القرآن الكريم بالقدر الضروري الذي يسد حاجيات المؤمن في هذا المقام فيجعل للإله مفهوماً غير مجسداً: (ذاتاً) لها العلم والقدرة والإرادة والسمع وغيرها من صفات الكمال التي تليق برب العالمين⁽¹⁾.

ويخلص الغزالي بالقول مبيناً موقفه على إثر ما سبق ذكره: "ذلك في إيجاز هو الذي يقع في إدراكي للمفهوم الذي أراد القرآن أن يقيمه في عقول الناس وقلوبهم، وذلك المفهوم ضروري كما قلنا لكي نستشعر (الذات) وتتجه إليها وترفع لها صلواتنا ودعواتنا فهذه النظرة الوسطية المستمدة من فهم كتاب الله وسنة نبيه، ولا ريب أن كل فهم صحيح يصل إليها وإلى حقائق الإسلام الكبرى وفي هذا يقول الغزالي: "إن الإنسان الموصول بالقرآن دقيق النظر إلى الكون خبير بازدهار الحضارات وانقيادها، نير الذهن بالأسماء الحسنى والصفات العلى حاضر الحس بمشاهد القيامة وما وراءها مشدداً إلى أركان الأخلاق والسلوك ومعاهد الإيمان وذلك كله وفق نسب لا يطغى بعضها على بعض وعند ما ينضم إلى ذلك السنن الصحاح مفسرة للقرآن وتممة لهداياته، فقد أوتي رشده"⁽²⁾.

(1)-محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 42-43

(2)-المصدر نفسه، ص 43.

مسألة القضاء والقدر

تعد مسألة القضاء والقدر إحدى المسائل المهمة التي اختلف حولها، وأثيرت بصددتها مواقف جدلية، ولقد تعرضت هذه المشكلة من حيث تناولها وطرحها إلى تطرف في المواقف، ومثار الجدل يدور حول قضيتين، ودى العلاقة بينهما كما يلي:

أولاً: الصلة بين إرادة الله الشاملة والإرادة الإنسانية

ثانياً: قدرة الله المطلقة وأفعال العباد.

و أحاول ان أستعرض باختصار موقف الطرفين في هذه المسألة وهما الجبرية والمعتزلة قصد تمييز بيان وسطية الغزالي في هذا الصدد.

1 - الجبرية: يذهب الجبرية إلى نفي القدرة الإنسانية، فليس للإنسان قدرة ولا إرادة ولا اختيار، بل هو مجبر على أفعاله، فالله هو الذي يخلق فيه الأفعال كما يخلقها في الحيوان والنبات، كما يقرر هذا المذهب، أن الثواب والعقاب جبر حتى التكاليف الشرعية جبر⁽¹⁾.

2 - أما المعتزلة: فقد ورثوا التراث القدري⁽²⁾ المفرط، وأعادوا صياغته بالتفصيل، وأقاموا له أسسا يقوم عليها مذهبهم، وهم رواد القول بالحرية الإنسانية، حيث أسهموا في تأكيدها، ودافعوا عنها من خلال نسقهم العقلي المعروف بالأصول الخمسة⁽³⁾ وهكذا سلك المعتزلة سلكا متطرفا ومبالغا فيه، مقابل الطرف الأول وهم الجبرية.

وسطية أهل السنة في تناول القضاء والقدر

يؤكد ابن تيمية أن أهل الهدى والفلاح يؤمنون بأن الله تعالى خالق كل شيء، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير، أحاط بكل شيء علما، ويتضمن هذا الأصل

(1)-البغدادي : الفرق بين الفرق، ص 189 وأنظر: الشهرستاني: الملل والنحل، ص113/1.

(2)-القدرية: مذهب متطرف يتفوق فيه القدر بمعنى العلم والتقدير. أنظر القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة، ص

(3)-الأصول الخمسة عند المعتزلة هي : التوحيد، العدل، الوعد والوعيد المتزلة بين المتزلات، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(القدر) إثبات علم الله وقدرته ومشيتته ووحدانيته، ومع هذا فهم لا ينكرون ما خلقه الله من الأسباب التي يخلق بها المسببات كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نَّفَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ﴾⁽¹⁾ وقال أيضا: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ۗ﴾⁽²⁾، وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۗ﴾⁽³⁾ فأخبره الله أنه يفعل الأسباب⁽⁴⁾.

تلك هي القاعدة المنهجية التي بنى عليها السلف موقفه من مسألة القدر، متمسكين بكتاب الله وسنة نبيه. فالسلف من الذين تناولوا القضية في إطارها الصحيح، وناقشها بأسلوب معتدل، دون غلو وتطرف، واحتكم في سياق تناوله لمنهج الكتاب والسنة: فكانت آرائهم معتدلة فضلا عن كونها وسطا صحيحا بين طرفين مخطئين.

و يعد الغزالي من الدين هادوا إلى الصراط المستقيم أو توسطوا بين النقا والغلاة، فأثبتوا للأسباب تأثيرا في متسبباتها، لكن ليس بذاتها، بل بما أودعه الله تعالى فيها من القوى الموجبة، فالقدر إذا كان لا ينافي الأسباب الكونية والشرعية فهو كذلك لا ينافي أن يكون للعبد إرادة وقدرة، وقد تتخلف الأسباب عن مسبباتها - بإذن الله - كما حدث لإبراهيم عليه السلام لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۗ﴾⁽⁵⁾ فكانت بردا وسلاما له بإذن ربها.

وعليه من خلال ما سبق ذكره نتى كيف كان نظر الغزالي إلى القضاء والقدر، وكيف تناوله؟ وما هو منهجه في ذلك؟

يرى الغزالي أنه من أسباب انهيار الحضارة الإسلامية، وتخلف العالم الإسلامي شيوع مبدأ

(1)-سورة الأعراف، آية: 57.

(2)-سورة المائدة، آية: 16.

(3)-سورة البقرة، آية: 26.

(4)-ابن تيمية: التدمرية في تحقيق الإثبات لأسماء الله وصفاته، المطبعة السلفية، مصر، ط3، 1400، رقم 21.

(5)-سورة الأنبياء، آية: 69.

الجبرية بين المسلمين والذي يقضي بأن الإنسان مسير لا مخير وأنه لا يملك قوة ولا إرادة في تنفيذ رغباته، أو صياغة شكل ونمط حياته وسلوكه، فهو كما يقول: "يحيا بتوجيه خفي أو جلي من مشيئة الله التي تدفع به ذات اليمين وذات الشمال، والتي تهيأ له حياة اليسر أو حياة العسر برغمه"⁽¹⁾ وعليه فهو مطالب بالتسليم بالقدر، وعمد الاعتراض عليه، وقبول ما قسم الله له في هذه الحياة دون تأوه ولا ضجر.

و الغزالي في حديثه عن مبدأ الجبرية يرى رغم أنه ظهر منذ زمن طويل، إلا أن آثاره لا تزال سارية ومنتشرة في أيامنا هذه، وتجدد من الناس من يؤمن بها، بل ويجعلها محور حياته التي تدور حول مختلف أفكاره، وهذا الذي جر على عالمنا الإسلامي شر بلاء تمثل في تقاعس أبنائه عن الانطلاق، والسعي وبذل جهوده لتحسين مستواه ورفعته، مكتفين بالتسليم أن لا حول ولا قوة في شيء، وأن الغنى أو الفقر، والسعادة أو الشقاء، التقدم أو التأخر كلها حظوظ مقسومة لا دخل لهم فيها، ولا سبيل لهم إلى التأثير فيها، أو التعقيب والتعليق عليها، فهي مسطرة ومقدرة منذ الأزل⁽²⁾.

و في بحثه عن السبب الذي كان وراء نشأة هذه المسألة، ورواجها بين المسلمين في شتى أنحاء العالم الإسلامي، نجد الغزالي يرجعه إلى علم الكلام والتصوف وبعض مفسري القرآن، وشراح السنن، وقد تناول بعض الأمثلة عن ذلك، منها أن مذهب الأشعري الذي اعتنقه المتأخرين يتحدث عن المسؤولية الشخصية بأسلوب غامض لا تتضح معه عدالة التكليف، أما الصوفية فقد محقوا الإرادة البشرية، وجعلوا الإنسان مشدوداً بخيوط لاهية إلى مصيره المجهول (والمعلوم)، وأما الشراح والمفسرون فأثرهم واضح في تفسير بعض الآيات القرآنية وشرح بعض الأحاديث المتعلقة بالقدر على نحو غير سليم يوحي بعجز عزيمة الإنسان، وتعطيل طاقاته الفكرية والجسدية، لا لشيء إلا لكون القدر هو المسؤول عن كل ما يصيبه أو يغير فيه في الحاضر والمستقبل.

(1)-محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ط1، عين مليلة، ص 79.

(2)-المصدر نفسه، ص 79.

و هم بتصوراتهم هذه إنما يخلطون بين جبرية ترمي العزيمة الإنسانية بالوهن، وتجعل الإنسان يتكاسل ويمشي متناقل الخطى، وبين تقدير لسنن الله الكونية، وشتان بين الأمرين، فإن سنن الله الكونية قوانين ثابتة لا حياد عنها، وهي مرتبطة بتوفير الجملة من الشروط والعوامل لتمضي وفقها⁽¹⁾.

أما الجبرية فهي نوع من الشروع إلى الكسل والوهن والخمول ثم ربط ذلك كله بقدر الله، وهذا الخلط المسيء بين الأمرين كانت نتيجته واقع عانى المسلمون من تبعاته حيث زرعت في أفكارا تستبعد تقديم المقدمات، وانتظار النتائج وتدفع بهم إلى الكسل والوهن، حتى نجحت في جعلهم كما يقول الغزالي: "يتخلصون من عناء الاعتراض عن النظم الفاسدة، والأوضاع الجائرة والأحكام المستبدة والخلل الاقتصادي، وانتشار الزلفة والمحسوبية والمظالم، يتخلصون من الاعتراض على هذا كله، باقحام القدر الأعلى، وشيوع هذه المقالة يحدث تخريبا واسع النطاق في دعائم نهضتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية، فضلا على أنه تخرص على القدر بسند التهمة الباطلة التي تزعم أن الدين مخدر الشعوب"⁽²⁾.

و إذا كانت النتائج مؤسفة فإن الأشد منها أسفا أن تلقى الجبرية هذا الرواج، وهذه الاستمرارية في التأثير على عقيدة المسلمين الصحيحة، قديما وحديثا.

و لأهمية هذه المسألة فإننا نجد الغزالي قد تناولها في الكثير من كتاباته حيث يقول موضحا: "إن الإيمان بالقضاء والقدر عقيدة من العقائد التي أسسها الإسلام على الإيمان بالله، وبنائها على المعرفة الصحيحة لذاته العليا وأسمائه الحسنی وصفاته العظمى"⁽³⁾.

فقد قامت عقيدة القضاء والقدر على صفات العلم الواسع، والإرادة الشاملة، والقدرة الكاملة، وأنه سبحانه فعال لما يريد عالم بما يفعل، وقد وافق العقل النقل في ذلك كله.

(1) -محمد الغزالي: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، دار الشروق، بيروت، ط2، 1983، ص 120.

(2) -محمد الغزالي: الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين، دار النهضة، مصر، القاهرة، ط2، 1999، ص53.

(3) -محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص69.

و يستحضر محمد الغزالي في تناوله للقضية، كل علامات الاستفهام الصغيرة والكبيرة التي تحايل المسلمون ويتخبطون في الإجابة عليها⁽¹⁾.

وعليه فقضية القضاء والقدر تستوعب آفاقاً أهم من خيالات السذج وأوهام الجهال، ومعالجتها بفكر مستنير يفسر لنا الجوانب الحيوية، وجوهر الإسلام ومدى عدله ونورانيته، عاكسة بذلك النظر الكليل للإنسان المسلم، رغم تعظيم القرآن للعقل، والدعوة إلى تفعيله والاعتماد عليه في النظر إلى الأشياء، إلا أن الكثير من المسلمين تجاهلوا هذا الدور للعقل، فتشكل لدى فهمهم القاصر أن الإنسان مسير لا مخير.

ويذهب الغزالي إلى أن القضاء والقدر يتعلق بوقائع الحياة وأحداثها وأعمال الناس وتصرفاتهم على نحوين (قسمين) واضحين متميزين لكل نحو منهما حكمه الخاص وآثاره المترتبة عليه²، فما هي حدود ومعالم كل قسم عند الغزالي؟ وما هي الفواصل القائمة بينهما؟ والجواب يكون كما يذكر الغزالي:

1 القسم الأول: نحن مجبرون، بمعنى أن هناك أمور تحدث للإنسان وتتسم بمحض القدرة العليا، وعلى وقف المشيئة وحدها وتنفذ في الناس طوعاً وكرهاً سواء، شعر بها الناس أم لم يشعروا بها فالعقول وما يودع فيها من ذكاء أو غباء والأمزجة على اختلافها من هدوء وعنف، والأجسام وما تكون عليه من طول وقصر، وجمال أو قبح، والزمان التي تولد فيه، والمكان الذي تنشأ وتتحيا فيه، وما تتركه الوراثة في ذمك من غرائز وميول، والحياة والموت، وغير ذلك ومثله فليس للإنسان فيه⁽³⁾.

فأصابع القدر في هذه الحال وحدها هي التي توجه الحياة كما أراد الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۗ لَآ

(1)-المصدر نفسه، ص 97.

(2)-المصدر نفسه، ص 97.

(3)-المصدر نفسه، ص 98.

إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴿١﴾، فالإنسان لا يؤاخذ ولا يحاسب عن هذه الأشياء إلا أن الإيمان بما واجب، وقوله تعالى أيضا: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۗ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تَكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ۗ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ﴿٢﴾، ويذكر الغزالي أن سلفنا الصالح قد أحسن الإيمان بما، فكان أثرها في مسلكهم واضحا.

فإذا علم الإنسان أن أجله مكتوب لا ينقصه الإقدام ولا يزيده الإحجام أدى واجبه على أكمل وجه بقوة وعزيمة^(٣) وهو يدرك تماما قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

و يضيف الغزالي موضحا ما سبق فيقول: لا معنى لتوتر الأعصاب واشتداد القلق بإزاء أمور تخرج عن نطاق إرادتنا قد يقرع الإنسان الندم على تفريطه، وقد يستوجب أقصى اللوم على تقصيره، أما أن يطلع القدر عليه بما لا دخل له فيه فهو لا مكان لندم أو ملامم وبالتالي لا مكان فيه لقلق أو ريبة، ذلك أن الركون إلى القدر - وهو غير القول بالجبر - والبراءة من الحول والطول، يورث جراءة على مواجهة اليوم والغد، ويضفي على الحوادث صبغة تحبب بغيضها وتجعل المرء يقبل وهو مبتسم خسارة النفس والمال^(٥).

أما القسم الثاني: يقول الغزالي "أما القسم الثاني من متعلقات القضاء والقدر، فهو يتصل بأعمال على العكس الأولى، ونحن نشعر حين أدائها بيقظة عقولنا، وحركة ميولنا، ورقابة

(١)-سورة آل عمران آيتان 5-6.

(٢)-سورة القصص، الآيات: 68-70

(٣)-محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 98.

(٤)-سورة التوبة آية 51.

(٥)-محمد الغزالي: المصدر السابق، ص 98.

ضمائرنا⁽¹⁾ فالإنسان يخشى باستغلال إرادته وقدرته فيما يباشر من أعمال، وكان هذا الإحساس دليلاً كافياً على جدية إرادة الإنسان وقدرته، وإذا كان هناك من يزعم أن الإحساس يكذب أحياناً، فإن القرآن الكريم يؤكد هذا الإحساس البديهي، وينوه بحرية الإرادة الإنسانية في قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ^ع ﴾⁽²⁾؛ وإن الإنسان مسؤول على ما يصدر منه لأنه له الحرية في ذلك، قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ^ط وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ^ط ﴾⁽³⁾.

وبذلك يبين الغزالي أن طبيعة الدين: هي التكليف والابتلاء لا تتحقق أبداً، ولا تتلاءم مع استعباد الإرادة وتقييدها، كما أن الجزاء لا يقوم إلا على هذه الحرية، ونجد الغزالي يميز هنا بين العاقل والمجنون، فهذا الأخير لا يحاسب على أفعاله، وهذا عبث يلجأ إليه الناس لكي يبرروا عكوفهم عن المعاصي، وبعدهم عن طاعة الله وهم مأمورون بترك المعصية ومأمورون بفعل الطاعات، وهذا اللون من العبث - كما يرى الغزالي - ليس جديداً في تاريخ الأمم⁽⁴⁾، فإن المشركين قديماً حاولوا هذا بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ^ع كَذَلِكَ ^ع فَعَلَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ^ع فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ^ط ﴾⁽⁵⁾.

فالرسل مكلفة بأن تبلغ وبالبلأغ تنقطع أعدارا الناس لقوله تعالى: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ^ع وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ^ط ﴾⁽⁶⁾. وبالتالي فإن

(1)-المصدر نفسه ص 99.

(2)-سورة الكهف آية 29.

(3)-سورة يونس آية 108.

(4)-محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 103.

(5)-سورة النحل آية 35.

(6)-سورة النساء آية 165.

الكون يعد مجيء الرسل، ليس برواية تمثيلية أو مسرح عرائس يشتغل فيه الخلق بخيوط خلقية تشدهم وتتركهم، هذا تصور أحق فيه جرأة على الله⁽¹⁾.

وبعد هذا التوضيح فيما يتعلق بقسمي القضاء والقدر أجاب الغزالي على التساؤل القائل كيف يتفق القول بحرية الإرادة والقول أن أعمال الإنسان لن تخرج من دائرة العلم الإلهي المحيط الشامل؟

وجوابه: قف أمام مرآة حلوة صافية وأنت عابس أو ضاحك الوجه فماذا ترى؟ سترى صورتك كما هي عابس الوجه أو ضاحك.

إن مهمة المرآة أن تصف وتكشف بصدق فيما أنت عليه فكذلك صفات العلم الإلهي، فهي لا تتصل بالأعمال اتصال تصريف وتحريك، ولكنه اتصال انكشاف ووضوح وعلم فالعمل الإلهي يكشف عن الحاضر والماضي والمستقبل⁽²⁾.

و يفسر الغزالي معنى قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾⁽³⁾ حتى يزيل اللبس والغموض والاضطراب عن الدين، وبلغت النظر على أن إطلاق المشيئة في آية، تقيده آية أخرى يذكر فيها الاختيار الإنساني، بمعنى أن إضلال الله لشخص هو أن هذا الشخص قد آثر الغي على الرشاد، فاقره الله على مراده⁽⁴⁾ ويظهر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾⁽⁵⁾.

و يدعو الغزالي إلى النظر في قيمة التنويه بالاتجاه البشري، فأرادته في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ

(1) - عبد القادر نور: حديث الاثنين للشيخ محمد الغزالي التي سجلها للإذاعة والتلفزيون، دار الوعي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ص 178-179.

(2) - محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 99.

(3) - سورة النحل، الآية: 92.

(4) - المصدر نفسه ص 100.

(5) - سورة الصف، الآية: 5.

يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ

جَهَنَّمَ ﴿١﴾. و عليه فإن هذه التفسيرات بمثابة المصباح ينير به المسلم الطريق وهو يتلو آيات الله في هذه المسألة، فلن يجد في دين الله قلقاً أو اضطراباً^(٢).

و كثيراً ما طرح على الغزالي السؤال التقليدي الذي يعبر عن الجهل لعقيدة التوحيد: هل الإنسان مسير أم مخير؟ ولا يجد هذا المفكر إلا إجابة ساحرة وإن كانت في ذات الوقت حقيقة لواقع مؤسف إذ يقول: الإنسان نوعان: نوع يعيش في الشرق، ونوع يعيش في الغرب، والأول مسير، والآخر مخير، فإذا بالإجابة تقع على السائل المشدوه عندما يتابع الغزالي تعقيبته: إن القوم في الغرب شعروا بأن لهم عقولاً تفكروا بها حتى كشفوا المساتير من بدائع الكون، وشعروا بأن لهم إرادة فصمموا بها حتى التفت في أيديهم مصائر الأمم وأنظمة السياسات وشعروا بأن لهم قدرة فجابوا المشارق والمغرب، وصنعوا الروائع والعجائب^(٣).

أما نحن فهذا رجل من ألوف الألوف التي تزحم البلاد بأمثاله، يأتي ليستفتي في هذه المعضلة التي غاب عنه حلها. فما أبعد البون بين الشخصين وكفى كذبا على الدين والدنيا^(٤).

و في هذه القضية التي تجابه الإنسان المسلم، يفعل الإيمان الأعاجيب ينير ويهدي ويعضد، فيضع العقل والقلب واليد على الطريق، فمهما كثرت الخطوب، واختلطت الأشياء، يدنو الصراط المستقيم ويضيئ السكينة على النفس وهي تسلم أمرها كله لله، إذ أن إحساس المؤمن بأن زمام العالم بيد الله يبعث في قلبه الطمأنينة والسكينة في فؤاده.

و يخلص الغزالي في موقفه في مسألة القضاء والقدر بالقول: أن الإسلام يرفض كل تشكيك في حرية الإرادة، ويرد بعنف كل توهين للطاقة العظيمة التي منحها الإنسان كيفما يكدر في هذه

(١) -سورة النساء، الآية: 115.

(٢) - محمد الغزالي: المصدر السابق، ص 101.

(٣) -محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 101.

(٤) -المصدر نفسه ص 113-114.

الدنيا، ويرتقب نتائج كدحه، وبهذا الفهم فالأقدار لا تدبر الحظوظ ولا تمطر ذهباً ولا فضة ولا تحقق آمنيات الكسالى والقاعدين وإنَّ الجهد المبذول والكفاح الدائب مع التوكل على الله هـو الذي يصل ويقرر إلى الهدف وتقرب البعيد وبذلك يكون الغزالي قد عبر على منهجه الوسطي في مسألة القضاء والقدر، فهناك أمور تحدث بمحض القدرة العليا، وهناك إرادة حرة فيها يباشر الإنسان من أعمال وسلوك مع شمول الإرادة العليا، وعلم الله الواسع فليس هناك قدر محتوم مطلق، حتى نسلب الإنسان إرادته فهو مجبور على أفعاله غير مختار، وهذا ما ذهب إليه المفرطون كما أنه ليس هناك إرادة مطلقة ليس لله إرادة فيها وهو ما ذهب إليه المفرطون.

وعليه فإن الغزالي يؤكد على أن أساس الإصلاح العقدي يعتمد أول ما يعتمد على تصحيح الفهم في عقيدة القضاء والقدر، تعود كما كانت الدافع الأعظم على التضحية والفداء، والوازع الأول على ترك الشر وفعل الخير وقياماً بواجب الإنسان نحو نفسه وتنفيذا لأوامر الله جل شأنه. وصحيح أن الله هو خالق الإنسان، وكل ما يتعلق به، وما حوله من فعل وقدرة وإرادة لكن الإنسان هو الذي يختار وحده بإرادته التي خلقها الله فيه، ويعتمد على قدرته هذه الذي أمده الله إياها، ليفعل الفعل الذي أراده واختاره، وفي هذا الصدد يقول الراغب الأصفهاني رداً على القائلين بلحجر المحض والتفويض، وهو بقوله هذا يتفق مع ما ذهب إليه الغزالي في فكره: والذي يدل أن لا جبر: و"أن القول بذلك يبطل فائدة العقل من الفكر والرؤية التي خص الله تعالى بها الإنسان ليسير بين الحق والباطل في الاعتقاد والصدق والكذب في المقال والجميل والقيح في الفعال لكي يتحرى الحق من الباطل والصدق دون الكذب والجميل من القبيح، وجعله بذلك خليقته وكرمه بها... وقيح أن يوجد الله تعالى العقل الذي هو أشرف وجود يبطل فائدته، وأيضا فلو لم يكن للإنسان فعل لا يبيح العقل أن يقال له، لم فعلت كذا ولم تفعل كذا... (1).

الأخذ بالأسباب:

غير بعيد عن مبدأ الجبرية الذي ابتلى به العالم الإسلامي قديماً، وحديثاً، أضاف الغزالي سببا

(1) - الراغب الأصفهاني: تفصيل الشأئين، تحقيق: عبد الحميد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1488-1988م، ص139.

آخرا لتخلف المسلمين، وبعدهم عن مفهوم العقيدة الصحيح، وهو ضعف الصلة أو انقطاعها بين الأسباب والمسببات أي أن المقدمات والنتائج غير مرتبطة تماما، ولا متتابعة حتما، بل إنما قد تصادم بعضها البعض بصورة جزئية، وقد تنفصلان تماما، وهذا الرأي خطير يتناقض مع سنن الله، وقوانين الكون الصارمة، وكان الحاصل أن هذا التصور المخبول لا ينضج معه علم ولا يصح فيه بحث، ولا يملك أصحابه الأدوات التي يحققون بها نجاحا عمليا في هذه الحياة، والمقرر في العلوم الكونية التجريبية والإنسانية وغيرها، أن قانون السببية محترم، وأن رفضه جنون... وكان لذلك أثر محزن في انهيار حضارتنا واختلال ثقافتنا⁽¹⁾، وابتشار هذا التصور بين المسلمين، الذي كان سببه الموروث الكلامي القديم وخاصة المتصوفة الذين كانوا يؤمنون بخوارق العادات، مما جعل قانون السببية مجرد لغو.

و قد دحض الغزالي هذا التصور بشدة معتبرا إياه شذوذا عن القاعدة الإلهية القاضية بأن الأسباب تؤتي نتائجها حتما في حين تمثل خوارق العادات أمرا آخر هو في الوقت نفسه مؤكدا للقاعدة وغير هادم لها.

وانطلاقا من منهجه الوسطي فإن الغزالي كان يقرن بين قانون السببية، ومبدأ التوكل على الله في كثير من المواضيع، لإزالة كل غموض، أو التباس من شأنه أن يوحى بالتناقض أو التضاد بين الأمرين مبينا أن " الأمور لا تبلغ تمامها إلا بإذنه تعالى، فما ينقطع مقطوع ولا يتصل موصول، ولا ينبت نبات ولا يحيا حي إلا وفق المشيئة العليا، والإنسان قد يملك أسبابا ولكنه لا يملك الأسباب كلها، ولو ملكها كلها فهو لا يملك الأسباب المضادة لها بل إن تيار الحياة الذي يمد القلب بالنبض والعقل بالفكر والأعصاب بالحس، ليس ملك الإنسان نفسه، بل ملك واهب الحياة الذي له الخلق والأمر، ويده النفع والضرر والهزيمة والنصر والتقديم والتأخير⁽²⁾.

و بناء على ذلك يؤكد الغزالي أن الإنسان عليه استغلال كل ما أتيح له من قوة وإمكانات وتوظيفها في حياته، توكلا على الله تعالى معتقدا ومؤمنا أن التوفيق من عنده تعالى، وأن النتائج

(1) - محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، مصدر سابق، ص 81.

(2) - محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين، دار المعرفة، الجزائر، دط، دت، ص 29.

المرتقبة لكل ما قام به هي رهن مشيئة الله عز وجل لا مشيئته الشخصية ورغبته الذاتية ويبقى هذا المنهج هو الأصل الذي سار عليه ﷺ وتبعه صحابته الكرام وسيبقى لزاما على المسلمين إن رغبوا بنيل ما ناله سلفهم الصالح من حضارة، وازدهار أن يتخذوا هذا المنهج سبيلا لهم⁽¹⁾.

المطلب الثالث: موقفه من الغلو والتطرف

إن المتتبع لمسيرة الفكر الإسلامي عبر امتدادها، يلحظ أن هناك ظاهرتين واضحتين تميزانه وهما الاعتدال والغلو:

تعريف الغلو: لغة هو المجاورة للحد والإفراط فيه، غلا يغلو غلوا، وغلا في الدين والأمر جاوز حده⁽²⁾، يقول الله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْأَكْتَبُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾⁽³⁾.

و في الحديث الشريف: «إياكم والغلو في الدين»⁽⁴⁾، أي التشدد فيه ومجاورة الحد. أما الغلو اصطلاحا: فهو ذلك النمط من التدين الذي يؤدي إلى الخروج عن الدين⁽⁵⁾.
تعريف التطرف: كلمة التطرف في اللغة، مصدر الفعل، تطرف، وتطرف الشيء صار طرفا.

وعُرِّفَ التطرف في اللغة العربية أنه مجاورة الحد، والخروج عن القصد من كل شيء، وهو نقيض التقصير. ثم انتقل إلى المعنويات كالتطرف في الدين أو الفكر أو السلوك، فالتطرف يقابله

(1) -محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 101.

(2) -ابن منظور: لسان العرب.

(3) - سورة النساء، آية 171.

(4) - ابن ماجه، السنن، كتاب المناسك، باب: قدر حصي الرمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت،

1008/2، رقم: 2930. وقال الألباني: صحيح.

(5) -محمد أحمد عبد القادر: ملامح الفكر الإسلامي بين الاعتدال والغلو، دار المعرفة، الإسكندرية، دط، ص 156.

الاعتدال والاعتزان، كما عني بالتطرف أيضا: التعصب الذي يقصد به التشدد⁽¹⁾.

ولما كان الاعتدال يمثل الأصل في الاعتقاد والفكر، فإن الغلو مسألة طارئة من حيث مخالفته للدين والفطرة الإنسانية لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾⁽²⁾. وإذا كان الاعتدال في جانب الفكر الإسلامي قد جاء إلزاما بالحق، وسعيا إلى تطبيقه بالتي هي أحسن، فإن الغلو في جانب آخر من ذلك الفكر. قد جاء خروجا عن الحق وإتباعا للأهواء.

و لقد كانت العقيدة الإسلامية زمن النبوة صافية نقية، فلم يكن يشغل المسلمون بعد رسول الله، عن تدارس القرآن والسنة جدل عقيم، ولا زيادة في موضعها، ثم أعقبت هذه المرحلة المشرقة من تاريخ الإسلام والمسلمين فترة أخرى، شرقت الأمة الإسلامية من خلالها وغربت وقويت شوكتها، إلا أن داء خطير أخذ في الظهور آنذاك ألا وهو الغلو فلقد استهوى هذا الأخير طوائف من المسلمين فأحدث صدعا في بنية الأمة، وضلالا في مجال العقائد، خاصة وصراعا سياسيا وعسكريا امتدت آثاره إلى وقتنا هذا.

و هكذا ظهر الغلو في الفكر الإسلامي في غياب من الالتزام الكامل بالعقيدة التي تحث على نبذ الغلو في الدين⁽³⁾، وتعد فرقة الخوارج أحد التيارات الغالبة في الفكر الإسلامي حيث يأتي غلوهم على أساس تشددهم مع جهلهم بكثير من مسائل الدين، ولعل طبيعة البداوة والفظاظة في الطبع، أثرت تأثيرا كبيرا فيما تبنا آراء فيها من التشدد والغلظة انعكست على أفعالهم وآرائهم على السواء.

ففي السنة النبوية نجد دعوة ملحة إلى أن يعتدل المسلم، ويترفق في دينه سواء في العبادة أو الاعتقاد كما سبق ذكره، فلقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم لرجل رآه يتشدد ويغلو في

(1)-أنظر الراغب الأصفهاني: مفردات وألفاظ القرآن (مادة طرف).

(2)-سورة الأنعام، الآية: 153.

(3)- محمد أحمد عبد القادر، ملامح الفكر الإسلامي بين الاعتدال والغلو، المرجع السابق، ص 5.

الدين: " إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى" (1) كما كان يكره الرسول صلى الله عليه وسلم المغالاة في أي أمر من الأمور لذا، كانت السنة نموذجاً يحتدى به في الاعتدال قولاً وعملاً ونموذجاً في العبادات، إذ يدعو إلى أفضلية الأعمال الرفيقة في العبادات التي هي أدوم وإن قلت لقوله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»².

كما كان الرسول يتجه إلى التيسير في كل شيء يأخذ بالأمور من وسطها، لا ينحاز إلى أحد أطرافها، فلقد ذكرت «أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بأن الرسول ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرها ما لم يكن معصية»⁽³⁾ وقال أيضاً في الغلو والتحذير منه: «لن يشاد الذين أحد إلا غلبه ولكن سدّدوا وقاربوا»⁽⁴⁾.

فإذا كان الاعتدال هو ميزان الذين كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطَّعَوْا﴾ [هود: 112] ، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 7]. فإن الرفق كمال الإسلام لقول النبي ﷺ: «إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه»⁽⁵⁾ وقوله أيضاً «من يحرم الرفق يحرم الخير كله»⁽⁶⁾.

و قد يتبادر إلى أذهاننا السؤال: هل يعني الاعتدال الميوعة والتساهل والسطحية؟ والإجابة تكون: إن الاعتدال سمة العقيدة الإسلامية بصفة عامة، وهو من أبرز ما يميزها بعد التوحيد، والقرآن والسنة يدعوان إلى طلب القصد والاعتدال في التدين والبعد عن أي ظهر من مظاهر الانحراف والغلو، بل إن المسلم مطالب بالاعتدال بكل معانيه وفي شتى صورته، وعدم مجاوزة

(1) -أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند أنس بن مالك ، قال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن بشواهدة ، مؤسسة قرطبة، القاهرة، دط، دت، ح 13074، ج13، ص 198.

(2) -أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوفاق، باب القصد والمداوة على العمل ح 6464، ص 757.

(3) -أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمة الله ح 6786، ص 790.

(4) -أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ح39، ص15.

(5) -أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق، ح 2594، ص661.

(6) - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق، ح 2593، ص 661 بنحوه.

العدل لأن ذلك يؤدي بالإنسان إلى الظلم، وقد سعى الغزالي إلى غرس هذا المفهوم الصحيح وهو يحارب ظاهرة الغلو والتطرف الديني المعاصرة.

محاربة الغزالي الغلو والتطرف:

حارب الغزالي ظاهرة التطرف الديني المعاصرة، والتي يعاني منها العالم الإسلامي والعربي، إذ تميزت في بدايتها بالتزمّت الفكري والتشدد الديني، حتى اتخذ أنصارها مواقف دينية وسياسية واجتماعية، أسفرت عن عدائها للمجتمع ومؤسساته فاعتزلته وقاطعته، مما يمكن القول بأن المذاهب السياسية التي ظهرت في التاريخ الإسلامي الأول قد شكلت قوى مضادة للخلافة، تمثلت في الخوارج والشيعة على اختلافهما الجوهري.

كما انتقد الغزالي بشدة التشدد الديني، والذي يتجلى في الالتزام الحرفي للنصوص الدينية، والوقوف عند ظاهرها، دون مراعاة للمقاصد العامة للإسلام عقيدة وشريعة، ودون الالتفات لأسباب التزول أو المعرفة بالأصول اللغوية أو الفقهية، حيث لاحظ الغزالي أن هذا الفهم قد نتج عنه: قصور في الفهم الناتج عن قلة العلم بالدين وأسراره.

-العنف من أجل تحقيق الأهداف وتبرير ذلك بتأويلات تعسفية للنصوص.

-تكفير الناس واستباحة أموالهم ودمائهم، وقتل المخالفين والغلبة في المعاملة ودمائهم.

-تناقضات ومفارقات بين الاعتقاد والعمل والسلوك.

و لقد سعى الغزالي لعلاج هذا التطرف بمنهج الاعتدال والنضج الفكري، ودقة النظر وبعده، وسعة العلم، جاعلا في ذلك مرجعيته الأساس : الكتاب والسنة

و يوضح الغزالي أن الآيات الكريمة تنهانا عن الغلو في الدين كما غلوا أهل الكتاب، فاليهود غلوا في عيسى عليه السلام حتى قذفوا مريم، وغلوا النصارى فيه بأن جعلوه ربا، وقد كان كثيرا ما يستشهد في هذا الصدد بقول الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة لا تركب ذلولا ولا صعبا⁽¹⁾

و لقد روى ابن عباس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: « إياكم والغلو فإنما هلك من قبلكم بالغلو في الدين » فالحديث يتضمن التحذير الشديد من الغلو في الدين أيضا وروى أبو يعلى في مسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات »⁽²⁾ وقال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾⁽³⁾.

وفي السنة حارب الرسول صلى الله عليه وسلم كل أشكال التطرف والغلو في الدين وأنكر على كل من بالغ من صحابته رضي الله عنهم في التعبد والتشف، مبالغة تخرجهم عن حد الاعتدال الذي جاءت به التعاليم الإسلامية، والتي وازنت بين الروحية والمادية.

وبالتالي فإن الإسلام وسط في الاعتقاد والتعبد والأخلاق والسلوك، والمعاملة وحتى في التشريع، وهذه الوسطية تعد إحدى الخصائص العامة للإسلام كما سبق ذكره - فكيف لا يكون الغلو خروج عن هذا الدين؟.

و في تفسير الغزالي لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق...»⁽⁴⁾ يقول معنى الحديث أن لا يكلف المسلم نفسه في أعماله الدينية ما يخالف العادة بل يتدرج بتلطف ولا ينتقل دفعة واحدة إلى التطرف الأقصى من التبذل، فالطبع الإنساني نفورا ولا يمكن نقله عن أخلاقه الرديئة إلا شيئا فشيئا حتى يتخلص من تلك الصفات المذمومة التي رسخت، ومن لم يراع

(1) - لم أقف على قائله، وقد أورده القرطبي في تفسيره ولم ينسبه لأحد. انظر: الجامع لأحكام القرآن، أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، (1324هـ-1904م)، ج6، ص21.

(2) - أخرجه أبو بعلي الموصلي أحمد بن علي بن المتني في مسنده، مسند أبو سفيان بن علي، ح 3694، دار المأمون للتراث، دمشق، (1404-1984)، تحقيق سليم أسر 365/6.

(3) - سورة الحديد، آية: 27.

(4) - رواه الإمام أحمد في مسنده، (سبق تخريجه).

التدرج، وتوغل دفعة، فتنعكس أموره فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا⁽¹⁾.

والترفق هو أحد أهم الأسس التي يقوم عليها مفهوم الاعتدال حيث أن طبيعة الترفق تعني الاعتدال مع النفس ومع غيره، وهو الممارسة بالحسنى لقوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾⁽²⁾ ويقول الله عن ترفق الرسول: ﴿فِيمَا رَحِمْتَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِكَ فَتَمُوتَ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾⁽³⁾ والغزالي ممن يمثلون منهج الترفق ويدعون إليه.

إلا أنه هناك ملحوظة مهمة ينبغي الإشارة إليها، وهي أن الترفق والتسامح ليس معناه التهاون أو التفریط، فشتان بين هذا وذاك، فلم يدفع إلى مثل هذا التخبط الحادث في مجال الفكر الإسلامي، من تخطئة بعض الفرق لبعضها، أو تكفير بعضها لبعض، سوى غياب الترفق والتسامح وشيوع روح التنافر مما أدى إلى تشتت الأمة إلى فرق.

و يشير الغزالي إلى أن الترفق يتضمن التيسير والتخفيف عن الناس ورفع الحرج وهذا منهج القرآن لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾⁽⁴⁾ وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾⁽⁵⁾، فكل هذه النصوص وغيرها تدعو إلى التخفيف والتزام التيسير ونفي الحرج، والتعسير على الناس، ومعنى السداد الذي جاء في الحديث الشريف - كما سبق ذكره - هو الصواب بلا إفراط ولا تفریط، باعتدال وتوازن، كما دعا الحديث إلى عدم التعمق حتى في العبادة وترك الرفق، كما فعل الرهبان في الصوامع، إذ أن كل إفراط يؤدي إلى الملل.

و قد جاء في تفسير المنار الآية الكريمة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ

(1)-محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية، مصدر سابق، ص95-96.

(2)-سورة النحل، الآية: 125.

(3)- سورة آل عمران، آية 159.

(4)-سورة الحج، آية 78.

(5)-سورة النساء، آية 28.

أَعْسَرَ ﴿⁽¹⁾ يريد الله فيما شرعه من هذه الرخصة في الصيام وسائر ما شرعه لكم من الأحكام، أن يكون دينكم يسيرا تاما لا عسر فيه... ذلك بأن الله لا يريد إعنات الناس بأحكامه، وإنما يريد بهم اليسر، وخيرهم ومنفعتهم، وهذا أصل في الدين⁽²⁾، فقد جعل الله للناس من خلال ذلك الوسطية ميزانا ضابطا للعبادات:

الميزان الضابط للعبادات

يشير الغزالي إلى أنه في العبادات لابد من اعتدال، ومميزات يضبطها حتى تثمر في السلوك، وفي النفس، فتحقق بذلك الإيمان بالله قائلا: "الفرائض المكتوبة تشبه الوجبات التي يتغذى بها البدن، لا بد من احتوائها على عناصر متنوعة، وقد يمرض الجسم لأنه استكثر من عنصر وحرّم من عنصر آخر"⁽³⁾، فلا بد من التوازن بين الإكثار والحرمان في الأكل.

كما تناول الغزالي حديث انس بن مالك -بالتحليل- أن ثلاثة نفر جاءوا إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادته فلما أخبروا بها، كأنهم ثقألوها... وقالوا: أين نحن من النبي؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا... فجاء الرسول ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر وارقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»⁽⁴⁾.

يقول الغزالي بعد التأمل في هذا الحديث أن هؤلاء الثلاث تدينهم ناقص، وأنهم سلكوا طريقا يهدم الحياة ولا يبنّيها ويتساءل هنا: ما ذا تكسب الدنيا من رجل ترهب واعتزل النساء؟ إلا أن تنقطع عنده سلسلة الحياة من ذرية آدم فلا أثر ولا عقب، وقد تكون معاناة في تربية ولد أركى عند الله وأربى له في الدنيا من هذا الحرمان ثم يضيف وماذا يكسب الصائم الذي أعجز

(1) - سورة البقرة، آية 85.

(2) - محمد رشيد رضا: تفسير المنار، مرجع سابق، ج2، ص 164.

(3) - محمد الغزالي: كنوز السنة، دار الهدى للنشر، الجزائر، دط، ص 43.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب: الترغيب في النكاح، ح 5063، ص 615.

نفسه عن الكدح والجهاد؟ وإن قدرته على مقاومة الباطل وهو شبعان أشرف له وأنفع من عجزه على الكد وهو محروم، وهذا الذي لا ينام الليل. هل ينام النهار ويترك العمل لغيره؟ إن هؤلاء الثلاثة مثال للقصور العقلي، واضطراب للمنهج القرآني، ومثال لسوء فهمهم للحياة، ومثال للفشل في استغلال أسرار الكون واكتشافها⁽¹⁾.

فإذا كان هؤلاء الثلاثة يريدون الآخرة، بزهدهم في هذه الدنيا فإن منهج الإسلام هو الاعتدال بين الدنيا والآخرة كما سيأتي الحديث عنه.

فهذا التدين كما يبين الغزالي الجامع في ناحية، المنكمش في أخرى يفقد الميزان الضابط

للحقائق⁽²⁾، والذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾⁽³⁾ ويخلص الغزالي إلى القول بأن الغلاة والمتطرفين لا يعدلون مع أنفسهم ولا مع الناس، حيث أن الإسراف في العبادات يتبعه غالباً قصور في فهم الدنيا وتطويع علومها وخيراتها لخدمة الدين، وهذا ما جعل الخوارج قديماً وأشباههم في عصرنا ابعثوا الناس عن الطب والهندسة والاقتصاد والسياسة، ولذلك لم تصح لهم سلطة ولا بقيت لهم دولة⁽⁴⁾ وبالتالي فعندما يكون الكفر أقدر على قيادة الحياة من الإيمان، فقد ضاع الدين، ولم يغن ركوع ولا سجود، بيد أن العقيدة الصحيحة المعتدلة في سلوكها هي التي تبني الدنيا والدين.

و يؤكد الغزالي أن النبي ﷺ كان يكفكف من إغراق بعض أصحابه في العبادة وفي تلاوة القرآن، لعل ذلك رحمة بهم، وخشية عليهم، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة: «قال من هذه؟ قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها قال: «عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا وكان أحب الدين إلى الله ما داوم عليه صاحبه»⁽⁵⁾.

(1) -محمد الغزالي: كنوز من السنة، مصدر سابق، ص 43-44.

(2) -المصدر نفسه، ص 43.

(3) -سورة الحديد، آية 25.

(4) - محمد الغزالي: كنوز من السنة، مصدر سابق ص 44.

(5) -أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: أحب الدين إلى الله عز وجل أدومه، ح 43، ص 15.

فرغم أن الالتزام بالعبادات لها أثرها على تصحيح العقيدة، وزيادة الإيمان، فإن الله أمرنا بالتوسط فيها والمداومة عليها، وهذا تبعا لفطرة الإنسان، وطبيعته التي خلقها الله عليها وهو الأعلم بما عز وجل.

و في مجال المعاملات والسلوك الإنساني يرى الغزالي تبعا لطبيعة الإنسان، من حقه أن يتألم ويحزن إن نزلت به مصيبة، ومن حقه أن يفرح إذا جاءته نعمة، فتلك طبيعة الحالين، وعمل العقيدة هنا أن تكفكف الحزن فلا يتحول قنوطا وسخطا، وأن يكفكف الفرح فلا يصير عربدة وبطرا وغرورا⁽¹⁾.

و في هذا الصدد يستغرب الغزالي لأحد الصوفية عندما سأله صاحبه عن حاله فأجابه: نصبر على البلاء، ونشكر على العطاء فاحقر الصوفي هذه الإجابة وقال: تلك حال الكلاب عندنا " أما نحن فنفرح بالبلاء فرح أحدكم بالعطاء... ويعلق الغزالي على هذه الإجابة قائلا: وعندي أن هذا تزوير على الطبيعة، وكذب على الفطرة - فإن رسول الله وهو خير الناس - حزن لموت إبراهيم، ويعقوب عليه السلام حزن بضياح ولده يوسف عليه السلام، فأبي منطق يطالب الناس -لكي يرتفع تدينهم - أن يفرحوا بالبلاء؟ إن الضغط على الطبيعة البشرية جعل البعض يخيل لهم أن محبة الجمال في آيات الكون نزعة تخالف التقوى والإيمان الصحيح، فأعرضوا عنه⁽²⁾.

و مما سبق تبين لنا عند استقراءها أن آيات القرآن الكريم، نجد أن التوجيهات الأخلاقية فيه تتظافر مع غايات العبادات وأهدافها، لإصلاحها وضبط وتوجيه سلوك الإنسان مما يتفق وأهداف العقيدة الأولى في الحياة، ولذا كانت عقيدة التوحيد هي المثل الأعلى في التوازن والاستقامة والاعتدال، فكل غلو في العقائد أو في العبادات فهو مزلقة على الخروج عنها، فكم من مبالغة ضاعت فيها الحقائق، وثبت بها الباطل، وذلك أن كل تطرف يولد التطرف نفسه والغلو يستتبع

(1) -محمد الغزالي: الإسلام والطاقت المعطلة، الزيتونة للإعلام، باتنة، دط، دت، ص 47.

(2) -محمد الغزالي: الإسلام والطاقت المعطلة، مصدر سابق، ص 47.

الغلو، والفكر المتطرف يجر التحلف لأنه يخالف ميراث الشرع وحكمه⁽¹⁾.

ونحنم بالحديث عن العنف الذي تعرض له الغزالي في مشواره الفكري والدعوي، ورغم أنه يمثل بسلوكه النموذج الإسلامي الصحيح للاعتدال يقول: "لا أستطيع أن أقول أن حياتي قد مضت هادئة برغم هذا الاعتدال، فقد اعتقلت بحي جيل الطور قبل الثورة، وسجنت في سجن طرة أيام جمال عبد الناصر، ثم طردت أيام السادات إلى حد ترك عملي في وزارة الأوقاف، وخطبة الجمعة في مسجد عمر بن العاص، ولكني أستطيع الآن أن أتكلم بكل حريتي دون أن أجد المضايقات التي كنت اشعر بها من قبل"⁽²⁾.

ولقد اتهم الغزالي عندما كان في الجزائر بالتطرف والعنف مهمته في هذا البلد، هو مقاومة التطرف والغلو، وبذر بذور الاعتدال والتسامح والحوار بالعقل والفكر مع الشرع والنقل، فقد كان يغذي الناس بالغذاء الروحي الصحيح، والأدب الإسلامي الرفيع.

ولعلّ سماحة الغزالي واعتداله لم يكن إلا تعبيراً عن الفهم الدقيق الصحيح لعقيدة الإسلام، ووسطيته في عبادته ومعاملته وعن الإدراك العميق لقيّمته العليا، وهي التوحيد والعمران وحتى الخلق، مع الفقه المستفيض لمعيار الإسلام، وهو الوسطية التي انبثق منها الاعتدال.

وعليه فإن الغزالي قد أدرك أن الاعتدال في الفكر مقوم بقاء وعنوان استمرار، لأنه يوافق الفطرة الإنسانية السليمة، فضلاً عن كونه موافقاً لصحيح العقيدة، بينما يمثل الغلو دوائر منغلقة مقطوعة الصلة، لأنها التمسّت من البعد عن الحق والاعتدال منهجاً نظنه أنه السبيل إلى الحق وهي

متجاوزة له لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾^(١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ

يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا^(١٠٤) ﴿٣﴾، وبهذا المنهج الوسط سعى الغزالي إلى الربط بين العقيدة

والشريعة.

(1) -محمد الغزالي: الطريق من هنا، مصدر سابق، ص 85.

(2) -نصر الدين لعرابة، الشيخ الغزالي حياته وآثاره، مرجع سابق ص 76.

(3) - سورة الكهف، الآيتين: 103-104.

المبحث الثاني: الربط بين العقيدة والشريعة

المطلب الأول: نقد علم الكلام القديم

إن المهمة التي حددتها العقيدة الإسلامية والتي من أجلها وجد، الإنسان، وكلف بتحقيقها مند خلق آدم ﷺ إلى يوم الساعة، هي الخلافة في الأرض لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ⁽¹⁾ ﴿١﴾ محققا بذلك عبودية الله، وهي الغاية من الخلق لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ⁽²⁾ ﴿٢﴾، ولقد أعد الإنسان إعدادا كاملا، وكرم تكريما طيبا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ⁽³⁾ ﴿٣﴾ حتى بحسن التعامل في الكون فيحقق التعمير فيه.

فالدين الإسلامي عقيدة وشريعة، وموقع العقيدة الإسلامية من مجموع البنية هو الأساس الأول الذي لا بد منه، إذ منها تتفرع باقي التشريعات والأخلاق، فهل تمثلت هذه المعاني في الفكر العقدي للغزالي؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه في هذا المبحث.

تعريف العقيدة:

لغة: من العقد: هو الربط والشدّة بقوة منه الإحكام والإبرام والتماسك والمراسة والإثبات والتوثق⁽⁴⁾.

في الاصطلاح: كلمة العقيدة لم تكن موجودة في الكتاب والسنة ولا في أمهات المعاجم، وإن أول من تم الوقوف على ذكره لجمعها عقائد هو القشيري⁽⁵⁾ سنة 437 في كتاب الرسالة

(1) -سورة البقرة، أية 30.

(2) -سورة الذريات، أية 56.

(3) -سورة الإسراء، أية 70

(4) -ابن منظور: لسان العرب المحيط، دار لسان العرب سوريا، ط د ت، ص 295.

(5) -هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن عبد الملك القشيري صاحب الرسالة، أخذ الفقه وأتقنه وأخذ الأصول على ابن فورك

والأستاذ أبي إسحاق (377-465)، أنظر تاريخ بغداد: ترجمة ص 5763.

وهي كلمة مولدة لم تكن في الصدر الأول.

وأصول العقيدة التي أمرنا الله باعتقادها وهي التي حددها الرسول ﷺ في سنته وفي حديث جبريل عليه السلام قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره»⁽¹⁾.

أما الشريعة: فهي كل ما سنه الله لعباده من الأحكام الإعتقادية والعملية والأخلاقية.

و لم يختلف مضمون العقيدة الإسلامية منذ بعثة آدم - عليه السلام - إلى بعثة النبي ﷺ

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾⁽²⁾.

و من ثمة كانت قضايا العقيدة واضحة وواحدة في دعوة كل رسول، لكن تشريع لكل نبي، يختلف باختلاف الزمان والمكان.

و لقد برزت علاقة التكامل بين العقيدة والشريعة في القرآن الكريم، فلا استغناء لمحور عن الآخر، فالآيات التي تتحدث عن اليوم الآخر وبعث الإنسان - قضايا عقائدية - توجه الإنسان وتقوم سلوكه وأخلاقه، وتحسن عمله، والآيات التي تتحدث عن التوحيد تعلم الإنسان الإحسان إلى غيره، ومعاملتهم بالحسنى كما سيأتي الحديث عنها في الفصول اللاحقة.

و يؤكد هذا المعنى في التكامل والترابط عبد المجيد النجار، بقوله بأن العقيدة والشريعة وجهان في الدين لعملة واحدة، لا يمكن الفصل بينهما، فأحكام الشريعة هي الوجه العملي لأحكام العقيدة⁽³⁾.

(1)-أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام، رواه مسلم، كتاب الإيمان، ج 50، ت محمد فؤاد عبد الباقي، ت: أحمد محمد شاكر دار ابن الهيثم، ط 1: 1425-2004م ص 16.

(2)-سورة الشورى: الآية 13.

(3)-عبد المجيد النجار المقتضيات المنهجية لتطبيق الشريعة في الواقع الإسلامي الراهن، ديار الأزهر، الجزائر، دط، دت، ص

و لقد سلك القرآن الكريم في بيان قضايا العقيدة (الإيمان)، منهج كمال العقل والوضوح والبساطة في إطار الفطرة لتحقيق مقاصده في الإنسان والحياة، وبذلك تميز الخطاب القرآني في بداية عهده بتركيزه على بناء القاعدة الإيمانية أولاً، وبعد أن استتب الإيمان وتحقق في نفوس المسلمين، جاء الخطاب القرآني بالأوامر التشريعية فكانت استجابة الصحابة آنية وتلقائية له عقيدة وشرعية⁽¹⁾، وبنوا بذلك أسس الحضارة الإسلامية ونشروا الإسلام في بقاع الأرض.

و المتتبع لنصوص القرآن والمستقرئ لها مع السنة النبوية، لا يمكن أن يصل إلى غير الإقرار بالصلة الوطيدة والوثيقة بين العقيدة والشرعية إيماناً (اعتقاداً) وعملاً.

إلا أنه عند الرجوع إلى التراث الفكري العقدي والفقهي، والنظر إلى ما آل إليه وضع الأمة الإسلامية من تقصير في أخذ أحكام الدين، وتفريط في جوانبه العملية، وتراجع حضاري بشكل عام، كما يقرره الغزالي أن المسلمين الأوائل ما حققوا أرقى مظاهر الحضارة الإنسانية إلا لأنهم أخذوا هذا الدين كلا متكاملًا، فلم يجزئوا أو يفصلوا بين نصوص القرآن، ولما حدث الخلل في فهم هذه النصوص آل الوضع إلى ما هو عليه، فحدث أن سرعان ما تحولت العقيدة إلى تطاحن فكري، وجدل كلامي بفعل ظهور الفرق الإسلامية، والمدارس الكلامية، بعد أن بدأت بسبب وضحة تخاطب الفطرة والعقل معا⁽²⁾.

و في هذا يقول الغزالي " أريد أن أقف وقفة تأمل في هذه القضية، أنه من فضل الله على سلفنا الأول أنه لم يتعثر في بحوث ما وراء المادة، ولم يحاولوا استنكاه الغيبات بل كان جيلاً مستقيماً سوى الفطرة، أحسن علاقته في العبادة الخاشعة وأحسن علاقته فيما التزمه من خلق حسن وعدالة مطلقة، وقد أعانه ذلك على إبلاغ رسالة الإسلام، فشرق وغرب، وتآلق وتأنق، واندكت أمام عزماته الصعاب والعقبات، ولو أنه اشتغل بالفلسفة اللاهوتية والمناظرات الكلامية، ما خرج من جزيرة العرب، بل لأرسلت له فارس والروم كتيبة من كتابها تركته شدر مذر بين

(1) -حجية شيدخ: الوصل بين العقيدة والشرعية، رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة،

2004/2003 ص 2.

(2) -محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 8.

الرمال والتلال⁽¹⁾.

وفي هذا يرى الغزالي أن علماء الكلام حين شغلوا أنفسهم، وشغلوا الناس معهم بمعرفة حقائق الدين الغيبية، وأخرجوها من دائرة القلب والتطبيق ليعرضوها على دائرة الفكر، ومن دائرة اليقين إلى دائرة الجدل العقلي، فلم يقدموا لنا حلولاً يطمئن إليها العقل والقلب، لكل ما أثاروه من مشاكل فحسب، بل أنهم أضعفوا أيضاً بجدلهم قوة الإيمان (التيدين) واليقين القلبي عند الخاصة والعامة من الناس.

و الجدير بالملاحظة هنا أن ظروف نشأة علم الكلام من جحيم السياسة وتطاحن الأحزاب المختلفة، كان لها أثر سيء في عرض حقائق الإسلام وصوغ دقائقه، فكان الخطر على الإسلام من صميم دياره، إذ أن ربح هذا الجدل ما تزال تهب من بعض الجماعات التي تدعي خدمة الإسلام، إلا أنه كما يقول الغزالي: "من الغفلة أن نحسب تكوين العقيدة يتم في مجلس مناظرة تتصيد فيها ويشد الغلب ويلعب فيها بالألفاظ أو يشغل منطق أرسطو في المجادلة وإيقاع الخصم أمام العامة"⁽²⁾.

فالذي يقرأ شيئاً عن عقيدة المسلم في "علم الكلام"⁽³⁾ لا يسعه إلا أن يسجل ملاحظات هامة حول المسائل التي خاضها فيها، والمجادلات التي دارت بينهم، والنتائج التي تمخضت عنها مناظراتهم، الأمر الذي أثر على إيمان الخاصة والعامة.

و في هذا يقول الغزالي عن علم الكلام "أنه نظري بحث ترتبط فيه المقدمات بالنتائج كما تصنع الآلة الحاسبة لكن في الحقيقة أن عقيدة المسلم تخاطب العقل والقلب، وتستشير العاطفة والفكر وتوقظ الانفعالات النفسية والقوى الذهنية"⁽⁴⁾.

(1) - محمد الغزالي: دستور الوحدة الإسلامية، مصدر سابق، ص، 111، 112.

(2) - محمد الغزالي: عقيدة المسلم مصدر سابق ص 4-5.

(3) - علم الكلام: يعرفه العلماء أنه "العلم الذي يعرف به إثبات العقائد الإسلامية بإثبات الحجج ودفع الشبه - وهو التعريف الشائع بين العلماء - أنظر: الموافق في علم الكلام، القاهرة، توزيع مكتبة المتنبى دمشق مكتبة سعد الدين، القاهرة ص 7.

(4) - محمد الغزالي: المصدر السابق، ص 3، 4.

و في قراءاته لكتب علم الكلام، لاحظ أن هذه الشروحات والاستدلالات العقلية هي عبارة عن ترويض للعقل دون الفؤاد، فبقدر قدرتهم على الاستدلال العقلي لوجود الله مثلا، بقدر ما لا نجد استشعارا في قرارة نفسه بعظمة الله.

فعلم العقيدة القديم (علم الكلام) في نظر الغزالي، لم يعد يواكب التحديات المعاصرة من حيث المضمون والشكل، وذلك عندما تحول إلى علم يغلبه طابع الجدل. وقد نجده يتفق مع غالبية علماء العصر في النظر إلى التراث العقدي، باعتباره كان له دورا في تراجع الحضارة الإسلامية، فبعد أن كان منهج المتكلمين - كما يصفه الغزالي - يتميز بطغيان الجدل والتعصب للرأي، كان للسياسة دور كبير في تغذيته أيضا.

و لعل الخطأ الذي وقع فيه علماء الكلام في تحليلاتهم حتى أصبح مجردا بعيدا عن الواقع هو ما يقول عبد الحميد النجار: "وبما أن حقائق العقيدة لا تتجاوز نطاق العقل فإن المتكلمين لم ينتجوا علما شارحا بل اتجهوا إلى الإثبات، والردود: الإثبات لحقيقة العقيدة والرد على من طعن فيها بعيدا عن الخوض في كيفيات المسائل... والسبب أن القرآن الكريم شديد الإلحاح على استعمال العقل للإيمان وهو ما جعل همّة العقول في علم الكلام، لا تتجه إلى تفسير المسائل في ذاتها وتحليلها، وشرحها باعتبار أن ذلك لا يستعصي على العقول فهمه، إذ هي معقولة خاضعة لسلطان العقل، وإنما اتجهت لإثبات وجودها بالأدلة عليها أو برد الاعتراضات"⁽¹⁾.

وإنه مع تقديرنا وإكبارنا للجهد الكبير، والمخلص الذي بذله علماء الكلام في إرساء قواعد منهج عقلي مستنير في الإسلام ودفاعهم عن دين الحق، وعقائده ومرتكزاته الخلقية، وأنهم لم يفعلوا ذلك طلبا للفتنة وإثارة للخلافات أو سعيا وراء صور لا طائل لها، فعلم الكلام كما قال أبو حامد الغزالي في فضله: "علم الكلام مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة، فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله، عقيدة هي الحق على ما فيه من صلاح دينهم ودنياهم، ما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة

(1) -عبد الحميد النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، دار البعث الإسلامي، بيروت ط 1، د ت، ص 101.

أمورا مخالفة، فلهجوا بها، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها، فأنشأ الله طائفة المتعلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف تلبيسات أهل البدعة المحدثه على خلاف السنة الماثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله"⁽¹⁾.

و الغزالي لا ينكر إيجابيات هذه الثقافة ودلالاتها على مدى الحرية التي أتاحتها الإسلام لأتباعه، ومدى اتساع دوائر العقل الإسلامي فيها، إلا أن الخوض في النقاشات الجدلية التي تثار في مسائل كبيرة بين العوام، لا يجنى من ورائها بمنهج المتكلمين إلا التفرقة، مثل الخوض في حقيقة الاستواء والكلام، وهنا يذكر الغزالي بعض المواقف له فيقول: "ولقد حامرني الأسى من بضع سنين وأنا ألمح بين العوام بقايا الانحرافات الذهنية في تصور العقائد وتلقي معارفها، فقد اشتبك بعض البوابين والبقالين في أحد مجالس العلم حول تفسير استواء الرحمن على عرشه، وبذلت جهدي في إطفاء هذا الحوار السخيف، وطالبت الحاضرين ألا يقفوا عند هذه الآيات وأشباهها وقفة استقصاء وعمق فذلك لا طائل تحته"⁽²⁾.

وبجوره يقر الغزالي أن علم الكلام قد تولد عنه مشاكل عاشها القدماء، ولا تزال تنخر في أمتنا إلى يومنا هذا فقد سيطر الفكر الإرجائي⁽³⁾ عندما نوقشت مسألة ارتباط العمل بالإيمان، واستفيد من ذلك ترك العمل، وعندما نوقشت مسألة الفعل الإنساني استفيد منها لدى العامة أن الإنسان مجبور لا مخير، فتسقط بذلك الهمم وتضعف العزائم.

و لذلك حارب الغزالي الفهوم الخاطئة التي حاولت تجريد الإسلام من مضمونه السياسي والاجتماعي والاقتصادي لتجعل منه مجرد نظرية في الوجود، لا علاقة لها بالواقع، دون أن يغفل تلك الفهوم والمحاولات الرامية إلى التوفيق بين الإسلام والحضارة الغربية باسم المدنية والتحضر والتقدم، أو تلك التغييرات التي أرادت أن تجعل من الدين علاقة الفرد بربه فقط لا علاقة له بما

(1) -عرفان عبد الحميد فتاح، منهج المتكلمين دراسة وتقييم، مجلة إسلامية المعرفة ، العدد 8، 1417هـ-1997م، ص 102-103.

(2) -محمد الغزالي: كيف نفهم الإسلام، دار الكتب الحديثة، مصر، دط، دت، ص 114.

(3) -سيأتي الحديث عنه.

شرع الله من عمل أو أحكام- كما سيأتي الحديث عنه-، مما يدل هذا الوعي على نظرة الغزالي الشاملة للإسلام والرافضة للتجزئة سواء على مستوى العقيدة أو العمل بها. ولذلك يقرر الغزالي أن علم الكلام (علم العقيدة) وعلم التصوف هما المسئولان عن التخلف الذي أصاب المسلمين فإذا هم بين رجل يقف بإيمانه عند مستوى النظريات المتجددة، يترجمه في سلوكه أو رجل يتحرك يدافع من العاطفة لا يضبطها شرع ولا يحكمها عقل ولا وتثمر عمل.

فالعقيدة الإسلامية عندما فقدت ببساطتها وسهولتها وواقعيتها، انقطعت الصلة بينهما وبين الشريعة، وبين التصور والسلوك، والإيمان والعمل، وبالتالي نتج عن ذلك عزوف المسلمين عن هذا الفقه الجرد واللجوء إلى التصوف الذي انخرفوا به عن الطريق السليم، فتوجه عامة الناس إلى نبذ العقل، وكل عقلانية أو تعقل، فانتشرت بذلك البدع والخرافات في المجتمع وأصاب الأمة، الفرقة والتشتت والتخلف.

و بلغ الانحطاط قيمته حين توقف الاجتهاد وأصبح كل ما يؤلف تقليد لكلام السابقين، فاشتغل العلماء بشرح المتون ووضع الحواشي عليها ولعل من أسباب تدهور العلوم الفقهية إلى جانب التقليد، العصبية التي فرقت بين المذاهب والقرآن والسنة كمرجعين أساسيين. فانصرف بذلك الفقهاء إلى الدفاع عن المذهب والسعي إلى التغلب على المخالف، فأصبح القرآن لا يوظف إلا كفرع لتقوية الرأي المذهبي وليس هدفا في حد ذاته.

و لذلك فإن الفكر العقدي بصورته القديمة، وبإهماله الناحية العملية، وتجاوز العلوم الفقهية الأبعاد العقدية أدى كلا منهما إلى الفصل بين العقيدة والشريعة، الأمر الذي أدى أيضا إلى إقبال كثير من المسلمين على التصوف السليبي والتدين المغشوش.

إلا أن التصوف كان في بدايته يهدف إلى ترقية الحياة الروحية للإنسان المؤمن ولكن بعدما انخرق كان سببا قويا في الفصل بين العقيدة والشريعة إذ ساهم في ما آل إليه وضع المسلمين من تصور في فهم صلة الدين بالدنيا، وقد سعى الغزالي في إصلاح هذا العلم وتقويمه كما سيأتي ذكره.

وينتهي الغزالي إلى القول بفشل علم العقيدة في أداء رسالته شكلا ومضمونا، فمن ناحية الشكل لا معنى له البتة لعرض علم ما، في توزيع مضطرب بين متن وشرح وحاشية وتقرير، أما جوهر العقيدة فقد طغى على عرضه الفكر الواحد متمثلا في الفلسفة اليونانية فكادت أن تتيه

العقيدة. وسط هذا الركام من النقول والأقبية والمصطلحات، فوجب تجمعهما في نسق متقارب ثم غرسها في الأفئدة حتى تؤتي أكلها ومقاصدها المرجوة شرط عرضها بأسلوب الإسلام⁽¹⁾.

إلا أن الغزالي يرى من الموضوعية والإنصاف أن لا تعلن الرفض التام لعلم الكلام على أنه لا فائدة فيه بل لا بد من بعث هذا العلم من جديد لمواجهة التحديات الفكرية المعاصرة، ولا يتم ذلك إلا ببناء هذا العلم على أسس من تحليل للواقع الفكري في العصر الحديث والاعتماد على أساليب الإقناع والكفاءات الجادة المستمدة من القرآن والسنة حتى لا يتباعد مفهوم العقيدة عن العمل بها، كما لا ينكر عبد المجيد النجار أيضا في موقفه الدور الذي قام به علم الكلام في الدفاع عن العقيدة الإسلامية طيلة قرون سبعة مضمونا وأسلوبا، قبل أن يؤول إلى الجمود لأسباب تاريخية وذاتية واجتماعية وثقافية⁽²⁾.

فلقد واجهت العقيدة الإسلامية التحديات بشدة وتركيز بعض القضايا العقدية الأساسية منها: الألوهية والنبوة وإنكار البعث وكان القصد منها محاولة التشويه بشتى الأساليب فشكل ذلك خطرا ونقلها حقيقيا على العقيدة الإسلامية، في حين أن علماء الكلام كما يرى عبد المجيد النجار لم ينتجوا العلم الشارح، وإنما اتجهوا إلى إثبات العقيدة بأدلة عقلية والرد عن من طعن فيها⁽³⁾.

و الحقيقة أننا لسنا معنيين اليوم بالبحث في المشكلات الكلامية المتوارثة والتي لج المتكلمون في مناقشتها في أزمتهم، مثل مباحث القضاء والقدر، والصفات الإلهية وبيان خواص الفرقة الناحية وصفتها وجعل القرآن أزي وقديم أم حادث مخلوق؟ فتلك مشكلات كانت لها ظروفها التي ولدتها قد انقضت بقدر ما هو الواجب أن نستلهم من تراث الكلاميين العقلي والعلمي في البحث والتمحيص والدراسة وحسن الاستنباط والتمييز، ولذلك حرص الغزالي حرصا شديدا على تأصيل المعرفة الإسلامية وسعى بذلك على عرض علم الكلام عرضا جديدا يصور به عقائد الإسلام من

(1) -محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 10. انظر: محمد الغزالي: ظلام من الغرب، مصدر سابق، ص 38-41.

(2) -عبد المجيد النجار: مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص 183.

(3) -المصدر نفسه، ص 100.

القرآن والسيرة العطرة تصويرا يجذب أهل الشرق والغرب إليه، كما أنه تمنى لو أن الفقه الإسلامي وجد عارضين جددا، يقدمون قضاياها في ملفات حية، تجذبهم إليه من أعماقهم اعتقادا وعملا، ذلك أنه يرى إلى حد الآن أن الثقافة الإسلامية لا تزال في مادتها وفي عرضها وفي رجالها مأساة لا بد من معالجتها بحكمة وإلا ضاعت رسالتنا من بين أيدينا⁽¹⁾، وهذا العرض تمثل في الرؤية التحديدية لعلم العقيدة عند الغزالي وهذا انكشف عليه في المطلب القادم.

المطلب الثاني: الرؤية التجديدية لعلم العقيدة عند الغزالي:

يرى عبد المجيد النجار، بتأمله في الوضع العقدي أن هناك مشكلتان رئيسيتان تولدتا من عهد الانحطاط الذي تجمد فيه الفكر الإسلامي، وانفصل عن مجريات الواقع، ومن التحدي الثقافي والحضاري الغربي الذي واجه الأمة منذ قرنين من الزمن، وهاتان المشكلتان هما:

1- الانفصال الذي وقع بين المرجعية العقدية وبين المظاهر التطبيقية في مختلف وجوه الحياة، فالدين الإسلامي هو عقيدة تتفرع عنها شريعة تمثل التصرف الإنساني، بحيث يكون كل حكم من أحكام السلوك متفرعا من أصل من أصول العقيدة وجاريا بحسب مقتضياتها، لكن مجريات الواقع خلال هذا التخلف أو التراجع الحضاري، انتهت إلى تراخ الصلة بين أصول العقيدة ومناشط الحياة، وغدت حقائق العقيدة شبيهة بتصديقات عقبية، وضعف الشعور بغايتها السلوكية، وتقلص أثرها في مناحي الحياة، ولما انفتح المسلمون على الحضارة الغربية التقليد دون مرجعية عقدية، أصبح الواقع الإسلامي على غير هدي عقدي⁽²⁾.

أما المشكلة الثانية فهي الغزو الإيديولوجي الغربي الذي استهدف العقيدة أساسا، وظهرها السلوكية في الحياة فكان غزوا علميا، ونتج عن هذا آثارا على مستوى العقيدة وهو ما يبدو في المذهبية المادية التي تسربت إلى عقول الشباب المسلم، وفي العلمانية التي أصبحت مذهباً لكثير من المثقفين في العالم الإسلامي، وهي التي تسيطر على الخطوط التربوية والاقتصادية والثقافية

(1) -عبد الحليم عويس: الشيخ محمد الغزالي: تاريخه وجهوده وآرائه، مرجع سابق، ص17.

(2) -عبد المجيد النجار: في فقه التدين منهجا وتزيلا، دار مؤسسة أخبار اليوم، إدارة الكتب والمكتبات، خطوط ط 1، ج2،

والسياسية للأمة⁽¹⁾.

و بتتبعنا للمسار الفكري للغزالي نجد أنه ركز على هاتين المشكلتين، وقد تفتن إليهما، وسعى إلى إصلاح علاقة العقيدة بالشريعة في ظل منهج القرآن والسنة كما تصدى إلى هذا الغزو الإيديولوجي بمرجعية عقدية صحيحة، حيث نتناوله في الفصل الثالث لهذا المبحث.

لقد كان للجانب العقدي حيزا واسعا في فكر الغزالي، حيث يعود اهتمامه منذ وقت مبكر إلى أن اقتنع بضرورة إصلاح علم العقيدة وتجديده، ولا يكون ذلك حسب نظره - إلا بإعادة النظر في الموروث العقدي الذي يمكن به إصلاح اعتقاد الناس على الوجه المطلوب شرعا. كما كان الغزالي من المبادرين لهذا العمل، إذ كان له موقفا مميزا تجاه الاختلاف العقدي، والفرق الإسلامية.

فالرابط الأقوى للأمة، هو العقيدة، لكن انقلاب المفاهيم، والانحراف في العقائد بعد الغزو الثقافي والاستعمار، حول الأمة، وأبعدها عنه، إلى حد جعل الرابط العقدي فرعاً وليس أصلاً، بل صار الفرد - الإنسان - محورا، وكل ما عداه لا قيمة له، وهذا وليد النقل من الفلسفات القديمة والحديثة، الإلحادية منها والوجودية، حتى وصلت به إلى مقام التشريع.

إلا أن الغزالي يوضح من خلال كتبه، أن المعرفة في الإسلام وسيلة لغيرها، لا غاية في ذاتها، فما لا أثر له، لا يجاهد فيه، وما لا عمل وراءه لا طائل منه، أي أن المعارف لا تتناول للترف الفكري، بل لغايات عملية، فهي في الحقيقة سعي مستمر لتصفية العقائد، وتنقية القلوب وتحفيز الفرد على العمل بالإيمان والعبادة وإعمار الكون⁽²⁾، وبهذا تجاوز الغزالي مفهوم العقيدة المطروح في كتب العقائد وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية، إلى تبيان تأثيرات العقيدة الإسلامية في العمل الإنساني وفي النفس والسلوك.

فمفهوم عقيدة المسلم - عند الغزالي - ليس ترفا عقليا ولا نافلة وإنما هي فطرة الله التي

(1) -عبد الحميد النجار: في فقه التدين منهجا وتزيلا، مرجع سابق، ص 39-44.

(2) -محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، مصدر سابق، ص 138.

فطر الناس عليها، وهي حاجة ضرورية للنفس، والروح فإذا فقدت تركت في النفس والروح فراغا، ولعل هذا هو السر في ما تعانيه المجتمعات الملحدة من قلق واضطراب⁽¹⁾، بل في ما تعانيه الشعوب المسلمة من سوء فهم للدين لبعدها عن هذه الحقيقة.

و يمكن أن يعد الغزالي من الذين أدركوا عملية إصلاح⁽²⁾ لم العقيدة وربطها بالشرعية، الذي يقتضي الإصلاح النفسي والمعرفي والتربوي على ضوئها، وهذه ليست بالقضية السهلة ذلك أن صياغة الفكر والخطاب الإسلامي من جديد تستوجب فهم الخطاب العقدي بجمع صيغه، حتى يستجيب لفهم السنن والأحوال والوقائع والتحديات بعيدا عن الخرافات والتأثيرات التي تحول دون الفهم الصحيح له، وفي هذا يقول الغزالي مبينا مدى صلة العقيدة بالشرعية: "إن العبادات التي شرعت في الإسلام، واعتبرت أركاناً في الإيمان، ليست طقوساً مبهمه من النوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المجهولة، ويكلفه بأداء أعمال غامضة، وحركات لا معنى لها - كالأفرائض التي ألزم بها كل منتسب إليه من تمارين مكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة، وأن يظل متمسكا بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف⁽³⁾ وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ: «لا يستقيم إيمان المرء حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه»⁽⁴⁾.

و بتتبعنا لكتب الغزالي وحواراته نلاحظ أن صورة المسلم كان لها حضورا متميزا في فكره وسعيه لربط العقيدة بالسلوك في شخصه.

و يمكن أن نتساءل في هذا المقام. هل كان الغزالي مختلفا في فهمه لعقيدة الإسلام؟ أم أن فهمه كان توافقا مع ما دعا إليه الرسول ﷺ، وتجسد في عهده وعهد التابعين والخلفاء؟

والجواب أنه لم يعد هناك في هذا العصر، وبعد هذه القرون الطوال من التخلف سوى

(1)-محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص13-14.

(2)-وما نقصد به أن الغزالي وهو يصلح علم العقيدة ربطه بالشرعية في جميع مجالات حياة الإنسان كما سيأتي تفصيله في المبحث الموالي، وكذلك تنقية التراث العقدي من المفهوم الخاطئة.

(3)-أنظر محمد الغزالي: خلق المسلم، مصدر سابق، ص 27.

(4)-أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند أنس بن مالك، مؤسسة قرطبة، القاهرة، د ط د ت، ح 13071، ج 3 ص 198.

إدراك أن تدهور حال الأمة الإسلامية فكرا وخلقا كان سببه تلك الفهوم الخاطئة، والممارسات المشوهة التي قضت على فعالية الإسلام في الواقع، وحولت المسلم يعيش مع نفسه بعيدا عن واقعه وتاريخه.

وعليه فإن المنهج الذي حرص الغزالي على بيانه بوضوح وشجاعة، هو ضرورة فهم حقيقة هذا الدين كما يريده القرآن - بعيدا عن التدين المغشوش⁽¹⁾ كما يسميه - ومن ثم يتضح منهجه القائم على المحافظة على أصالة الفكر العقدي، الإسلامي الذي يخاطب الإنسان عقلا ووجدانا بعيدا عن المناقشات الجدلية.

ولقد دعا إلى ذلك الكثير من العلماء منهم الطاهر بن عاشور إلى الحفاظ على التراث الفكري والعقدي بنظرة وسطية - مع ضرورة تنقيته من الانحرافات والفهوم الخاطئة، وكذا محمد عبده الذي دعا إلى ضرورة الرجوع إلى منهج القرآن الكريم للقضاء على الخلافات وأخذ العقيدة الإسلامية، من ينابيعها.

و الغزالي بدوره يوافق هذا الرأي، ويبين أن الطريق إلى ذلك هو كما يقول: "إن الرؤية القرآنية لا يمكن أن تكون إلا حضارة كاملة - فأخذه على أنه مجموعة قصصه مثلا، ودراسة فن القصة على أساس أن القرآن كله قصص، لا يمكن أن يكون تصويرا صحيحا للقرآن وكذلك الأحكام الفقهية التشريعية والمعتقدات الإلاهية والآيات التي تأمر بالنظر في الكون، وآيات التربية وما إلى ذلك من تعاليم إسلامية هي متماسكة في عصاره واحدة تجمعها من أولها إلى آخرها، من المستحيل أن أنظر إلى القرآن النظرة الجزئية التي تجعلني أعيش في جانب منه، وأين الجانب الآخر؟ لا يمكن إطلاقا، أخذ جانب من القرآن وإهمال الجوانب الأخرى. والنظرة الجزئية عندما سادت الفكر الإسلامي نشأ عنها ما يشبه الجسم المشلول في بعض أطرافه⁽²⁾."

فكان إذا منهجه في الربط بالنظرة الشاملة لنصوص القرآن ودعمها بالسنة، ونسجل هنا أنه

(1) - سيأتي الحديث عنه في الفصل الثالث.

(2) - محمد الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1991م، ص 71.

لا يكاد يخلو مؤلفا من مؤلفاته، من توجيه الفهم الصحيح لعقيدة المسلم منهجا وتطبيقا لأن الإسلام هو دين عمل يؤثر الواقع على الخيال، والحقيقة على الظن، وتحقيق هذا المنهج يقتضي نزع فكرة القدسية عن مفهوم البشر التي هي وليدة ظروف معينة، وقد يتغير الفهم بتغير الظروف كما يجب الاقتناع بأن هذه الأفكار قابلة للخطأ والصواب⁽¹⁾.

و يؤكد هذا المعنى عبد المجيد النجار وهو يتحدث عن الوصل بين العقيدة والشريعة: "إنه بحث لتزليل الأحكام الشرعية الشاملة على حياة الإنسان بحيث تصح هذه الحياة مهتدية في كل شعابها بهدى الدين جارية على مقتضيات أحكامه في السيرة الذاتية وفي التعامل الاجتماعي بالمعنى الواسع، وفي التعامل الإنساني العام، وفي التعامل الكوني مع الطبيعة فضلا عن الصلة التعبدية المباشرة بين الإنسان وربّه"⁽²⁾.

وعلى ضوء هذه القنوات الفكرية، فقد اعتمد منهجه في الوصل والتحديد عامة على البساطة والوضوح، وعمق الطرح الحضاري في فقه تحليل أسباب فصل العقيدة عن الشريعة أو تحديد سبل العودة بها إلى الإسلام، وللتاريخ الإسلامي، على وجه الخصوص فيما يتعلق بالفكر العقدي مع التركيز على التغيير الاجتماعي والثقافي والسياسي كامتداد طبيعي لعقيدة التوحيد.

و لذلك كان هدف الغزالي في دراسة العقيدة ووصلها بالشريعة، هو التركيز على العقيدة كمحور يقوم على التوحيد وينبثق منه التصور الإسلامي للحياة الذي يقوم على الإصلاح والتعمير والاستمتاع بالدنيا في إطار الضوابط التي جاءت بها الشريعة⁽³⁾.

ومحاولة من الغزالي في إصلاح هذا العلم وتأصيله وربطه بالشريعة، كتب "عقيدة المسلم" وغيره من مؤلفاته⁽⁴⁾ وفيه يقول: "وقد حاولت في أثناء الكتابة عن عقيدة المسلم أن أرطب جفاف التفكير العقلي برشحات من المشاعر الحية، ولم أتكلف لذلك إلا أن أجعل نصوص الكتاب

(1)-المصدر نفسه، ص 166.

(2)-عبد المجيد النجار: المقتضيات المنهجية لتطبيق الشريعة في الواقع، مرجع سابق، ص 21.

(3)-سيأتي التفصيل فيه في المباحث اللاحقة.

(4)-كتب أخرى: مثل ركائز الإيمان بين العقل والقلب، مع الله، الجانب العاطفي للإسلام، ظلام من الغرب.

والسنة نصب عيني"⁽¹⁾.

فقد تناول الغزالي عناصر العقيدة الإسلامية بأسلوب يفتح الأفئدة ويشير مشاعر الإيمان بالله والاحترام الخالص لدينه، وهو يسوق الأصول العلمية لعقيدة المسلم، في نسق لم يألفه الناس في ثقافتنا الدينية وفي هذا يقول: " قد رأيت أن أسوق الأصول العلمية لعقيدة المسلم في نسق يخالف ما ألف الناس قراءته من هذه الأصول من ثقافتنا الدينية، لا لآتي بجديد في هذا الميدان بل نزولا على منطقتي التجارب وانتفاعا بما اكتشف في جوانب التاريخ الإسلامي من أحداث، وتوخيا للسير في هدي النصوص المجردة من الكتاب والسنة"⁽²⁾.

كما يوضح محمود شلتوت أن محمد ﷺ تلقى الأصل الجامع في عقائده وتشريع، وهو القرآن، ومنه عرف أن الإسلام له شعبتان أساسيتان، لا توجه حقيقته ولا يتحقق معناه إلا إذ أخذت الشعبتان حظهما من التحقق والوجود، في عقل الإنسان وقلبه، وحياته، وهما العقيدة والشريعة، فالعقيدة هي الجانب النظري وهو الإيمان الذي لا يرقى إليه الشك والشريعة هي النظم التي شرعها الله ليأخذها الإنسان في علاقته بربه وغيره⁽³⁾.

فلا وجود وازدهار للشريعة إلا في ظل العقيدة، والعقيدة دون الشريعة غلو لا أساس له فلم يكن الإسلام عقيدة، مهمتها تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه فقط، وإنما كان عقيدة وشريعة توجهه إلى جميع نواحي الخير في الدنيا والآخرة.

كما يذهب عبد المجيد النجار إلى الرأي نفسه عندما يقول: "إن الأحكام الشرعية شرعت كلها في إطار أحكام العقيدة، فهذه هي الأصل في الدين، وعنهما تفرعت كل التعاليم المعلقة بالسلوك"⁽⁴⁾.

و لقد حاول الغزالي تجنب أشواك الخلاف الذي يرى فيه، أن الجهل الفاضح كان أساس

(1) - محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 3.

(2) - محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 5.

(3) - محمد شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، دار القلم، القاهرة، ط 2، ط 21.

(4) - عبد المجيد النجار: المقتضيات المنهجية لتطبيق الشريعة في الواقع الإسلامي الراهن، مرجع سابق، ص 48.

كثير من المشكلات العلمية المبهمة فقد لاحظ في اختلاف المجادلين عوجا، وفي أسلوبهم عنفا، ولهذا السبب وغيره، فشلت كتب التوحيد في أداء رسالتها شكلا وموضوعا.

لذا يؤكد الغزالي على أن الخلاف بين الفرق الإسلامية كان لابد أن يبقى في نطاق الذكريات التاريخية، التي تدرس كأى تاريخ يؤخذ منه ويترك، وأن التساؤل عن صلتها بالإيمان بالله واليوم الآخر بحكم أن هذا أخطأ وهذا أصاب، فهو كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۗ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁽¹⁾، وفي هذا يقول الغزالي: وإنما نكرة التفرق في المعتقد والتحزب في أصول الديانة، ونؤثر دراسة العقائد من منهجها القرآني، ونبعها النقي كما تلتطف به الوحي الأعلى ومضرى عليه سلفنا الصالحون⁽²⁾.

و إذا تدارسنا كتابه - عقيدة المسلم - نجده قد قدم بحوث عقائدية - ميسرة سائرة في هدى نصوص الكتاب والسنة ومعززة بأصولها العلمية، حيث حاول تبيان أن العقل البشري مهما بلغ من ذروته، فإن دوائره محدودة، وعاجزة أمام حقائق ما وراء الطبيعة، من أجل ذلك وجب على المسلمين الرجوع إلى منهج القرآن واستمداد العقيدة السليمة منه، وأما مجال العقل فهو عالم الشهادة كما يقول: "التعبر في دراسة ما وراء المادة مرض أصاب المسلمين ولوى مسيرتهم العلمية ليا. شائنا، والمعروف أن الآيات المحكمة هي أم الكتاب، ومناطق التكليف الاعتقادية والعملية، وأنه على المسلمين في عالم الخلق والسلوك وعالم العقيدة والعبادة، وعالم القضاء والتشريع أن يعتمدوا على هذه الآيات المحكمة وحدها"⁽³⁾ ويضيف معلقا عن البحوث القديمة التي خاضها العقل: "إن العقل البشري أعجز من أن يفقه تحول الأغذية في جسده إلى طاقة وخلايا فكيف يريد أن يعرف كنه الألوهية واتصال الذات بالصفات؟"⁽⁴⁾

(1)-سورة البقرة آية 134.

(2)-محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية، مصدر سابق، ص114.

(3)-محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشرة، الكويت دار القلم 1983، ص 61-62.

(4)-محمد الغزالي: ثرائنا الفكري في ميزان الشرع والعقل ، مصدر سابق، ص 24. وانظر: محمد الغزالي: ظلام من الغرب،

مصدر سابق، ص61-63.

كما يذكر الغزالي في الكثير من مؤلفاته أن اللغات مثلا، من وضع البشر اخترعوها للدلالة على ما يألون من أشياء وأشخاص، ومعان مأنوسة لديهم، فإذا نقلنا ألفاظ اللغة للدلالة على ما وراء المادة، وقع تفاوت يجعل الألفاظ أقرب إلى الرمز والمجاز، وذلك نقر القول بأنه لا يوجد في الجنة من أحوال الدنيا، إلا الأسماء، لأن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر... لذلك فإذا تحدث الناس بألستهم علنا لله، أو حدثوا عنه، فلا بد أن يكون في نطاق ما أوتوا من قدرات مادية ومعنوية⁽¹⁾، ويظهر هنا جليا منهج الغزالي التمثيلي في مباحث العقائد.

وفي هذا يقول الغزالي: "لقد أحزني أن أرى نفرا من المتدينين يحسنون أركاننا ونوافل من العبادات الظاهرة، ويحسون تفاصيل كثيرة لأنواع من السلوك المشروع وغير المشروع، ولكن قواهم النفسية والفكرية أشبه بمناجم الذهب والحديد، التي تاه عنها البشر فهي مطمورة تحت ركام من الغفلة والخفاء نعم قواهم النفسية والعقلية هامة راکدة مقطوعة الصلة بالكون والحياة⁽²⁾."

و في نظره فإن الفلسفة اليونانية وما أشبهها من تخمين عقلي في الإلهيات هي حقنة مسمومة للتراث الإسلامي النظيف، إذ بعد ما تحول علم العقيدة إلى نقاش - كما سبق ذكره - ضعفت الصلة بين العقيدة والعبادة وبين العقيدة والخلق. فالتغيير مطلوب إذا لتصحيح مسار هذا الواقع، وذلك ابتداء من ذات المسلم وكيونته ولا يتم ذلك إلا بإعادة صياغة وبناء عقيدته الصافية وربطها بشريعته لتعود له هويته الإسلامية المطبقة، وذلك يكون بالبداية الصحيحة للعلاج، الذي يكمن في إتباع منهج الله وسنة رسوله، وفهمه فهما صحيحا، وهو المنهج القويم، الذي تستقيم به حياة كريمة تسد بها منافذ الشر وتفتح منافذ الخير.

و في رأي عبد الحميد النجار: "أن المشكلة اليوم ليست بعدم وجود العلاج، وإنما في عدم وجود المعالج، فالإسلام هو الدواء والشفاء ولكن كيف نستعمل هذا الدواء، ولمن نستعمله، هي المشكلة اليوم التي يعاني منها الواقع الإسلامي، فبغيباء فقهاء المجتمعات وفقهاء التربية، وفقهاء

(1) -محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 44.

(2) -محمد الغزالي: الإسلام والطاقت المعطوة، مصدر سابق، ص 48.

التخطيط، وفقهاء علوم الإنسان، وفقهاء الحضارة عامة الدين يشكلون عقل الأمة⁽¹⁾.

فالإنسان في نظره - قد خوطب بالدين لينفعل به في حياته انفعالا فيجدي به سلوكه وبذلك يكون شرعه في واقع حياته، وهذا الانفعال بالدين تصديقا عقليا وسلوكيا وعمليا؟ وهو " حس التدين " ويعد للإنسان كسب إنساني في التكيف بتعاليم دينه وفطرته، فيحقق له بذلك ترقية الذات وتزكية المجتمع واستثمار الكون بالعبادة والعمارة الصالحة، وهذا ما ظل الغزالي - في مسيرته الدعوية والفكرية - يؤكد ويدعو إليه.

و يخلص الغزالي إلى القول أن الإسلام قد أرسى التوحيد، أولا في القلوب، وجعله يمتد في دروب الحياة" دون عائق، ودور الشريعة بعد رسوخ العقيدة صوغ القوالب التي يتم فيها العمل الصالح وتحديد من أمر ونهي، وحلال وحرام، ولا قيام للشريعة إلا على مهاد راسخ من الإيمان بالله... إلا أن الجبهتان المسيطرتان على العالم الآن، تتواصيان بإهدار أحكام الله وشريعته التي تقررت في الرسالة الخاتمة، بل إن بقايا أهل الكتاب من يهود ونصارى تناسى الشرائع التي بين أيديهم لم يحمها التحريف والإهمال، فالعالم الآن يعد العلاقات الجنسية المحرمة ما دامت برضا الأطراف الآثمة، ويبيح صنوف الربا، وأنواع الخمور ولا يقر أبدا علاقة بين العقيدة والشريعة⁽²⁾.

فعقيدة التوحيد هي نظام حياة، والارتباط بالله الواحد له آثار تناول الفرد والمجتمع والدولة وفق أحكام شرعية من شأنها أن تصلح المسلم، فتجعله يذهب إلى المسجد ليسجد لله، ويبنى المدرسة ليعلم دينه ودينه، ويبنى المحكمة لتقضي بما شرع الله، ويبنى الدولة لتوجه أجهزتها وفق ما أمر الله.

المطلب الرابع: الربط بين الإيمان والعمل

تعريف الإيمان

لغة: مصدره امن يؤمن إيمانا فهو مؤمن

(1) -عبد المجيد النجار: في فقه التدين فهما وتزيلا، مصر مؤسسة أخبار اليوم، إدارة الكتب والمكتبات ج 1، ص 16-19.

(2) -محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، مصدر سابق، ص 51.

واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾⁽¹⁾.

و لم يختلف أهل التفسير أن معناه ما أنت بمصدق لنا⁽²⁾.

ويتضمن لفظ الإيمان معان لغوية أخرى نذكر منها:

الثقة: يقال أمنت أن أجد صحابة إيماناً أي ما وثقت.

الإجازة نقرأ في سورة التوبة قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾⁽³⁾.

إذا قرأت بكسر الألف الإيمان: هو الإجازة.

الأمن: آمن إنما تقال على وجهين أحدهما متعدياً بنفسه يقال أمنت أي جعلت له الأمن ومنه قيل لله مؤمن أي انه يؤمن عبادة والثاني غير متعد ومعناه صار ذا أمن⁽⁴⁾.

اصطلاحاً يراد من لفظ الإيمان في القرآن الكريم معان مختلفة نذكر منها:

التصديق قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾⁽⁵⁾ ويقول تعالى أيضاً: ﴿لَا أُولِيَّتِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾⁽⁶⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾⁽⁷⁾ وهي الطاعات التي سماها على لسان جبريل عليه السلام إيماناً وإسلاماً.

(1) - سورة يوسف، آية 17.

(2) - ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، ص

(3) - سورة التوبة، آية 12.

(4) - أبو القاسم، الحسن المفصل المعروف بالراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق وتقديم: صفوان عدنان داودي،

الدار الشامية، دار القلم، دمشق، بيروت، ط2، 1418هـ-1997م، ص110.

(5) - سورة يوسف، الآية: 17.

(6) - سورة البقرة، الآية: 43.

(7) - سورة المائدة، الآية: 5.

الشريعة: كما يظهر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ

وَالصَّادِقِينَ﴾⁽¹⁾ إذ يوصف بالإيمان كل من دخل في الشريعة مقرا لله وبنوة الرسول ﷺ.

الأمّن: لقوله تعالى: ﴿وَأَمْنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾⁽²⁾.

رغم تنوع معاني الإيمان، فإننا نود الوصول إلى بيان المفهوم الشرعي للإيمان الذي يميز الفرد المصدق بربه ورسالة نبيه صلى الله عليه وسلم عن بقية الأفراد ظاهرا وباطنا أي عقيدة وسلوكا. مفهوم الإيمان عند الغزالي:

لعل ما ذهب إليه الغزالي في تعريفه للإيمان، لا يختلف عن غيره من الإسلاميين، فهو كما يقول أنه: "اعتقاد القلب والتصديق - وهو فعل القلب - ثم إظهار ذلك الاعتقاد باللسان والتطبيق العملي لكل ما يعتقد، كما يقتضي الإيمان توحيد الله والعمل بمضامين الشريعة، فالنطق بالشهادتين بداية لما بعده من اعتقاد وعمل، لا كما تحسب الأبصار الكليّة والهمم القاصرة من أن مجرد النطق فيه الكفاية والغناء⁽³⁾، وحروف كلمة التوحيد، منافذ تقضي بالإنسان إلى ساحات رحبية، وآفاق ممتدة يشرب القلب فيها حقيقة التوحيد الخالص كلما سجد لبارئه، وبادر إلى مرضاته ونفر من مساخطه وأدى الواجب وترك الحرام، وأدراّن الشرك ليست كلمة تلوث الفم وحده حتى تظهرها جهة مقابلة ينطقها الفم، ولكن الشرك توجه الفؤاد لما دون الله وعمل الجوارح لغير الله، فإذا لم يسيطر التوحيد على القلب والجوارح ويتحول إلى قوة باعثة إلى العمل الصالح، تضعف قيمته⁽⁴⁾.

يؤكد سيد قطب هذا المفهوم للإيمان فيقول: "هو قوة دافعة وطاقة مجمعة فما تكاد حقيقته تستقر بالقلب حتى تتحرك لتعمل ولتحقق ذاتها في الواقع، ولتوائم بين صورها المضمرة وصورها

(1)-سورة المائدة، الآية: 69.

(2)-سورة قريش، الآية: 4.

(3)-محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص138.

(4)- محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 138.

الظاهرة⁽¹⁾.

كما جاء تعريف الإيمان عند محمد رشيد رضا: "الإيمان الصحيح لا يسمح لصاحبه أن يأخذ بأمر قبل أن يتبصر فيه ويمحص الدليل على أنه نافع له في دينه ودينه، ولا يدع أمراً حتى يشهد عنده البرهان، الإيمان الصحيح يجعل من نفس صاحبه رقيباً عليها في كل خطوة تمر بباله، وكل نظرة تقع منه على ما بين يديه من آيات الله في خلقه، لا يطير الخيال بصاحب الإيمان الصحيح إلا إلى صور من الحق فتترل منه منزلة العبارة من معناها، فهو إذا اعتقد فإنما يعتقد ما هو مطابق للواقع، وإذا تخيل فإنما يتخيل صوراً تمثل ذلك الواقع، وتجليه في أقوى مظاهره، فهذا يكون تيسير الله له الهداية إلى الحق"⁽²⁾.

كما لا يختلف عبد المجيد النجار في مفهومه للإيمان، عن محمد الغزالي، وسيد قطب، ورشيد رضا، فهو يقول: "إنه إيمان قوامه التوحيد المطلق، وهو يقوم على اعتبار أن الفعل الحضاري في عالم الشهادة جزء من حقيقته، حتى إن المال إلى عالم الغيب فيه يتوقف في سعاده وشقائه على ما يكون من تعمير حضاري في عالم الشهادة ولذلك فإنه إذا ما تحملته النفس حق التحمل لا يكون له في الحياة العملية إلا الآثار المثمرة للترقي الفردي والجماعي مادياً وروحياً والشاهد على ذلك تاريخ عريض من الحضارة المزدهرة في المادة والروح⁽³⁾. ويريد عبد المجيد النجار من قوله هذا؛ الإيمان الحي الواعي الذي تنفعل به النفس بما هو متمكن منها باليقين حيث تظهر فيه وحدانية جليلة في أبعادها المتعددة. أما الإيمان الذي هو حال مبهم من الانفعال بوجود غير مادي، أو ذلك الإيمان الذي هو تقليد وراثي لا يكون فيه لله تعالى شهود واع في النفس وإنما هي ترديدات لأقوال وأداء لطقوس، فإنه إيمان لا يثمر من الآثار العملية في الحياة.

الإيمان أساس العمل: يقول الغزالي: "إن صلة الإيمان بالعمل كصلة الخلق بالسلوك"⁽⁴⁾، أي

(1) -سيد قطب: في ظلال القرآن، بيروت لبنان ط2 (1410-1990) ج1، ص 1137.

(2) -محمد رشيد رضا: تفسير المنار، مكة المكرمة: دار الباز للنشر، ج6، ص 290.

(3) -عبد المجيد النجار: الإيمان والعمران، مجلة إسلامية المعرفة، العدد4، ص.

(4) -محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 132.

أن الإيمان والعمل متلازمان، ويشير هنا إلى مدى ارتباط العمل بالإيمان في الإسلام، ذلك أن النصوص الهادية إلى تلازم الإيمان والعمل كثيرة، يزخر بها القرآن الكريم وتستفيض بها السنة وتقر الحق في نصابه، وترسم لكل مسلم غايته وتخط له مكانته، وتقرع الآذان بذلك الأمر الحاسم⁽¹⁾:

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾⁽²⁾.

فما من آية في كتاب الله ذكرت الإيمان مجرداً، بل عطفت عمل الصالحات، أو تقوى الله، أو الإسلام له، حتى أصبحت صلة العمل بالإيمان قوية لا يعرفها وهن، فإذا عقدت في القرآن مقارنة بين الهدى والضلال، جعل الإيمان والعمل جميعاً في كفة، وجعل الكفر في الكفة الأخرى

لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾⁽³⁾.

بل إن العلامة التي يقدمها القرآن دليلاً على فراغ النفس من العقيدة، خلو القلب من الإيمان، هي النكوص على القيام ببعض الأعمال الصالحة لقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلْيَتَهُ ۚ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾⁽⁴⁾.

و قد يذكر في القرآن العمل شرط لصحة الإيمان وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوبٌ﴾⁽⁵⁾.

كما بين القرآن الكريم تاريخ الأمم التي أهلكت لسوء عملها، فقد نقم الله على قوم لوط

(1) - المصدر نفسه، ص 136.

(2) - سورة التوبة، آية 105.

(3) - سورة غافر، آية 58.

(4) - سورة الماعون، الآيات: 1-3.

(5) - سورة الأنبياء، آية 94.

مثلا - بارتكاهم الفاحشة، وعلى قوم شعيب لبخسهم المكيال والميزان، وأوضح الله عز وجل الحقيقة للبشرية جمعاء أن نجاحهم في الدنيا والآخرة في الصلاح والتقوى والعمل الصالح: قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ۖ فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (1) (2).

ولقد عبر القرآن الكريم في مواطن عن العقيدة بالإيمان وعن الشريعة بالعمل الصالح حيث يقول عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿٣﴾﴾ (3) وهنا يقول الغزالي: "العمل الصالح قسمان: قسم ضئيل وهو ما حدده الإسلام من صلوات وزكاة وصيام وحج وما إلى ذلك، وهو قسم قليل لأنه لا يستغرق من وقت الإنسان شيئا يذكر ولكن القسم الأكبر من العمل الصالح هو الفقه في الدنيا وتطويع هذه الدنيا، وتسخيرها لخدمة التوحيد وإرساء تعاليمه والدفاع عنه" (4).

كما يقر العلماء أن لفظ الإيمان يقتضي توحيد الله والعمل بمضامين الشريعة، إذ كلما استقر توحيد الله في قلب المؤمن آمن وزال عنه القلق والخوف وأقبل على الالتزام بأوامر ربه وطاعته، ويستغرق في العمل الشرعي، لذا نجد لفظ الإيمان كثيرا ما يقرب بلفظ العمل الصالح في القرآن، لبلوغ رتبة التقوى لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴿١١٠﴾﴾

(1) - سورة الأعراف، الآيتين: 35-36.

(2) - محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 134-135.

(3) - سورة الكهف، الآية: 107.

(4) - محمد الغزالي: مصدر سابق، ص 131.

وَأَوْلِيَّتِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴿١﴾ .

و مما سبق ذكره، تبين للغزالي أن الإيمان بوضوح هو روح الحياة إذ يقول: " المفروض في الإيمان أولاً أنه تصديق بالحقيقة الكبرى، واعتراف بالوجود الأعلى وشعور بمتزلة الإنسان المحدودة، أمام رب واسع، بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، ثم للإيمان إلى جانب هذا كله وظيفة لا تفك عنه هي أنه القوة الباعثة على العمل الصالح، القوة إلى توجيه الإنسان إلى الله فيما يفعل وفيما يترك، وفي شؤون حياته كلها، ويضيف الغزالي تشبيهاً بليغاً لعلاقة الإيمان بالعمل فيقول: " كما أن للمعدة إفرازات تهمضم الطعام، وتستخلص أطيب ما فيه ليفيد الجسم منه، فللعقيدة الإلهية خواص متشابهة تحول بها الأعمال العامة إلى عبادات مقبولة وتضفي عليه معنى خالصاً، ترتفع به إلى الله، ففراغ القلب من هذه العقيدة إذا معناه سقوط الأعمال التي تصدر عن الإنسان، فلا تحظى بثواب الله⁽²⁾ .

فالإيمان شرط صلاح العمل، والثواب أيضاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتْعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣١﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾⁽³⁾ .

كما يقتضي الإسلام، إصلاح العمل، ولذلك تساءل الغزالي عن معنى العمل الصالح؟ ثم أجاب: " إنه الإحسان الذي ذكرته الآيات الكريمة حين رد الله على من يجعلون الجنة احتكاراً لطوائف معينة⁴، لقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ

(1)-سورة البقرة، آية 177.

(2)-محمد الغزالي: ليس من الإسلام، دار الهناء للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت، ص 155.

(3)-سورة غافر، الآيتين: 39-40.

(4)-المصدر نفسه، ص 156.

مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾⁽¹⁾.

لكن إذا قابلنا هذه المفاهيم بالواقع نلاحظ مفارقة فيما بينها، لذا سعى الغزالي - وهو يدرك واقعه إلى إعادة العلاقة بين اعتقادات المؤمن وأعماله وسلوكه فلقد تفتن إلى الفصل بين الإيمان والعمل، والذي شكل خطرا كبيرا على التاريخ الإسلامي، ولا يزال إلى يومنا هذا حيث يقول معلقا: "والقول بأن العمل لا صلة له بالإيمان يوجه اتهاما إلى هذا الدين بأنه يحمل في ثناياه ما يهدمه"⁽²⁾.

فاختلاف القدامى في: هل العمل ضرورة للإيمان؟ أو كمال فيه؟ نتج عنه أن ترجح عند العامة أنه كمال فقط، ويستفيد المجتمع من هذا الخلاف ترك العمل واختلافهم أيضا في مسألة: هل للإنسان قدرة وإرادة يفعل بما يترك؟ أم هو مقهور مكتوف اليدين؟ ترجح لدى العامة أن المرء لا عزم له ولا قوة ولا طول فيستفيد المجتمع من هذا الخلاف سقوط المهمة وخور الهزيمة⁽³⁾.

و يحمل الغزالي المرجئة⁽⁴⁾ سبب سقوط الحضارة والاستهانة التي حملتها هذه الأمة، إذ كانوا من وراء ذهول المسلمين عن القانون القرآني الذي يقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾⁽⁵⁾، فالمرجئة اعتمدت أدلة أساءت فهمها في تأخير العمل عن الإيمان، وقد فتح هذا الفكر باب الانحراف والعصيان، لذا يعد

(1)-سورة البقرة، آية 111-112.

(2)-معد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 140.

(3)-محمد الغزالي: من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث، دار الهناء، الجزائر، دط، ص 84.

(4)-المرجئة من الإرجاء ذكر الشهرستاني في تعريفه للإرجاء .

الأول: التأخير ما في قوله أرجه وأخره ؛ أي أهله وأخره . الثاني: إعطاء الأمل والرجاء، ويرى أن إطلاقهما على هذه الفرقة بالمعنى الصحيح، فالأول يؤخرون العمل على النية والعقل والثاني لأنه يقولون لا تضر مع الأعيان معصية، كما لا تنفع الكفر طاعة مع الكفر، ومن أسباب ظهور بعدما ظهر خطر الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة والحكم عليه بالخلود في النار، وانتشار سفك الدماء في المجتمع الإسلامي، ظهر في الفكر الإسلامي كرد فعل على ذلك . أنظر: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكري الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، دط، 1404هـ، ص 66.

(5)-سورة الزلزلة، آيتين: 7-8.

من المفاهيم، العقيدة المنحرفة التي شكلت خطرا جسيما على التاريخ الإسلامي، حيث لا يزال يعرف انطلاقة الأمة إلى هدفها.

ولقد صور محمد بن عاشور هذا التشقق الذي أصبح واقعا في نفوس المسلمين بين ولاء للعقيدة من جهة، وخضوع لما يجري في الواقع على خلافها من جهة، والآثار النفسية الناشئة من ذلك معطلة للمبادرة على الفعل الحضاري فقال: "إن الإرادة البناءة هي التي خارت وضعفت فأصبحت الأوضاع الاجتماعية والآثار المدنية تصدر عن غير ما كانت تصدر عنه (من داعية العقيدة) فصارت في وادٍ والعقيدة الدينية في وادٍ آخر، وبقي المسلم وفيها لعقيدته الدينية من جهة، متقبلا لحياته العملية مطمئنا إلى واقعها من جهة أخرى حتى أصبح المبدأ النظري، والواقع العملي عنده متباين فسقطت في نفسه مثالة الحياة العملية التي يحياها باعتبار أنها مبطنة لدينه الكريم وتلقاها تلقي المستهزئ يعرف الشر ويعيش فيه... وتولدت عن ذلك العقدة النفسية الخطيرة، عقدة الشعور بالنقص الذاتي وعقدة اليأس من استقامة الحقيقة الدينية⁽¹⁾ إن هذه الأمراض والعقد النفسية المعطلة للعمل الصالح والإنتاج ليست إلا نتيجة لإيمان بالله مهزوز غير قائم على إخلاص الوحدانية لله.

وفي مقابل هذا فإن للمؤمن حق الإيمان أن لا تكون نفسه إلا موحدة القوى منسجمة الأطراف، تتفق في طريق العمل بفعالية عالية، وبطاقة إنجازية رفيعة، بما تحققت حضارة التوحيد بتصميم من نفوس الموحدين على نحو ما وصف ابن عاشور قائلا: "باليقين الديني أقدم المجتمع الإسلامي على تكوين الأوضاع العالمية في صورتها التطبيقية على ما ينبغي أن تكون عليه وعلى نحو ما يناسب رجوعها كلها إلى الحقيقة الخلقية الإلهية التي أدركها واعتز بأنه أحسن إدراكها، وأحسن إدراك الأشياء بحسن إدراكها، فالحقيقة الاعتيادية الإلهية حينئذ هي الأساس لكل ما بنت الحضارة الإسلامية من هياكل حسية ومعنوية⁽²⁾، فكلمة التوحيد كما وصفها الغزالي هي نيات تمتد أصوله في القلب وتظهر آثاره ضلالا وارقة وثمارا شهية لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ

(1) -محمد الفاضل بن عاشور: روح الحضارة الإسلامية، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1992، ص 76-77.

(2) -المرجع نفسه، ص 73.

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوِّقَ
 أَكْلُهَا كُلُّ حِينٍ يَاذِنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبِ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ (1).

فهذه الكلمة أعظم قدرا وشأنا عند الله فلا بد من مطابقتها لعمل صالح يعبر عن الخضوع المطلق لله، فحسن السلوك مع ضلال القلب لا ينفع وهو زعم لإيمان باطل وبهذا القياس فضح القرآن الكريم طوائف المنافقين لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (2).

ومن المفهوم الخاطئة أيضا والتي حارها الغزالي في هذا المجال، ودعا إلى وجوب تنقية التراث الإسلامي منها، لما فيها من عبث وإظلام لمستقبله، ولما سببته من كوارث ونكبات للمسلمين: تبرير ترك العمل بالاعتذار بالقضاء والقدر، وردا على ذلك فقد أولى الغزالي عقيدة القضاء والقدر، والعمل بقانون السببية اهتماما بالغا، ذلك أنه يرى أن هذه من أهم الأسباب في تخلف المسلمين، وعزل القرآن عن التفاعل مع الحياة، فالقول بالجبر وعدم ربط الأسباب بالمتسيبات هو تعطيل للشريعة وفصلها عن عقيدتها. ويرجع الغزالي سوء فهم بعض المسلمين لعقيدة القضاء والقدر (3) إلى عدم فهمهم وإدراكهم الصحيح لنصوص القرآن، لذا دعا في تفسيره إلى النظرة الشمولية لفهمها إذ يقول: كل ميل بعقيدة القضاء والفكر إلى الجبر تخريب متعمد لدين الله، ودنيا الناس، وقد رأيت بعض النقلة والكاتبين، يهونون من إرادة البشرية، ومن أثرها في حاضر المرء ومستقبله، وكأنهم يقولون للناس أنتم محكمون بعلم سابق لا فكاكة منه، ويسوقون إلى مصير لا دخل لهم فيه، فاجهدوا جهدكم فلن تخرجوا عن الخط المرسوم لكم مهما بذلتم، إن هذا الكلام الرديء ليس نصح قراءة واعية لكتاب ربنا ولا إقتداء دقيق لسنة نبينا إنه تخليط جنينا منه المرء (4).

(1) -سورة إبراهيم، آيتين: 24-25.

(2) -سورة البقرة: آية 8.

(3) -سيأتي بيانه في المبحث الموالي.

(4) -محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، مصدر سابق، ص 35.

فقد كان الغزالي كلما سئل عن القضاء والقدر يرد ساخرا : في الغرب إنسان حر مخير وفي الشرق إنسان مسير لا قدرة له ولا إرادة، فرجل الغرب شعر بأن له عقل ففكر به حتى كشف من بدائع الكون وتعامل معه، وشعر بإرادته حتى التقت في يديه مصائر الأمم، وشعر بأنه له القدرة فجاب الشرق والغرب ووضع الروائع والعجائب، أما رجل الشرق فجاء يستفتي في هذه المعضلة، ما أبعد البون بين الشخصين⁽¹⁾.

ونجده في موطن آخر يعلق عن الفهم الخاطئ للقدر عند المسلمين قائلا: " فالغباوة في فهم القدر كسرت الهمم، وأقعدت الآمال، والغباوة في فهم التوكل أشاعت الفوضى وأغرّت بالكسل⁽²⁾."

العلاقة بين الدين والدنيا: أراد الغزالي من خلال فكره العقدي صد الفهم الخاطئ في علاقة الدين بالدنيا، والذي ألحق أضرارا فادحة في فهم رسالة العمل والإعمار، ومقصد الاستخلاف عن الله، فقد بين أن كثرة النصوص الإسلامية (من الكتاب والسنة) عندما أطالت الحديث عن الدار الآخرة، وحتمية الرجوع إلى الله الملك الحق بعد الحياة، إنما المقصود منها هو تهذيب الغرائز وتربية الضمائر ونشردان الخير والصلاح فوق الأرض، أما العجز في فهم الدنيا وكشف دخائرها والجهل بأساليب استثمار خيراتها ونتائج تلك الجهود لدعم الحق ونصرة الدين والقيم والمثل الرفيعة، لا يدل ذلك أبدا على تقوى أو رشاد في فهم الإسلام وتشريف منهجه ورسالته، ولكن في حقيقة الأمر يدل على طفولة فكرية يضار بها الدين⁽³⁾.

فحسب ما يذهب إليه الغزالي ويقدره- أنه من المستحل مع الجهل بالحياة وقوانينها، أن يقوي الإيمان ويسوي الطريق، والثقافات الإسلامية المتبدعة والمنحرفة سر هذا العوج، وفي مقدمتها التصوف الدخيل كما سبق ذكره والذي رآه الغزالي أنه نوع من الهروب من المسؤولية

(1)-محمد الغزالي: عقيدة السلم، مصدر سابق 112، 113 و قالها أيضا في إحدى محاضراته التي كان يلقيها على الطلبة في

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية 1984-1988م

(2)- محمد الغزالي: من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث، مصدر سابق، ص 31.

(3)-محمد الغزالي: علل وأدوية الجزائر، دار الشهاب، ط2، 1986، ص 178.

الدينية التي يفرضها الإسلام وأنه إذا كانت السياحة الروحية مطلب أساسي في تركية النفس، فلا يجب أن تكون على حساب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل الصالح الذي ينفع الناس.

و في مقابل هذا نجد الغزالي لم يغفل عن تلك الفهوم والمحاولات الرامية إلى التوفيق بين الإسلام والحضارات الغربية، باسم المدنية، أو التقدم، وتلك التفسيرات التي أرادت أن تجعل من الدين علاقة فردية بين العبد وربّه فقط ولا علاقة له بالواقع والعمل، فقد كان للغزالي وقفة طويلة في تحليل الحضارة، الغربية ونقدها، بل والأخذ منها ما يجب أن يؤخذ ولعل اهتمامه هذا يدل على نظرته الشمولية للإسلام، أو الرفضة للتجزئة أو التشويه سواء على مستوى التصور، أو على مستوى الممارسة من حيث علاقة العقيدة بالعمل.

و لعل الغزالي يتفق مع أبي الأعلى المودودي في رأيه بضرورة تجاوز المباحث التي أشبعها الفقهاء والمتكلمون بحثاً، في باب الإيمان والعمل، وبيان ما بينهما من علاقة حيث يقول أبو الأعلى المودودي: "والذي يظهر من القرآن الكريم جلياً، أن الإيمان الاعتقادي والإسلام العملي متلازمان فيما بينهما، وفرق الله تعالى بينهما في غير موضع من كتابه العزيز وأنه ما وعد بما وعد من حسن الجزاء والثواب إلى عباده الذين هم مؤمنون اعتقاداً ومسلمون عملاً، ليجعل الإسلام العملي هو الدليل على الإيمان الحقيقي⁽¹⁾.

و يقصد المودودي بهذا التجاوز الانطلاقة مرة أخرى بالمبادئ الإسلامية من نقطة الركون، التي وقفت عندها حياة المسلم، إلى رسم حياة جديدة بمعنى أنه يقتضي الكشف عن القيم الذاتية والأصلية للإسلام وهذا الكشف (الإدراك) لا يعني الدفاع عن العقيدة الإسلامية، بقدر ما يعني إعطاءها الفعالية، كما لا يعني إيصال الإيمان إلى نفس المسلم بقدر ما يجعل هذا الإيمان فعالاً وعملياً، وهذا ما ذهب إليه مالك بن نبي عندما قال: "ليس المشكلة أن تعلم المسلم عقيدة هو يملكها وإنما المهم أن ترد هذه العقيدة إلى فعاليتها وقوتها الإيمانية وتأثيرها الإيجابي⁽²⁾ طبعاً على نفس وسلوك المسلم وهو يقصد هنا انعكاس إيمان المسلم عملاً صالحاً وسلوكاً سويًا في دنياه،

(1) -أبو الأعلى المودودي: الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، متوسطة الرسالة 1980، بيروت، د ط ص 53.

(2) -مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، ط 1986، سوريا، دمشق، ص 48.

ويقصد مالك بن نبي بهذه الفعالية كثرة العمل الصالح وإتقانه، وبذلك يصوغ الإنسان حياته عقيدة وسلوكا.

و يتبين لنا مما سبق ذكره - أن الغزالي سعى إلى توضيح طريقة القرآن في الربط بين الإيمان والعمل إذ يقول: "يعمد القرآن إلى إصلاح البواطن بأضواء التوحيد فإذا نمت استنارتها صلحت الظواهر واستقامت على الطريق ورأينا المؤمن أسرع شيء إلى أداء ما يجب الله، وأسرع شيء إلى ترك ما يكره⁽¹⁾، ولقد كان لنا في رسول الله ﷺ أسوة للتطبيق العملي لمنهج القرآن والترجمة الصادقة له في حسن العمل بالإيمان. حيث يضيف الغزالي بعد تأمله لسيرة الرسول قائلا: "ينابيع الحياة العاطفية والفكرية في نفس الرسول الكريم محمد بن عبد الله تجيء من معرفته الساطعة بالله وذكره الدائم له وأخذه بنصيبه الضخم من معاني الكمال في أسمائه الحسن⁽²⁾".

فالفهم العملي والواقعي التطبيقي المأثور عن النبي ﷺ، وكذا جيل الصحابة رضوان الله عليهم تقف في قوة، دليلا صارحا في هدم الفهم المغلوط لعلاقة الدين بالدنيا وتبين بوضوح ما ينبغي أن يكون عليه التصور الإسلامي في هذا المقام وغيره، فلقد احترف مثلا الرسول الكريم العمل الذين كان يؤديه عامة الناس على عهده وكذا إخوانه الأنبياء السابقين كانوا أصحاب حرف وأعمال يسترزقون منها ويحفظون بها كرامتهم إلى جانب خلقهم الطيب وعملهم الصالح. ففي المدينة - كما ذكرت السيرة النبوية - كان نبوغ المسلمين الاقتصادي هو الذي عكس على اليهود مستقرهم بها، وجعل الأسواق تفيض بعزمهم وخيرتهم⁽³⁾.

و نخلص بالقول إلى أن الغزالي قد ربط مفهوم الإسلام في فكره بحركة الواقع من خلال تقديم الإسلام دين شامل يعالج جوانب الحياة كلها، فكانت الصورة لديه أن الإسلام نظام كامل يقوم على مجموعة من العقائد التي تضبط علاقة الإنسان بربه وبنفسه وبالآخرين، ليصل أن الإسلام الذي هو عقيدة وشريعة وعمل، ليس مجرد منهج تفكيري، بل هو منهج للحياة وحركة

(1) - محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، مصدر سابق، ص 48.

(2) - محمد الغزالي: فن الذكر والدعاء، دار المعرفة، الجزائر، دط، دت، ص 16.

(3) - محمد الغزالي: فقه السيرة النبوية، مصدر سابق، ص 43.

فاعلة في الواقع العملي، والتاريخ، وهو نظرة شاملة للوجود عن الله والكون والإنسان، إذا استقرت في القلب أثرت سلوكا متزنا وعملا وإنتاجا في التاريخ والحضارة.

و لعل أهمية علاقة الإيمان بالعمل لا تظهر إلا إذا تمعنا في النتائج التي ترتبت عن الفصل بينهما - كما سبق الحديث عنه -.

المطلب الرابع: الربط بين الفكر السياسي والعقيدة

كما سبق ذكره فإن الغزالي لم يكن بمعزل عن ثقافة عصره وظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فقد عايش أحداث القرن العشرين، وعاش نكبات العالم الإسلامي، منها الأحداث السياسية التي كثيرا ما دعا إلى إصلاحها، لذا شغل الجانب السياسي حيزا كبيرا من اهتمام الغزالي، ومشروعه الفكري، وهذا يتوافق مع انتمائه إلى مدرسة التجديد والإحياء الحديثة، فكل أجيال هذه المدرسة لم ينفصلوا عن العالم السياسي.

بل إن الغزالي في اهتمامه هذا انطلق من رؤية إسلامية بعيدا عن محاولات علمنة الإسلام من الداخل، وذلك من خلال التأكيد على الفصل بين الدين والسياسة، في حين الكثير من الباحثين المعاصرين قد اغفلوا هذا الجانب حيث انساق الكثيرون منهم إلى أحكام معممة لا تقوم على منهج علمي سليم، وذلك بدعوة أنه لا توجد سياسة في الإسلام⁽¹⁾، ومن ثم جاء اهتمام الغزالي بالجانب السياسي في محله ليلي احتياجا حقيقيا لبيان معالم الفكر الإسلامي المعاصر في هذا الميدان، فهو القائل: "إننا لا نزال فقراء جدا في الفقه السياسي بمعناه الإداري والدستوري، وهذا قد يدعو إلى شيء من التخبط في الرؤية السياسية، لأنها لم تزل عبارة عن مبادئ عامة، لم تترجم تاريخيا إلى فقه وبرامج تشكل خصوبة في التصور عند الفرد المسلم يمكن أن يتعامل مع الحياة من خلالها"⁽²⁾.

(1) - أشهر كتاب روج لهذه المقالة: الإسلام وأصول الح كم، للشيخ علي عبد الرزاق حيث لم يرجع إلا لمصدرين من مصادر التراث الإسلامي هما: مقدمة ابن خلدون والعقد الفريد لابن عبد ربه، أنظر: نظر عارف في مصادر التراث السياسي

الإسلامي، دراسة في إشكالية التعليم قبل الاستقراء والتأصيل فيرجيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1994، ص 59-65.

(2) - محمد الغزالي: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، مصدر سابق، ص 123.

فقد ألف قرابة عشرة كتب سياسية خالصة، أما بقية أفكاره السياسية فقد توزعت على مختلف كتبه الأخرى، فكانت تتداخل مع موضوعات أخرى، محققة بذلك نوعاً رائعاً من التلاحم ما بين الشأن السياسي، الاقتصادي، الثقافي والتربوي الروحي، وكان طبعاً أن تأتي أفكار الغزالي بهذه الصورة الكلية، إذ أنها منبثقة عن إطار عقائدي ومعرفي شامل هو الإطار الإسلامي⁽¹⁾. وهنا وجبت إثارة التساؤل: هل يمكن لمؤرخ محدث أن يتجاهل موقع الغزالي في مجال التاريخ للفكر السياسي الاجتماعي المعاصر؟

عند تتبعنا لفكره قلما نجد يفصل فصلاً حاسماً بين السياسة وجوانب أخرى أي أنه لم يغفل في تحليلاته السياسية المفاهيم الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية، مثل: الورع، التقوى، الجزاء الأخروي في أبعاد الفعل السياسي.

و حتى عندما يكتب في الجانب الروحي والاجتماعي والخلقي، كما هو الحال في "جديد حياتك"، "ركائز الإيمان بين العقل والقلب"، "فن الذكر والدعاء"، الجانب العاطفي للإسلام فنجد في هذه الكتب إشارات سياسية هدفه منها السعي لإصلاح ضمير الفرد المسلم بناء عقله بناء متكامل روحياً وأخلاقياً، وبهذا المنهج أراد الغزالي رفع المعالجة السياسية إلى أفق الوضاعة الروحية وهذا هو المنهج الأسدي، لأن السياسي الإسلامي لا يأتي ثماره ناضجة إلا في هذا الأفق⁽²⁾.

و لقد سلك في منهج معالجته السياسية مسلكين:

الأول: الإكثار من العبارات ذات الدلالات الأخلاقية في كتبه السياسية: العفاف، الورع، الضمير، التقوى، وتوظيفها لغرس في وجدان القارئ، الربط المنطقي في السياسة والأخلاق الممتدة من العقيدة الصحيحة.

(1)-أنظر: محمد وقيع: ملامح الفكر السياسي للشيخ الغزالي: مجلة إسلامية المعرفة، العدد السابع، يناير 1997، ص 106-

(2)-المرجع نفسه، ص 107.

الثاني: اعتمد ربط التحليلات السياسية بالآيات والأحاديث الشريفة، فعندما يتحدث عن خصائص الاستبداد في كتابه: الإسلام والاستبداد السياسي، يسوق مع كل ناحية مجموعة من الآيات والأحاديث الزاخرة عن اقتراح مثل هذه الكبائر⁽¹⁾.

فكان "الإسلام والاستبداد السياسي" من أوائل كتبه، أعلن فيه رفضه لهذا الاستبداد بكل صورته ولو تغطى بغطاء الدين وانتصاره للحرية، بل إنه يرى أن الاستبداد باسم الدين أشد خطر على غيره ومن أقواله التي تثبت هذا الموقف: "إن الإسلام والاستبداد ضدان لا يلتقيان، فتعاليم الدين تنتهي بالناس إلى عبادة ربهم وحده، أما مراسم الاستبداد فترتد بهم إلى وثنية عمياء⁽²⁾ فالإسلام جاء لحماية الفطرة من الاستبداد الأعمى، وتحريرها بشهادة التوحيد من كل الوثنيات، لذا سعى الغزالي في فكره بربط نظم الإسلام بعقيدته، لأن الخلل سببه الفصل بينهما.

وقد ظل الغزالي في كتاباته وحواراته وخطبه يعمل على تصحيح مفهوم الشورى باعتبارها فريضة وليست مجرد فضيلة، وملزمة لا مجرد معلمة، فقال: "أخطأ من المفسرين من وهم أن الشورى غير ملزمة، فما جدواها إذا، وما غناؤها في تقويم عوج الفرد إذ كان من حقه ألا تتقيد بها؟ وأين في حياة الرسول ﷺ وسيرة خلفائه ما يدل على أن الحاكم خرج على رأي مستشيره ومضى في طريقه وحده"⁽³⁾.

ولقد رد الغزالي على الحجج التي ساقها من قال: إن الشورى معلمة وليست ملزمة، ومنها الاستشهاد بموقف أبي بكر في حرب الردة، واعتراض بعد الصحابة عليه في قتاله من نطق بالشهادتين - ومن يتهم عمر بن الخطاب - وإصرار أبي بكر على موقفه، وبمينه التي أقسمها على قتالهم إلى النهاية، وفي رده على هذه الحجة أوضح الغزالي أن هذا الاستشهاد: "يرد في غير موضعه، فقصة أبي بكر مع المرتدين ومانعي الزكاة لا تعني إلا أنه عرف الحق قبل عمر، ثم ما لبث أن اقنع به صاحبه فأيد وجهه نظره، وانفتاحهما على تنفيذها، وخطأ عمر في موقفه ابتداء مع

(1)-محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة ط3، 1984، ص 47-63.

(2)-المصدر نفسه، ص8.

(3)-المصدر نفسه، ص55.

المرتدين كخطئه بعد وفاة الرسول حين أنكر موته وتوعد من يقول به، ثم تاب إلى الحقيقة التي قررها أبي بكر في يقين تؤدّد، والديمقراطية الحديثة تخضع الحاكم لرأي الكثرة وتمنع السلطة التشريعية من التدخل في الشؤون التنفيذية المحضة، فإن كان الذين يرون بدون إطلاق سلطة الحاكم عن دائرة الشورى يعنون ذلك فلا حرج عليه، وإلا فكلامهم لغو لا يعتد به⁽¹⁾.

ولقد طالب الغزالي بالاقْتباس من النظم الحديثة كالديمقراطية ما يدعم مبدأ الشورى، ويجعله قابلاً للتطبيق العملي في واقع المسلمين، مؤكداً أن الأمة وحدها هي مصدر السلطة، والتزول على إرادتها فريضة، والخروج عن رأيها تمرد... ونصوص الدين وتجارب الحياة تتضافر كلها مع توكيد ذلك⁽²⁾.

كما اعتبر الغزالي طغيان الفرد في أمته جريمة غليظة، وأن الحاكم لا يستمد بقائه المشروع إلا إذا كان معبراً عن روح الجماعة ومستقيماً مع أهدافها فيقول: "إن الحكام - ملوكا كانوا أم رؤساء- أجراء لدى شعوبهم يرعون مصالحهم الدينية والدنيوية وجوهم مستمد من هذه الرعاية المفروضة، ومن رضا السواد الأعظم بها، وليس لأحد أن يفرض نفسه على الأمة كرها، أو يسوس أمورها استبداداً"⁽³⁾.

كما عالج الغزالي قضية الفساد السياسي⁽⁴⁾، باعتباره مرضاً قديماً في تاريخنا، وانتقد بشدة الحكام الذين حفروا خنادق بينهم وبين جماهير الأمة، فيقول: "لقد عاصرت حكاما تدعو عليهم الشعوب، ولا تراهم إلا حجارة على صدرها... انتفع بهم الاستعمار الشرقي والغربي في منع الجماهير من الأخذ بالإسلام والاحتكام إلى شرائعه وعن مميزات الحاكم المسلم في تصور الغزالي: "ومن القصور أن نتصور الحاكم المسلم شخصا بارزا في علوم الشرع أو قادرا على دروب الفتوى، يحسب الحاكم المسلم أن يعرف من علوم الدنيا ما تكمل به عقيدته، وتصح به عبادته،

(1)-محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، مصدر سابق، ص55.

(2)-أنظر محمد الغزالي: أزمة الشورى في المجتمعات العربية والإسلامية، دار الشرق الأوسط 1990 ص 69.

(3)-محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، القاهرة، دار الوفاء 1988 ص221

(4)-أنظر: كتابه، هموم داعية، مصدر سابق، ص54.

وتشرف أخلاقه، وتستقيم معاملته للناس"⁽¹⁾.

ويؤكد الغزالي من خلال ذلك أن الهدف من الحكم هو خدمة الأمة التي تحمل الرسالة: "وليس الحكم في الإسلام تنفيذا عن شهوات فرد، ولا سرلدا للاستبداد المطلق بل أساسه بيعة، حرة وشورى ملزمة ومثل دينية واضحة، وليست الدولة لخدمة الفرد أو الفرد في خدمة الدولة، بل الكل لإعلاء كلمة الله وتنفيذ وصاياه بين الناس، وهي وصايا تصون الدماء والأموال، والأعراض وتحقق الخير والمعروف وتأمرا بهما"⁽²⁾.

و بانتشار الفكر العلماني في بداية العشرينات من هذا القرن وترويج أفكاره التي تهدف إلى عزل الدين عن الدولة، صدر كتاب "الإسلام وأصول الحكم" لصاحبه علي عبد الرزاق ذهب فيه بالقول بأن الخلافة والقضاء من وظائف الحكم مجرد خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها، ثم جاء بعده محمد خالد ليرد هذه المضامين "من هنا نبدأ" ولقد تصدى الغزالي لهذه المفاهيم المغلوطة وصححها في كتابه من هنا نعلم حيث أعاد تعريف المصطلحات المستخدمة في هذا الجدل، فأكد أن نظام الكهنوت أو طبقة رجال الدين لا وجود لها في الإسلام قائلا: "فليس لحاكم ما في الإسلام قداسة ولا صفة ألوهية خاصة... وليس الدين احتكارا على طائفة دون أخرى"⁽³⁾ أما رده على محمد خالد فيقول: "إن نظام الحكم السياسي ليس نظاما من سائر الأنظمة المعروفة ليختار منها المسلم ما يشاء ويهجر ما يشاء، إنما هو نظام مثبتق رأسا عن عقيدة التوحيد، ومعبر عنها في واقع الحياة الاجتماعية"⁽⁴⁾.

و هذا الانبثاق يجعل النظام السياسي - بل وبقية النظم - ثمرة من ثمارات الجذر العقدي، وثمره لسبقان التشريعية والأخلاقية مرتبطة بالشجرة عضويا، ومعبرة عنها، وحاملة لخصائصها⁽⁵⁾.

(1)-محمد الغزالي: الطريق من هنا، دار المعارف، عناية، دط، دت، ص 108.

(2)-محمد الغزالي: الطريق من هنا، المصدر سابق، ص 108.

(3)-محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، مصدر سابق، ص 52.

(4)-محمد الغزالي: من هنا نفهم، مصدر سابق، ص 10.

(5)-عبد الحليم عويس: الشيخ محمد الغالي تاريخه وجهوده وآراؤه، دمشق، دار القلم ص 127.

الفكر السياسي وعلاقته بالخلق:

إن الوضعية الأوروبية فضلت فضلا كاملا بين الأخلاق والحياة الاجتماعية والسياسية بكل تجلياتها، بل أنكرت الأخلاق ورفضتها رفضا مطلقا، واستبدلت المعاني الأخلاقية بمعان محددة مادية مبنها المنفعة واللذة والمصلحة، لكن الإسلام يقدر أن الوجود الإنساني لا يكون له معنى إلا بالخلق، فالإنسان روح وجسد وعقد وقلب.

إلا أنه ما تجدر الإشارة إليه، أن الانفصال بين العقيدة ومظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والأخلاق، لم يكن انفصالا تاما كما حدث عند الغرب، وإنما ظهر الانفصال من الناحية الوظيفية، خصوصا في ميدان التأليف والتدريس، حيث غلب على علماء تدوين الفقه الإسلامي التجرد من جل الاعتبارات العقيدة والأخلاقية، وعلاقتها بالنواحي الأخرى، ومن ثم غلب على تدريسه وتبليغه النواحي العلمية المجردة، فكان أن ظهر للوجود كما يرى الغزالي فقهاء فقدوا الناحية الروحية التي فيها حرارة وعاطفة، وأصبح اعتقاد العامة أن مجرد إتقان صور العبادات تكفي لتحقيق الغايات منها، وكان مقابل هذا فقر في النظم والقوانين الإدارية والسياسية التي من شأنها رعاية مصالح الشعوب الإسلامية⁽¹⁾.

كما يعتقد الغزالي أن السبب في ذلك هو: " أن الذي جعل هذا الفقه لا يأخذ امتداده العلمي، بحيث تمتد المبادئ وتتنوع على شبكة من تشريعات تشمل المجتمع كله، هو الخصام الذي وقع بين الحكم والعلم الديني"⁽²⁾، حيث الصراع الجهيئ بين السلطة السياسية (الحاكم) وأهل العلم والفقه كما حدث في تاريخ الأئمة الأربعة: فأبو حنيفة قتل في السجن، ومالك ضرب لأنه أفتى فتوى أغضبت الحاكم في عهده، وابن حنبل ضرب ضربا مبرحا وكاد يموت في سجنه لولا أن لطف الله به، والشافعي قبض عليه وامتنع عن القضاء لأنه وجد الأمور تسير سيرا سيئا"⁽³⁾.

(1) - محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، مصدر سابق، ص 54.

(2) - فقه الدعوة، ملامح و آفاق (كتاب الأمة)، في حوار أجراه عميد مسيحيين مع فضيلة الشيخ الغزالي وعدد من المفكرين،

ج 1، ص 129.

(3) - المرجع نفس، ص 131.

لذا حرص الغزالي على تصفية الموروثات الثقافية التي قامت على ثقافة التعايش مع الاستبداد والتجافي مع الشأن السياسي - كما كان الحال عند إدبار الحكام عن الشريعة- وفصلهم دوائر العلم الشرعي عن الدين حيث أصبح الفقيه بمنأى عن الشأن السياسي.

ويشير الغزالي أن الثراء الذي كان في فقه العبادات، والإسراف في جزئياته كان على حساب الفقه السياسي، الذي كان بحاجة ملحة إلى تجلية معالم الفكر السياسي المعاصر وفي هذا يقول: "لابد من الاعتراف بأن فقه العبادات وجوانب من فقه المعاملات - على نصابها- اتسع عندنا اتساعاً أكثر من اللازم وأن الإستبحار التشريعي في أمور الطهارة والصلاة والحج والزكاة وما إلى ذلك كان أكثر ما يطبقه الفرد المسلم أو المجتمع المسلم وقليل من هذا كان يكفي للناس، كما أن عدة أسماء لحقيقة واحدة ليس بلازم أن يعرفها الجميع"⁽¹⁾.

ومن نتائج هذا الفصل ما يقول الغزالي: "وقد نشأ عن ذلك الفصل مفارقات رجحت كفة المجتمعات الكافرة وهوت بكفة المجتمعات المؤمنة، فقول الزور في ديننا يعادل الشرك في قوله تعالى: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾⁽²⁾ وقول الزور كبيرة في قضية صغيرة بين رجلين أو امرأتين، ولكننا في العالم العربي مثلاً نضع انتخابات مزورة بجهاز يشترك فيه عشرات الألوف من الناس، وتتواصى الأطراف المعنية بقبول نتائجه، وتسكت الجماهير الغفيرة مغضبة أو عاجزة"⁽³⁾.

لذا يرى الغزالي أن الاجتهاد التشريعي في المعاملات الداخلية والخارجية هو ضرورة حضارية دينية حيث يقول: "إن الاجتهاد التشريعي خصوصاً فيما يمس المعاملات الداخلية والخارجية ضرورة إجتماعية دينية والذي أدعو إليه أن تقوم مجاميع كبيرة من علماء راسخين لا يخافون في الله لومة لائم يحيون الاجتهاد الجماعي القديم ويقوم بعملين مهين:

(1)-فقه الدعوة، ملامح وآفاق(كتاب الأمة)، مرجع سابق، ج 1، ص 120.

(2)-سورة الحج، آية 30.

(3)-محمد الغزالي: تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، مصدر سابق، ص 29.

الأول: إنعاش وإحياء الفقه الدولي لتحديد أوضاعنا العالمية، وإعادة النظر في أنظمة الحكم الداخلية لإنقاذ المسلمين من مساوئ الحكم الفردي ومظالم المستبدين وإنشاء شرائع إدارية تضبط شؤون العمال وتوزيع الأموال وتصون الحقوق الخاصة والعامة.

الثاني: إيجاد مجتمع فقهي إسلامي عالمي يجتهد فيما جد من قضايا، وفيما عانينا من فرقة وضعف⁽¹⁾.

ومن خلال ما سبق، يتبين لنا أن الغزالي قد حاول من خلال فكره ربط الجانب السياسي بالعقيدة والأخلاق، ساعياً إلى بيان معالم الفكر الإسلامي المعاصر في هذا الميدان، وفعلاً فلم تكن أفكاره مجرد حماس أو هتاف أجوف وإنما اشتملت على مادة علمية كانت بديلاً لأطروحات التغريب، وسلاحاً قوياً ضده.

و من المقترحات التي قدمها الغزالي في الميدان السياسي من خلال كتبه نذكر:

- ضرورة بدل المزيد من الجهود لتطوير الثقافة السياسية الذاتية للأمة بالدراسات المختصة.

- ضرورة ربط العقيدة بقضايا السياسة.

- تنشئة الجيل على الحس السياسي والانفعال مع مطالب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمشاركة في العمل السياسي بعقلانية خصبة، وترث في انتظار النتائج.

- غرس حق الشورى في كل شؤون الحياة.

يضاف إلى جهوده في هذا الفكر، مساهمته الغزالي في القانون الدولي، وذلك بكتابه حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة حيث عرض فيه الضمانات التي يمنحها الإسلام لحقوق الإنسان موضحاً ما يكفله الإسلام من حقوق وحرّيات، وما شرعه من عدالة ومساواة وما ضمنه للناس من كرامة، كما تحدث فيه باستفاضة عن الحقوق السياسية والمدنية للإنسان في الإسلام وعن التحديات السياسية والفكرية والدينية وحقوق العمل والتعليم.

(1) - محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، مصدر سابق، ص 216.

المطلب السادس: الربط بين العقيدة ومنهج التعليم

إن العقائد هي التي تضع المثل العليا، والمثل العليا هي التي تهيمن على السلوك وتوجهه، والعقائد طور للنفس الانسانية ينقلها من الميوعة إلى الثبات والصلابة⁽¹⁾.

وبالتالي فإن التربية الصحيحة تقوم على فقه واسع في الحياة والأحياء، في الأرض والسماء، في كل ما يؤثر ونؤثر فيه، حتى لكأن ذلك كله ديننا ودينانا وأولانا وأخرانا.. ثم تسخير ما بلغناه يعد ذلك لإرضاء الله وكسب آخرتنا وفق الآية الكريمة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾⁽²⁾.

فمنهج التربية الإسلامية القائم على الإيمان بالله هو المنهج المتكامل الذي يعنى بتربية الجسم والروح والعقل في إطار متكامل لا تغطي ناحية على أخرى، فينشأ المسلم سوياً قويا الصلة بالله، محققاً رسالاته في الحياة لا مجرد هيكل تحلل وفقد إنسانيته.

و لعل تجربة الغزالي في الدعوة والتعليم مكنته من إدراك أسباب الفصل بين العقيدة والشريعة، وهو الموروث الثقافي الذي لا يزال ينتشر بيننا عقيدة الحيرو تعطيل الأسباب والجنوح إلى التصوف السلبي، مما دفعه ذلك إلى توضيح حقيقة الدين عقيدة وشريعة، إيمانا وتطبيقا(عملا).

لذلك دع الغزالي إلى ضرورة إصلاح التعليم في جميع بلاد المسلمين حتى تلتحق بالركب الحضاري بعد تخلفها عنه، خاصة بعد نجاح الاستعمار في فصل التعليم الديني عن التعليم المدني حيث يقول: "إن الاستعمار تمكن من فصل التعليم المدني عن التعليم الديني في بلاد المسلمين كلها، وهو شيء لم يعرف في تاريخ الإسلام طوال العصور الماضية، بل إنه قسم التعليم الديني نفسه أقساما شتى وينتج عن ذلك أن تخرج أئمة ووعاظ ودعاة للإسلام لا يعرفون إلا ما يجب أن يعرف"، بين الغزالي أن هذا الفصل أحدث شرخا في عزل المسلم عن الحياة الحضارية، إذ أن الهدف منه هو تجهيل المسلمين وإبعادهم عن الركب الحضاري لذا نجد في الكثير من كتبه يؤكد

(1)-محمد الغزالي: بتلظ الفكري بين الشرح والقتل، مصدر سابق، ص 91.

(2)-سورة القصص، الآية: 83.

على ضرورة الاهتمام بالعلم الكوني، وأنه على المسلم أن يدرك أن طلب العلم المادي هو أيضا عبادة⁽¹⁾، وفي هذا يقول الغزالي: "وأحب أن أنبه إلى أن كل قصور في العلوم المدنية، لا يزيد دارسي الدين إلا خيالا لأن الإسلام دين لا ترسخ قواعده ولا تنضج معارفه إلا في جو علمي واسع الآفاق، ولا أدري كيف يفهم عظمة القرآن الكريم رجل لم يدرس علوم الأرض والسماء وما بينهما"⁽²⁾.

و قد نتج عن هذا الفصل آثارا سيئة، فجامعة الأزهر مثلا كانت تأخذ الناجحين الأوائل لكلية المعاملات والإدارة، وترمي بالمتأخرين إلى الشريعة كما هو الحال عندنا اليوم في الجزائر. و حسب رأي الغزالي⁽³⁾ فإن التعليم الديني في حد ذاته يحتاج إلى عقل فيلسوف وعاطفة أديب، ودقة مشرع، وشجاعة فارس، وبر والد وإيناس صديق. و يرجع الغزالي سبب تهمين شأن التعليم الديني بعد سبب الاستعمار إلى عدم وفاء المسلمين لتأدية الإسلام.

2- سياسة التعريب التي تهدف إلى عزل الإسلام عن الحياة، والتي بقي لها أتباعها بعد رحيل الاستعمار⁽⁴⁾، لذا سعى الغزالي لإيجاد تعليم شامل يسير وفق نظام روحي وعملي وفق المنهج الآتي:

أ - القضاء على فكرة النفور من التعليم الديني وذلك بإصلاح مناهج تدريبيه.

ب - ربط التعليم الديني بالمدني وهنا يقول: ونحن نكره انقسام التعليم إلى ديني ومدني، ونرى للخروج من المأزق الذي خلقه الاستعمار أن يوحد التعليم كله على أساس أن تكون للدين برامج دقيقة شاملة تنظم أدواره كله من المراحل الأولى إلى صفوف الجامعة العليا⁽⁵⁾.

(1)-حجية شيدخ: الوصل بين العقيدة والشريعة، رسالة دكتوراه، سنة 2004. ص 328-329.

(2)-محمد الغزالي: علل وأدوية، مصدر سابق، ص 149.

(3)-محمد الغزالي: معركة المصحف في العالم الإسلام ص 26.

(4)-أنظر محمد الغزالي: كيف نفهم الإسلام، مصدر سابق، ص 44.

(5)-أنظر محمد الغزالي: معركة المصحف في العالم الإسلام، مصدر سابق، ص 126-127.

ت - الاهتمام بدراسة التاريخ الإسلامي وتاريخ الإنسانية وتبيان أثر الوصل بين العقيدة والشريعة وإصلاحه حيث يقول: "والمسلمون الأوائل عرفوا ثلاثة مناهج ذهب أجدانها وأدناها إلى المنطق القرآني وبقيت اثنان خيرهما قليل وعنائهما ثقل ذهب المنهج الذي سلكه ابن الهيثم في البصريات والخوازمي في الرياضيات وغيرهما من أصحاب الفطرة السليمة، وبقي منهج أحتضنه علماء الكلام، وآخر أحتضنه علماء التصوف، وكلاهما له أنصاره وثماره، وما نحب الجور ولا المعالاة ولا انتقاص الكبار، ما نحب إلا إنصاف ديننا وتبرئته من عيوب هو منها بريء"، ويضيف الغزالي في المعنى نفسه: "وهو ممن يرون أن ابن سينا الطبيب أذكى من ابن سينا الفيلسوف وقد انتفع الأوروبيون من طبه خلال ثلاثة قرون، فماذا أخذنا نحن من فلسفته؟ تسليية ذهنية ذكية عظيمة"⁽¹⁾.

و في كتابه تراثنا الفكري بين الشرع والعقل، تناول الغزالي الحديث حول العقلية الاستعمارية، وضرورة ربطها بالعلوم المدنية، وطرائق تدريسها ووجوب النظر في إعادة بناء برامجها مع إصلاح مختلف الجوانب العملية التعليمية المتعلقة بها وبعث روح العقيدة فيها. ففي دراسة القرآن: دعي الغزالي إلى تحقيق النظرة الشمولية، وتفسيره وتعليمه للناس حيث يقول: "القرآن ليس كتاب فنيا مقسما على قضايا معينة، ثم تنقطع فيه الرؤية الشاملة، بل هو يعرض الكون وهو دين العقيدة، ويعرض وهو يربي الخلق ويجمع بين الجميع بطريقة مذهشة"⁽²⁾، فلماذا لا يكون لهذا القرآن في تعليمه للناس منهاجا شاملا فيعطي الحلول لأزمات الحضارات، وهو يعالج جوانب الحياة، ويغذي البشر تغذية متكاملة العناصر روحية وعقلية وجسمية.

كما انتقد الغزالي منهج تدريس علم العقيدة في المعاهد والجامعات إذ لا يستشعر من خلاله الطلبة عظمة الخالق حتى توجه آخرون إلى علوم التصوف يستكملون منها ما افتقدوه في دراسة علم الكلام.

(1)-محمد الغزالي: الطريق من هنا، مصدر سابق، ص 28.

(2)-محمد الغزالي: كيف تعامل مع القرآن، مصدر سابق، ص 56.

المبحث الثالث: ربط الإيمان بالأخلاق

تمهيد

إن طبيعة الإنسان مزدوجة فيها فطرة طيبة تدعوا إلى الخير، وهي الغالبة كما فيها نزعات طائشة تأمرنا بالسوء وتزين ما هو سيء إلا أنه من رحمة الله بالإنسان لم يدعه لفطرته واستعدادها، أن بعث رسالات يبلغها الأنبياء، والتي تضع له الموازين الثابتة وتكشف له عن موجبات الإيمان، ودلائل الهدى في نفسه، وفي الآفاق من حوله، ويجلو عنه غواشي الهوى، فيرى الحق ويتضح له الطريق.

و من هنا كان الإيمان بالله تعالى ضروريا لإعانة الإنسان على الاهتداء إلى الطريق المستقيم، والذي يدفعه دوما إلى الرقي، ذلك أن الإيمان قوة دافعة لمكارم الأخلاق، ورادعة من مساوئها، ولعل أول أسباب السكينة هو انسجام المؤمن مع فطرته، فإن في فطرة الإنسان فراغا لا يملؤه علم ولا ثقافة ولا فلسفة، وإنما يملؤه الإيمان بالله عز وجل، ولا تزيينه إلا الأخلاق الفاضلة، هذا ما سنكشف عنه في هذا المبحث، مع بيان تأثير العبادات على الأخلاق والسلوك. فما موقع الأخلاق من فكر الغزالي العقدي؟

تعريف الخلق:

في اللغة: يعرف الخلق في اللغة، بأنه السجية والطبع والمروءة والدين⁽¹⁾.

في الاصطلاح: يعبر على أنه: " قوة راسخة في الإرادة تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصالح، إن كان الخلق حميدا، أو اختيار ما هو شر وجور، إن كان الخلق ذميما⁽²⁾."

وهنا نلاحظ وجود نقاط تلاق بين التعريفين، فالخلق يحمل صفة، الرسوخ، وهو الطبع في

(1) - الفيروزبادي: القاموس المحيط، دار الكتاب العربي، دط، 1306-1307هـ، ص/ 1137.

(2) - محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، دار العلم، الكويت، ط 1400-1960،

اللغة، ويشتمل على صفة الخيرية، وهي في اللغة المروءة والدين.

و الغزالي في تعريفه للخلق يقول: "إن الخلق في منابع الإسلام من كتاب وسنة، هو الدين كله، والدنيا كلها، فإن نقصت أمة حظاً من رفعة في صلتها بالله، أو في مكانيتها بين الناس، فبقدر نقصان فضائلها وهزائم خلقها"⁽¹⁾ ويبين الغزالي من خلال هذا القول مكانة الخلق في الإسلام، إذ لا دين بلا خلق، ولا خلق بلا دين، وهو من مقتضيات حسن الإيمان بالله والتعمير الصالح فوق الأرض.

أما عن حقيقة الأخلاق وماهيتها يقول: "إن الخلق العظيم لأمة ما نتاج جملة من العناصر، المتناسكة الكاملة، تلتقي فيها العقائد والعبادات والأحوال الاقتصادية، والسياسية، ثم إن الخلق ليس قراءة ورقة أو سماع درس، إنه صناعة شاقة وتجارب متكررة، وتكلف مستمر ينتهي بأن يكون ملكة قائمة، وصبغة ثابتة"⁽²⁾، وفعلاً فإن الخلق الحسن يكتسب من حب الإيمان، ومن الإقبال عن الطاعات، والابتعاد عن الرذائل.

علاقة الإيمان بالخلق

لعل ما يدل دلالة أكيدة على وجود رابطة متينة بين الإيمان، والأخلاق هو العناية الخاصة والتميزة التي أولها الله عز وجل ورسوله الكريم لها، حيث توجد في القرآن ألف وخمسمائة (1504) آية تتصل بالإيمان والخلق، كما توجد في السنة النبوية الكثير منها ما يبين هذه العلاقة.

فالمتعمق في آيات الله يجدها توضح العقيدة الخالصة للمسلم، وتحثه على التمسك بها، ثم

يتبعها الحث على مكارم الأخلاق كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَلْفٌ وَلَا نَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا

¹⁰ -محمد الغزالي: خلق المسلم، مصدر سابق، ص34.

⁽²⁾ -محمد الغزالي: تراثه الفكري في ميزان الشرع والعقل، مصدر سابق ص 99.

(٢٤) ﴿١﴾ ويتمعن الغزالي في الآيات القرآن، يجد أنه عندما يدعو الله عباده إلى الخير أو ينفروهم من شر يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم، وما أكثر ما يقول في كتابه عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ثم يذكر بعدها ما يكلفهم به (٢)، كقوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ (٣).

فالقرآن اعتمد في أسلوبه لتمكين المؤمنين من الاستجابة لأوامر الله وتثبيت عقيدته، عندما ربط كل تعليم من تعاليمه بالقيم الأخلاقية التي تعد أساسه، ومن ذلك مثلا عندما يدعونا أن نتقبل الصلح من الأهل يؤيد دعوته بتلك الحكمة العظيمة في قوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (٤) وعندما يأمرنا أن نوفي الكيل ونزن بالقسطاس المستقيم يعقب على هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (٥) ولقد ذكر المفسرون أن الآية: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٦) تتحدث عن دين عظيم، وأدب عظيم وفي هذا يقول ابن كثير: "قيل وإنك لعل دين عظيم، وهو الإسلام، وقيل لعله أدب عظيم، وقيل: خلق رسول الله ﷺ وهو القرآن (٧).

و لقد أكد النبي ﷺ - هذا المعنى- بأن الخلق هو الدين وهو كمال الإيمان لقوله: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وأطفهم بأهله" (٨) فالإنسان الذي استكمل إيمانه وحسن استكمل

(١)-سورة الإسراء، الآيتين 23-24.

(٢)-محمد الغزالي: خلق المسلم، دار رحاب للنشر، الجزائر، ط 1422، ص 10.

(٣)-سورة الحجرات، الآتي 11.

(٤)-سورة النساء، الآية 118.

(٥)-سورة الإسراء، الآية 35.

(٦)-القلم: 4

(٧)-ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، دط، بيروت ج 4، ص 80.

(٨)-أخرجه الترمذي في سننه أبواب الإيمان، باب استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه، ج 2612، ص 616 وقال الترمذي

حديث حسن.

خلقه وبذلك فإنه يعامل الناس بحسن أخلاقه على وفق شريعة الله لذا كان حسن الخلق جامعاً لكل معاني البر، ولكل معاني الخير العقديّة والتعبديّة والعملية كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا^ط وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١﴾ والرسول ﷺ في حديثه يؤكد ما جاء في الآية أن البر هو الخلق وكل الخير، عندما سئل: «فقال: البر هو حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه»^(٢) فالخلق هو الدين كله - كما ذكر الغزالي - وهو يشمل حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، بل إن غاية بعثة النبي ﷺ - هي إتمام مكارم الأخلاق أي إتمام الدين لقول النبي: «إنا بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(٣)، فكأن الرسالة التي خطت مجراها في تاريخ الحياة، وبذل صاحبها جهداً كبيراً في مد شعاعها، وجمع الناس حولها لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم، وإثارة آفاق الكمال أمام أعينهم حتى يسمعون إليها على بصيرة^(٤)، وعليه يكون هدف الإيمان هو عمل على تكملة الأخلاق في حياة البشرية.

و حتى يجعل الرسول إيمان المرء مرآة لخلقه وسلوكه، فقد روى عنه أنه دخل على جماعة من أصحابه فقال: «أؤمنون أنتم؟ فسكتوا: فقال عمر: نعم يا رسول الله. قال: وما علامة

(١) -سورة البقرة، آية ١٧٧.

(٢) -أخرجه الترمذي في سننه أبواب الزهد، باب ما جاء في البر والإثم ج 2389، ص 568-569 وقال الترمذي هذا حديث صحيح حسن، دار الكتب العلمية، ط 1، 2002-1414 هـ بيروت لبنان.

(٣) -أخرجه الإمام مالك بن أنس في موطئه، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في الحياء، ح 1609 ص 568 محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية ج 2، بيروت لبنان، دط دت، ويقال في هذا الحديث ابن عبد البر، هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ت: مصطفى بن احمد العلوي ومحمد عبد الجبر البكرين مؤسسة قرطبة 333/24).

(٤) -محمد الغزالي: خلق المسلم، مصدر سابق ص 7.

إيمانكم؟ قالوا: نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء. فقال: رسول الله ﷺ: «مؤمنون ورب الكعبة»⁽¹⁾ - رغم أن هذا الجواب لم يرضى به المتصوفة - كما سبق ذكره - وقول النبي ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد أعذر، وإذا وعد أخلف وإذا خصم فجر»⁽²⁾ ن الواضح من قول الرسول أن النفاق قضية متعلقة بالعقيدة، والكذب، والغدر، وخلف الوعود والفجور في الخصومة قضايا أخلاقية⁽³⁾، فإذا كانت هذه الأخلاق السيئة دالة على عقيدة النفاق المنحرفة فبمفهوم المخالفة، أن الأخلاق الفاضلة دالة على العقيدة الصحيحة.

و تأكيداً لهذا المعنى، نجد أن الرسول - في موطن آخر - ينفي الإيمان عن المتصف ببعض مساوئ الأخلاق وذلك في قوله: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله، قال: "الذي لا يأمن جاره بوائقه»⁽⁴⁾.

و عليه ومما سبق ذكره يتبين العلاقة الوطيدة بين الإيمان والأخلاق، والذي كان الرسول مثالا لها، ونموذجاً عملياً متكاملًا لهذه العلاقة.

وعن رتبة الأخلاق في العقيدة الإسلامية يقول الغزالي: "كان المتصور أن تسبق العبادة الأخلاق على أساس أن الأولى هي حق الله، والثانية هي حق الناس ولكن تبين لي ن الأخلاق تسبق العبادة ويكون ترتيبها على النحو التالي: الإيمان فالأخلاق فالعبادة" واستند الغزالي في ذلك إلى حديثين شريفيين الأول: يشير أنه إذا توفرت ثلاث خصال في الفرد فإنه منافق كما سبق ذكره وهي الكذب وخيانة الأمانة وعدم الالتزام بالوعد وإن صلى وإن صام والحديث الثاني: يشير إلى

(1) -أخرجه علي بن أبي بكر الهيثمي في مجمع الزوائد، دار الريان للتراث بيروت، ط 1407، باب في الإسلام والإيمان ص 542، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ص 169/9.

(2) -أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان باب بيان خصال المنافق رغم 58، ص: 78/1 وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب إذا خصم فجر، رقم 2327/ص: 2 / 808.

(3) -محمد قطب، لا إله إلا الله عقيدة وشريعة منهاج حياة، ص 77.

(4) -أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الآداب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه رقم 5670، ص 2240/5، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب بيان تحريم إيذاء الجار، ح 73، ص 25.

الثلاثة الذين تسعر النار بهم يوم القيامة : وهم قارئ القرآن والتصدق بماله والمجاهد إذا كانوا يفعلون ذلك رياء⁽¹⁾.

علاقة الأخلاق بالعبادات:

إذا استقرنا آيات القرآن الكريم في أركان الإسلام ومبادئ الأخلاق، نجد أن التوجيهات الأخلاقية فيه تتظافر مع غايات العبادات وأهدافها، لإصلاحها وضبط وتوجيه سلوك الإنسان بما يتفق وأهداف العقيدة الكبيرة في الحياة. لذا كانت عقيدة التوحيد هي المثل الأعلى في التوازن والاستقامة واعتدال. ويتضح لنا هذا أكثر من خلال عرض موجز لأركان الإسلام الخمس التي تهدف إلى ترسيخ مكارم الأخلاق، لذا نجد الغزالي يوضح مهمة العبادات في الإسلام: "فهي ليست طقوساً مبهمة من النوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المجهولة ويكلفه بأداء أعمال غامضة، وحركات لا معنى لها، كلا كلا فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه من تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة وأن يظل متمسكا بهذه الأخلاق مها تغيرت أمامه الظروف"⁽²⁾.

ففي الصلاة: يقول الله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ

الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾⁽³⁾ فالصلاة هي اتصال دائم بالله عز وجل حتى يستحي صاحبها باصطحابه معه لكبائر الذنوب وهو يؤديها، أمام ربه، وعندما أمر الله بها أبان الحكمة منها وفي هذا يقول الغزالي: "فالابتعاد عن الرذائل والتطهير من سوء القول والعمل، هو حقيقة الصلاة"⁽⁴⁾.

و يؤكد الغزالي على أن العبادات لا تصنع التغيير في سلوك الإنسان إذا لم تحو الصلاة - مثلاً - الحسد والحقد من النفس، ذلك أن السجود الحقيقي في الصلاة ليس انطواء أمام الله بل

(1)-محمد يونس، تجديد الفكر الإسلامي على مشارف قرن جديد، قراءة في تجربة الشيخ محمد الغزالي: دار الهداية للطباعة

والنشر والتوزيع، القاهرة ط1 1419-1999 ص 84.

(2)-محمد الغزالي: خلق المسلم، مصدر سابق، ص 7.

(3)-سورة العنكبوت، آية 45.

(4)-محمد الغزالي: خلق المسلم، مصدر سابق، ص 8.

هو انقياد القلب لهداياته ووصاياه، وإذا كانت العبادات استعانة بالله على بلوغ هذا الهدف العظيم، وقبلها الله، وأعان المصلي فأصلح نفسه، وأقام عوجه فالعبادة صحيحة مقبولة⁽¹⁾.

و عن الصوم: قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁽²⁾، فيبرز في الآية الغاية من الصوم وهي التقوى، والتقوى هي ملكة الخوف من الله، مما يجعلها من ركائز العقيدة، وهي أيضا غاية تتطلع إليها النفس الزكية، ويجعل الصوم طريقا لها، ومن لم يكن الصوم حافظا له من ارتكاب العاصي، فلا حاجة له في تركه، وإقرارا لهذا المعنى يقول النبي ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»⁽³⁾.

و في هذا يقول الغزالي: "فالله لم ينظر إلى الصوم على أنه حرمان مؤقت من بعض الأطعمة والأشربة بل اعتبره خطوة إلى حرمان النفس دائما من شهواتها المحظورة ونزواتها المتكررة"⁽⁴⁾. ويبين لنا من ذلك أن الصوم ليس تعذيبا جسمانيا، وليس تعطيلًا عن عمل، إلا إذا اعتبرنا الرياضة البدنية محاولات لهدم الجسم الإنساني وتعجزه، فالصوم - في نظره - رياضة لها هدف، وغراس ترجى منه ثمار، وهو مشقة محدودة لتدريب الناس عن المعنويات العالية، وتعليمهم كيف يقبلون عن الخير ويتركون الشر، وكيف يسارعون إلى مرضاة الله ويفرون من مساحطه، إنه ليس معركة مبهمة ضد الجسد، ولكنه خطة واضحة لتزكية القلب ودعم الإيمان.

و في بيان علاقة الخلق بعبادتي الصلاة والصوم يقول النبي ﷺ: «إن المؤمن ليدرك بحسن

(1)-محمد الغزالي: تراثنا الفكري بين ميزان الشرع والعقل، مصدر سابق، ص 88.

(2)-سورة البقرة، آية 183

(3)-أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، رقم 1804، ص 673/2 كما أخرجه التميمي، كما أخرجه ابن ززيمة في صحيحه: كتاب الصيام، باب النهي عن قول الزور والعمل به، فالجهل في الصوم والتغليظ فيه 1995، ج 3 ص 241، المكتب الإسلامي بيروت، دط 1970م-1390هـ ت: محمد مصطفى الأعظمي.

(4)-محمد الغزالي: خلق المسلم، مصدر سابق، ص 8.

خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار»⁽¹⁾ فالعبادات إذا أفقدت الأخلاق رفضت كما يرى الغزالي.

و أما عن الزكاة: يقول عز وجل: ﴿حُدِّمِنَ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾⁽²⁾ فهذه الزكاة إضافة إلى ما تحمله من معان التعاون والتكافل بين المؤمنين، فإنها تحمل أيضا معاني أخلاقية، وهي طهارة نفس المؤمن وتزكيتها، وفي تصور الغزالي الزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب بل هي - أولا - غرس لمشاعر الحنان والرأفة، وتوطيد العلاقات والتعارف والألفة بين شتى الطبقات، فتنظف النفس من أدران النقص والتسامي بالاجتماع إلى مستوى أنبل وهي الحكمة الأولى.

ومن ذلك وسع النبي ﷺ في دلالة عظمة الصدقة التي ينبغي أن يبذلها المسلم⁽³⁾ فقال: «تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض ضلالة لك صدقة، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلو أخيك لك صدقة وبصيرك للرجل الرديء البصر لك صدقة»⁽⁴⁾.

أي أن الزكاة تمرين للإنسان على أن يشعر بآلام الناس، ويتحسس أزمات المجتمع، ويبدل الجهد في تبديدها.

وعن الحج: يقول عز وجل: ﴿وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْرَدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾⁽⁵⁾ فترك الرفث والجدال والفسوق في الحج هو

(1) - أخرجه الحاكم في المستدرک، کتاب الإيمان رقم 199 ص 128/1، وقال هذا حديثه على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند السيدة عائشة ح 24639، ج 6/ ص 90.

(2) - سورة التوبة، آية 103.

(3) - محمد الغزالي: خلق المسلم، المصدر السابق، ص 8.

(4) - أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ضائع المعروف، ح 1956، ص 478 وقال الترمذي حديث حسن غريب.

(5) - سورة البقرة، آية 197.

سمو النفس والتجرد لله، والتعلق به دون سواه وهي العقيدة الصحيحة.

و كما يرى الغزالي فإن الحج، رحلة لترويض الإنسان على أدب اللسان والعفة: إننا نريد أن نجعل من الأمة الإسلامية في هذه الرحلة أمة تتعلم أن تكون أمينة على شئائها وفضائلها، لأن السفر يكشف الأخلاق ويبلو المعادن فلا رفت ولا فسوق ولا جدال في الحج⁽¹⁾.

و بعد هذا العرض الوجيز لأركان الإسلام وما تحمله من معان خلقية يوضح فيها درجة تساوي الإيمان مع الخلق، فالخلق يعد مقياسا لكامل إيمان المرء وفي هذا يقول النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا»⁽²⁾.

و بهذا فلا غرابة أن يعد حسن الخلق سببا لنيل رضا الله وجزاءه لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾^(١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴿٣﴾.

كما يعد سببا لنيل محبة الرسول الكريم، ولقربه من مجلسه يوم القيامة حيث قال: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم عني الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون»⁽⁴⁾.

و يلخص الغزالي أثر العبادات على الخلق فيقول: "والأخلاق ليست نباتا طفيليا ينمو وحده، وإنما هي غرس تختار له التربة، ويتعهد بالسقي والتهذيب، ويمحى من الأوبئة والحشرات إلى أن ينضج ويؤتى ثمره"⁽⁵⁾، فالخلق لا يتكون فجأة، ولا يولد قويا ناضجا رغم فطرة الإنسان

(1) - عبد القادر نور: حديث الاثنين للشيخ محمد الغزالي: دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، دت، ص 109.

(2) - أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه: ح 2612 ص 616، وقال الترمذي حديث حسن.

(3) - سورة الكهف، الآيت: 106-108.

(4) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاني الأخلاق ح 2018، ص 488: وقال "حديث حسن غريب".

(5) - علاء الدين وحيد: محمد الغزالي وتحطيم القيود، مرجع سابق، ص 169.

الطيبة – بل يتكون على مكث وينضج بالدوام من خلال حسن عبادة الله، والإقبال على طاعاته والابتعاد عن كل ما نفى عنه. كما أن الأخلاق بحاجة إلى رعاية دائمة من عناصر البيئة كلها، في البيت والشارع والمدرسة والإعلام والدولة.

و رغم تباين العبادات في جوهرها ومظهرها، إلا أنها تلتقي عند الغاية التي رسمها الرسول وبعث من أجلها في قوله: «إنما بعثت لأتم مكار الأخلاق» فهي دارج الكمال المنشود وروافد التطهر الذي يصون الحياة ويعلي شأنها⁽¹⁾.

الأخلاق في منطق الغزالي:

ويقصد به حقيقة الأخلاق عند الغزالي، حيث يرى: أن العبادة الأولى هي معرفة الله معرفة صحيحة والعقل المستنير بهذه المعرفة هو القائد الواعي لكل سلوك صحيح، والأساس المكين لكل معاملة نقية " ويوم تتلاشى هذه المعرفة من لب الإنسان، فلن يصح له دين، ولن تقوم له فضيلة"⁽²⁾.

فإذا لم يكن الدين كبحا للهوى، وامتلاكاً للطبع فلا خير فيه، ولا جدوى منه، وقد أكد القرآن الكريم، أن تزكية النفس الإنسانية هي الغاية من شتى التكاليف، والتزكية لمنشودة هي التربية الصحيحة، والتي يقصد بها تصفية المعدن الإنساني من شوائبه، وجعل الغرائز كلها تحت رقابة العقل المؤمن فلا تطغى ولا تجمح⁽³⁾.

إلا أنه بالنظر إلى الواقع نلاحظ ضعفا كبيرا في جانب الأخلاق عندنا، وبذلك نحتاج إلى كثير من اليقظة والتعهد، وفي هذا يتساءل الغزالي في العديد من كتبه⁽⁴⁾ عن أخلاق المسلمين، قائلا: إن العملة المتداولة اليوم في ميادين الحياة إنما هي " الأخلاق" وهي لغة عالمية تتفاهم بها الشعوب على اختلافها، وتتحاكم إلى منطقتها وربما اختلفت تقاليد وأحكام، ولكن الأخلاق

(1) – محمد الغزالي: خلق المسلم، المصدر السابق، ص 9.

(2) – محمد الغزالي: ليس من الإسلام، مصدر سابق، ص 167.

(3) – محمد الغزالي: بواطن الفكري بين ميزان الشرع والعقل، مصدر سابق ص 67، وأنظر: خلق المسلم، ص 28.

(4) – أنظر: خلق المسلم، عقيدة المسلم، ثراتنا الفكري بين ميزان العمل، دستور الوحدة الثقافية.

تظل، مرتكزة على ما أودع الله في الفطرة من تحسين الحسن وتقييح القبيح فأين رصيدنا كمسلمين من هذه العملة المبدولة بين الناس؟⁽¹⁾، ونبينا القائل: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

و في نظر الغزالي أن هزيمة الأمة الإسلامية في العصر الحالي لا يرجع إلى العجز الصناعي والعسكري كما يرى البعض بقدر ما هو شلل عضوي في أجهزتها الخلقية؟ وملكاتها النفسية، فالمجتمعات الإسلامية تشبه، أحياء انقطع عنها التيار الكهربائي فغرقت في الظلام، إذ كان لابد من إصلاح الخلل⁽²⁾ رغم أن تعاليم الإسلام تقرر أن الدين والخلق قرينان متلازمان، بحيث إذا ثبت الإيمان وصحت العبادات ازدهرت الفضائل وحسن الخلق، وتعامل الناس بشرف ونبيل وتراحم وصدق، ولقد كان لباقي المسلمين الأوائل قدوة أخلاقية، ونماذج تجسد فيها الشرف والصدق والإخلاص، فتصدروا بذلك القافلة البشرية عن جدارة.

و لعل تميز الحضارة في الإسلام عن غيرها، في كون الأخلاق حارسا على الحضارة المادية لكي لا تطغى ولا تتجاوز حدودها الإنسانية، إذ أن أساس القيم الحضارية في الإسلام هو الحرص على كرامة الإنسان، فهو محورها، بل لأن مفهوم الحضارة في القرآن هي تلك الروح السامية من الفضائل والخصال الأخلاقية الطيبة التي تعكس نفسها في سائر النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات؟ من استقرار وسلوك سوي، وتأدب، وتألّق، ورغبة في العمران وتطوير آليات النظم الحياتية، وترقية البنية الثقافية العلمية.

في حين إذا نظرنا إلى الحضارة الحديثة، نرى تقدمها في ميادين الكشوف العلمية والكونية، فانشغلت المطابع في نشر ألوف الصحف والكتب، والكهرباء في إنشاء دور الإذاعة في تسخير الأقمار الصناعية. لمزيد من العلم والمعرفة فهل كان ذلك تقدما إنسانيا حقا؟⁽³⁾ بل هو الفساد في

(1) -محمد الغزالي: الطريق من هنا، مصدر سابق، ص51. أنظر: بتاغت الفكري في ميزان الشرع والعقل، وأيضاً: حديث الاثنين وأنظر خلق المسلم.

(2) -محمد الغزالي: الطريق من هنا، مصدر سابق، ص 45.

(3) -محمد الغزالي: بتاغت الفكري مصدر سابق، ص 87.

البر والبر، وانتشرت الشهوات والمظالم أمام هذا التقدم، ما يجعلنا نقف عند قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْمًا فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾.

و سبب الخلل كما يتصور الغزالي في أخلاق المسلمين، هو نقص العناية بالجانب النفسي والأخلاقي في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وأيضاً ربط المسلمين بالعقيدة بالسلوك؛ إذ في الوقت الذي حظيت فيه مختلف جوانب الثقافة من فقهه، وتفسير و حديث وغيرها بالعناية الكبيرة وبالتأليف المكثف، كان الجانب النفسي والأخلاقي مغموط الحق، منقوص الاهتمام ولهذا تساءل الغزالي عن سبب تفاوت العناية بين الموضوع - مثلاً - في فقه العبادات والجانب الأخلاقي قائلاً: "لماذا نؤلف مثلاً كتب كبيرة في الموضوع لها طابع علمي محدد؟ ولا نؤلف هذه الكتب العلمية في الإخلاص والتوكل والتقوى والأمانة والصبر والحب... وأكاد أقول، إن الأعمال الظاهرة من عبادة ومعاملة ما تصدق وتكمل إلا إذا انسقت وراءها هذه المعاني الباطنية، وتخلت مسالك الفؤاد، ولذلك يجب أن تطرق موضوعاتها بكثرة ودقة"⁽²⁾.

و لقد أدرك الغزالي أن انشغال أمننا، بفروع الفقه أكثر من انشغالها بالتربية الأخلاقية، هو في خلل من بناءها الروحي والاجتماعي، أوجد أجيالاً من المتنطعين لا يخشون معاشاً ولا معاداً³، لذا نجد الغزالي كثيراً ما يستنكر على بعض المنتسبين إلى الدين، الذين يقيمون العبادات ويرتكبون أعمالاً يرفضها الخلق الكريم والإيمان الحق. وفي هذا ورد عن النبي ﷺ أن رجلاً قال: "يا رسول الله إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وقيامها وصدققتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. فقال: «هي في النار»⁽⁴⁾، فالإيمان والعبادة والأخلاق عناصر متماسكة لا يستطيع أحد تمزيق عراها⁽⁵⁾.

(1)-سورة الجاثية، آية 23.

(2)-محمد الغزالي: الجانب العاطفي من الإسلام مصدر سابق، ص 3-4

(3)-محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين، ص 71.

(4)-رواه أحمد في مسنده بسند أبي هريرة رضي الله عنه، 440/2، ح: 9673. وقال شعيب الأرنؤوط إسناده حسن.

(5)-محمد الغزالي: المصدر نفسه ص 10-11.

و لأن الغزالي يؤمن بأن الإيمان قوة عاصمة عن الدنيا، دافعة إلى مكارم الأخلاق، يرى أن الرجل الذي يؤدي جيرانه يحكم عليه الدين حكما قاسيا ليقول الرسول ﷺ فيه: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: "الذي لا يؤمن من جاره بوائقه" (1).
و تقريرا أيضا لهذه المبادئ الواضحة في صلة الإيمان بالخلق القويم يقول النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإذا صام وصلى وحج واعتمر، وقال، إني مسلم: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان». ولقد حرص الغزالي على تأكيد هذه المعاني العظيمة مستشهد بقول النبي ﷺ فيما يرويه عن أنس: «إن العبد ليلبغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وأشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة، وإنه ليلبغ سوء خلقه أسفل درجة في جهنم» (2).

كما يشير الغزالي أن الإسلام يحذر من جفاء القلوب وسوء علاقتها بالله، فتتحول بذلك العبادات إلى عادات، والأذكار إلى أورد ميتة (3) لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (4).

فالتعبير اللفظي، والقلب القاسي، والتبلى أمام آلام البشر من وراء الهزائم الكبيرة التي لحقت بالإيمان والأخلاق في هذا العصر، والغزالي يأسف كثيرا لحال أخلاق المسلمين الذين لم يجمعوا من عناصر التربية والأخلاق التي من شأنها أن تنبت الأمة في مغارسها، وتؤدي على رسالتها، في وقت تعربد فيه شياطين الإنس والجن، ويكاد الهوى ينفرد بزمام العالم (5) في هذا يقول: "وكثير من

(1) -أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، ج 73، ص 25، دار ابن الهيثم بيروت لبنان، دط 1422-2001.

(2) -أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ج 754، ح 1 ص 260 مكتبة العلوم والحكم، ط 2 (1404-1983) ت: أحمد بن عبد المجيد السلفي.

(3) -محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين، مصدر سابق، ص 73.

(4) -سورة الحديد آية 16.

(5) -محمد الغزالي: بتاتل الفكري، المصدر السابق، ص 95.

العابدين يباشرون العبادة كأنهما استعارات من خارج الجو الذي يعيشون فيه، استعارات مجلوبة على النفوس، فارغة من معناها كله، أو جلّه والحق أن العبادة التي أمر الله بها. وخلق العالمين من أجلها شأن فوق ذلك، إنها شعور مكتمل العناصر، يبدأ بالمعرفة العقلية، ثم الانفعال الوجداني ثم بالتزوع السلوكي، فالصورة الأخيرة ثمرة ما قبلها، وهذا هو شأن الوضع الصحيح لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإحسان الخلق وقول الحق وسائر العبادات⁽¹⁾، وبهذا المفهوم نجد الغزالي قد قسم الأخلاق إلى قسمين أخلاق ربانية وأخلاق إنسانية:

الأخلاق الربانية: يرى الغزالي أنها العناصر الحقيقية للإيمان، بعد معرفة الله وأسمائه الحسنی وصفاته العلا، هي التي تحدد علاقة المؤمن بربه، وتكفل له توثيق صلته بالله عز وجل، وفي هذا يقول: "تلك الأخلاق الثمانية أحصيناها هي عناصر حقيقية للإيمان، وهي بعد معرفة الله وأسمائه الحسنی وصفاته العلا التي تحدد علاقة المؤمن بربه، لترك المباحث التي أضافها البعض إلى علم العقيدة فهي أقرب إلى اللغو منها إلى من الجد"⁽²⁾ وهذه نظرة تجديدية تحدد المنهج السليم لعلم العقيدة ورغم أن الغزالي أشار إلى ضرورة وأهمية الكثير من الأخلاق الإنسانية. كالصدق والأمانة والوفاء والشرف والعفة والقناعة وغيرها⁽³⁾، إلا أننا نجد على الأخلاق الربانية والتي نذكر منها:

1 خشية الله: يقول الغزالي في هذا الخلق: "والخوف من الله عاطفة تتسع من حسن معرفته، وكمال العلم له فهي ليست وجلا مبهما لا يدري مأناه، أو نتائجه بل الخوف شعور واضح بجلال الخلاق العليم وما ينبغي إكناؤه له من مهابة⁽⁴⁾ وإعظام فالخشية من الله من عناصر الإيمان كما يوضح الغزالي ذلك أن العديد من الآيات القرآنية توثق الصلة بين الخوف والإيمان لقوله

(1)-محمد الغزالي: ليس من الإسلام، مصدر سابق، ص 107.

(2)-محمد الغزالي: ليس من الإسلام، مصدر سابق، ص 98.

(3)-محمد الغزالي: تراثنا الفكري، المصدر نفسه، ص 99.

(4)-محمد الغزالي: الجانب العاطفي من الإسلام، مصدر سابق، ص 282.

تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَخَّرُوا مِنَ الْيَمِينِ إِنَّهَا هِيَ الْوَالِدُ وَحِدٌ فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾⁽¹⁾، كما أن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾⁽²⁾ يدل على ارتباط الخشية والخوف من الله بمقدار معرفة الإنسان وإدراكه لشتى العلوم، وكلما توثقت صلته بالمعارف وترسخت ازداد إيمانه بربه، لذا يرى الغزالي أن يكون هذا الخلق أولى الأخلاق المتقلبة للأجيال المسلمة، حتى ينشأ جيلاً تقياً، يقظ الضمير⁽³⁾، ولقد وعد الله عبادهم الخائفين من الجزاء لقوله تعالى: ﴿لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾⁽⁴⁾ وهذه من سنن الله في خلقه بأن يكون النصر لمن يخشى الله ويخافه⁽⁵⁾.

2 رجاء الله مع خشية الله تعالى، يجب أن يتحلى الفرد بخلق الرجاء في الله والثقة بعونه وتوفيقه، وليست الحاجة إلى الرجاء قاصرة على فرد بل إن الأفراد والجماعات كما يقول الغزالي يحتاجون إلى الرجاء والدعاء في جهادهم لأنفسهم وجهادهم للناس، فلا شيء أقتل للنفس من فقدان الأمل وغلبة القنوط وانكسار الإرادة⁽⁶⁾.

ولهذا يبين الغزالي أن ما لحق بالمسلمين من قعود واستسلام لظروف التخلف راجع إلى ضياع الرجاء في الله تعالى. وفقدان الأمل فيما عنده، وعليهم إن أرادوا استعادة حضارتهم أن يستعينوا بهذا الخلق، ولكن وفق شروط مضبوطة: "فإن الرجاء في الله تعالى وحسن الظن به، إنما يقبلان إذا اقترنا بالعمل الواجب، وصحبه الإسراع في حق الله تعالى والسهر على مرضاته، أما البطالة والاسترخاء فلا مكان لرجاء، ولا موضع لحسن الظن"⁽⁷⁾.

(1) -سورة النحل آية 51.

(2) -سورة فاطر آية 28.

(3) -محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين، مصدر سابق، ص 64

(4) -سورة إبراهيم آيتين: 13-14.

(5) -محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين مصدر سابق ص 106-108

(6) -المصدر نفسه، ص 65.

(7) -محمد الغزالي: الجانب العاطفي من الإسلام مصدر سابق ص 300.

3 حب الله: يرى الغزالي أن هذا الخلق ضروري في اكتسابه، فهو ليس صفة كمال، أو درجة عليا يقتصر نبلها على بعض العابدين دون سواه من عامة الناس، كما يعتقد ذلك جمهور المسلمين، بل هو من الأمور المشروطة لحسن إيمان الإنسان، بل إن فقدانه فسوق ويغلب أن ينتهي إلى الكفر البواح⁽¹⁾، وتمثل أهمية هذا الخلق بالنسبة للمسلم بالنظر إلى الأسباب المؤدية إليه والتمثلة في:

أ- أن الله عز وجل أهل لكل حب فهو ولي النعم التي شملت حياة الناس وغمرتهم لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَكُومُ مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴾⁽²⁾.

ب- أن النفس الإنسانية تبهرها العظمة، ويعجبها العظماء، ويسرها الإقبال عليهم والتودد إليه، والله عز وجل له الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر، فإن كان يتصور أن بحب الإنسان قادرا لكمال قدرته، وعظيما لجلال عظمته، فلا يستحق الحب في ذلك إلا الله عز وجل.

ت- أن صفات الله كلها تتم عن كونه أهل الحق المطلق الذي لا دلالة، فهو المتره عن النقائص والمقدس عن العيوب⁽³⁾.

4 ذكر الله: إن الإنسان الذي يخشى الله ويرجوه وبجبه لا يغفل عن ذكره، لأن كما قال الغزالي: " ذكر الله تجديد أو توكيد لمعرفته الأولى بعد الإيمان... والإنسان في هذه الدنيا محتاج إلى مذكر دائم ليستديم معرفته لربه، وإلا نسي وطال عليه النسيان فجهل"⁽⁴⁾ ولقد لاحظ الغزالي أن العصر الحالي، هو أفقر العصور إلى معرفة الذكر، بركونهم إلى حاجاتهم الدنيوية فتناسوا بعدهم عن ذكر الله، والذكر الواجب تلقينه للأجيال المسلمة⁽⁵⁾ ليس مجدد تجمع في حلقات وتريد لكلمات، ولكنه عملية عقلية روحية تعيد الانتباه وتجلو الصدا وتترد لليقين قوته وأثره" فيتحقق

(1)-المصدر نفسه، ص 300.

(2)-سورة النحل آية 53.

(3)-محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين، مصدر سابق، ص 300.

(4)-المصدر نفسه، ص 69-70.

(5)-المصدر نفسه، ص 70.

بذلك الغاية من هذا الذكر وهي الطمأنينة والأمن لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (1).

5 المتوكل على الله: إن المؤمن الناضج الاعتقاد يتجاوب مع قول الرجل الصالح: ﴿وَأَفِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (2)، فمن نصب فؤاده من التفويض إلى الله فقد الأخلاق الربانية ولكن المؤمن يقول كما قال هود لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ (3)، فمن خلا قلبه من هذا التوكل فقد أيضا دعامة من معالم الربانية وانطلق في الحياة محصورا داخل نفسه (4).

أما الأخلاق الإنسانية كما ذكرنا فأطلق عليها هذا الاسم لأنها في نظره تشمل المسلمين وغيرهم وهي كالصدق والأمانة والوفاء والشرف، والعفة (5) والقناعة وغيرها، وأضداد هذه الصفات، كما يرى الغزالي هي أركان النفاق كما جاء في الحديث الشريف، والغريب كما لاحظ أن الفجور في الخصومة والعبث بالعقود والعهود، والاستهانة، بالكلمة، والاضاعة للأمانات كلها تكاد تكون عادات مألوفة بين الكثيرين، على حين نجد أتباع ملل أخرى يتحرون في معاملاتهم وسالكهم مكارم الأخلاق يترفعون عن الفوضى والاسفاف والتسبيب (6).

و عندما نظر الغزالي في تراث العظماء قال: "لم أحد أغنى ولا أذكى ولا أوسع، ولا أرفع مما تركه محمد ﷺ في الأخلاق، فما الذي باعد الأمة عن تراثها وزحزحها عن قواعدها (7).

(1) - الرعد، 28.

(2) - سورة غافر، الآية: 44.

(3) - سورة هود، الآية: 56.

(4) - محمد الغزالي: تراثنا الفكري في ميزان الشرع، مصدر سابق، ص 98.

(5) - المصدر نفسه، ص 98.

(6) - محمد الغزالي: تراثنا الفكري في ميزان الشرع، مصدر سابق، ص 99.

(7) - مصدر نفسه ص 99.

و يلخص الغزالي علاقة هذه الأخلاق بالإيمان ذلك بلغت النظر أن الإيمان هبة إلهية خالصة للإنسان فيها ذات الله تعالى ووجوده، وفيها ما يقوله الله، وما يريد، وبما يرى المؤمن كل شيء في الوجود، ابتداء من ذاته (نفسه) المسندة في وجودها وحياتها على الله وحس الكون الكبير من حوله، ثم يتجاوز ذلك كله ليرى ما غاب عنه فيراه أوضح وأجلي من رؤيته بعينه، فنور الإيمان إذا ينهي إلى صون المعاني التي بها سمي الإنسان إنساناً، كالصدق والإخلاص والمحبة والرضا، والحياء والشكر، وكل خلق حسن، كما أن نور الإيمان هو مناط التكليف، فإذا آمن الإنسان بالله، فإنه يعطيه وثيقة دعم وقوة من الله وتوكل عليه⁽¹⁾، ولعل ما يقصده الغزالي بالأخلاق وعلاقتها بالإيمان هو ما يسمى بالتصوف، الذي كان في بدايته ممارسة سليمة للأخلاق القرآنية والتركية النفسية.

المطلب الثالث: التصوف وحقيقته

حقيقة التصوف: تعدد التعريف الاصطلاحي للتصوف، وتنوع في المصادر الصوفية، إذ ما يلاحظ عليها - وهي كثيرة جداً - تتمحور حول جملة من السلوكيات، ومن العلاقات بين الصوفي وذاته، وبين الصوفي ومجتمعه وبيئته وبين خالقه.

وإذا أردنا اختصار التعريفات التي وردت في حقيقة التصوف، نقول ما قاله الكثير من المتصوفة أن التصوف هو: أخلاقاً مقتدية بالشرع في ظاهرها هدفها تصفية الباطن ليدرك صاحبها (الصوفي) الحقائق⁽²⁾، ولكن وقع فيه ما وقع وهو ما بينه الغزالي بقوله: "لقد فزع العامة إلى علوم التصوف يستكملون منها ما عز عليهم إدراكه في علم الكلام"⁽³⁾ فكان بذلك التصوف هو الملجأ الذي لجأ إليه المسلمون لاستكمال ما فقدوه في جفاف علم الكلام، الذي أَرْضَى عقول البعض وأفقر عاطفتهم تجاه خالقهم، إلا أن قرارهم كما ذكر الغزالي، كان أشبه بالذي استجار من الرضاء بالنار ذلك: "أن التصوف ميدان كثير المزالق وشطحات السائرين فيه أكثر من سدادهم،

(1) -محمد الغزالي: الجانب العاطفي من الإسلام، مصدر سابق، ص 226.

(2) -القشيري في رسالته، والجرجاني في التعريفات، تحقيق: عبد المنعم حنفي، دار الرشد، القاهرة، دط، ص 74.

(3) -محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 8.

ولا شك أن هذا العلم (علم التصوف) أنعش عاطفة الحب الإلهي، وربط قلوب الناس ربطاً رقيقاً ببديع السماوات والأرض، إلا أن مخاطر الشغل به تجعلنا نتوجس منه⁽¹⁾.

ورغم إقرار الغزالي بمشروعية هذا الجانب من الثقافة الإسلامية، ودوره فيها، إلا أنه له مأخذ عليه، وهو يدرك تماماً الآفات التي أصابته من الفكر الدخيل وفي هذا يقول موضحاً: "وقد قرأت مع غيري ونحن طلاباً، كتاب العقائد النسفية في علم التوحيد، وقرأت مع غيري كتاب ابن عجيبة الذي شرح حكم ابن عطاء الله في التصوف، وقرأت في المجالين كتباً شتى، وشعرت في آخر المطاف بأن هناك نفائس مبعثرة وسط قممات كثيرة، فقلت: حبذا لو ميزنا الخبيث من الطيب في هذا الخلط الكثيف.. إننا بحاجة إلى علم تدرس فيه طرق تحويل الحقائق الدينية النظرية إلى خلق لازم، وعمل دائم، وأسلوب في الحياة معروف الهدف، مشوق الخطوات⁽²⁾."

فالتصوف بدأ بممارسة سليمة للأخلاق القرآنية، ثم اعترته ظروف شتى، من مفاهيم غريبة دخيلة، ونظريات تسربت من خرافات الهنود والنصارى، وفي هذا يقول: "وبعد أن طال عليه الأمد، اختلط بأحوال كثيرة، وتسلفت إليه الأفكار ذاتها التي تسلفت إلى النصرانية من الوثنية الهندية، حتى أن البعض آثر الإعراض عن هذا التراث كله... لكثرة ما طفح في كتب القوم من دخيل وأباطيل"⁽³⁾، لكن الغزالي أراد تنقية التصوف من الممارسات والفهوم الخاطئة التي تسلفت إليه. ولا يقصد من وراء ذلك إلا العودة به إلى جوهر التعاليم الأخلاقية السامية التي دعا إليها الرسول ﷺ وطبقها، فغرسها في الجيل الأول.

فلقد صبغ التصوف برسوم العبادات التي ليست من الإسلام، بعد دخول النصارى والمجوس والبوذيين للإسلام، فأنجرف بذلك عن المسار الصحيح وهنا يقول: "إن تسرب البدع والأفكار الأجنبية في الزهد جاء مع دخول الجماهير الهائلة من النصارى والمجوس والبوذيين وغير هؤلاء وأولئك في الإسلام، واستصحابهم بعض الموارث والعادات التي قلما يتخلص أصحابها منها إلا

(1)-المصدر نفسه ص 8.

(2)-محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، مصدر سابق، ص 112.

(3)-المصدر نفسه، ص 138.

بعد أمد يطول أو يقصر"⁽¹⁾، كما استحدثت الصوفية نتاجا لها، الاعتقاد بالأولياء فرجموا هذه الأمة ودينها.

لذا نجد الغزالي يحرس على تبيان الخرافات في التصوف وآثارها على أحوال الأمة، لأنها أكثر التصاقا بواقع عامة الناس. فتغليب جانب العاطفة على العقل أدى إلى الممارسة الخرافية والتي يغديها التصوف الشارد عن الضوابط الشرعية، إذ أن صدق العاطفة ليس عذرا للخلط العلمي ولا للقول في دين الله بالهوى والرأي، فإن للإسلام ينابيع معروفة تؤخذ أحكامه منها وحدها، ولا يؤذن لبشر بالتزويد عليها أو الإنقاص منها⁽²⁾.

فالاعتقاد في الخرافات - التي ليس للعقل دور فيها- أدى إلى الممارسة الخاطئة للتصوف التي انتشرت بين الصوفية خاصة والناس عامة، وكأن الإسلام يقوم على الخرافات، بيد أنه دين عقل وحق وصواب وفي هذا يقول الغزالي عنه: "هو مد خيمة الغيبات لتشمل مساحة واسعة من عالم الشهادة، حتى كأن الدين حارس طبيعي لطلسمات والخرافات أو كأنه خصم لدور المنطق العلمي اللذود"⁽³⁾.

ومن أخطر علل التصوف، والتي سعى الغزالي إلى تصحيحها، وعلاجها، تلك المعاني التي نقلها الصوفية، وقد قبلت في غير الله ليعبروا بها عن وجدانياتهم كاستعمال مثلا أبيات شعرية في الغزل وفي وصف الأشياء المادية، وفي هذا فتح لأبواب التجسيد والتشبيه وحلول وإساءة الأدب مع الله الحق تعالى وغيرها: وكذلك ترويج الصوفية لعقيدة الجبر...، ونزهم الدنيا، والترويج لثقافة الفقر وغيرها.

لذا نجد الغزالي ينتقد هذا النوع من التصوف بشدة لأنه يراه عاملا فعالا في تعطيل الإرادة البشرية، وجعل الإنسان مشدودا بخيوط إلهية - كما يعتقد الصوفية - تجره إلى مصير مجهول،

(1)-محمد الغزالي: ليس من الإسلام، مصدر سابق، ص100.

(2)-أنظر محمد الغزالي: الجانب العاطفي من الإسلام.

(3)-محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، مصدر سابق، ص87.

بعلومهم المعروفة بعلوم القلوب، ورجالها تائهون وسط أفكار⁽¹⁾ وفلسفات سقيمة، أما الأتباع فالتصوف عندهم رقص تمتاز به الأبدان وتموت فيه العقول والأفئدة .

فالفصل بين العقل والقلب في التعامل مع أحكام الإسلام، خلل تجلوز الخلل المنهجي في التعامل مع مصادر التلقي، إلى أن أصبح خللا تربويا له آثاره السيئة والمدمرة لفاعلية الإسلام، وقد رتقا على صناعة الأشخاص والتاريخ والحضارات، وهنا يشير الغزالي إلى خطر هذا الفصل قائلا: " إن الانفصال كان طبيعيا بين العلم والحكم، لأن أغلب الحكام قذفت بهم الوراثة، ولو كانوا من غير مؤهلات، ولم يقل احد إن الله جعل العبقرية في ذرية معينة، ومع أن هذا الانفصال مصيبة فادحة، إلا أن المصيبة الأفدح كانت في الانفصال بين الفقه والتربية، أو بين علوم الشريعة والتصوف...، إن الإنسان الكامل يقوم بقلبه وعقله جميعا، فالدكاء مع خبث الطوية شر، وسلامة الصدر مع الجهالة والغفلة شر".

كما أشار الغزالي في كثير من كتبه إلى أن بيئة التصوف لما حرمت من الفقه، امتلأت بالأوهام والترهات وأفسدت الأمة، وبيئة الفقه - بدورها - لما حرمت صدق العلاقة بالله وقوة الثقة فيه، غلبت عليها الصنعة وطلب الدنيا.

و رغم أن الغزالي يؤمن بأن التصوف له دوره في التربية والترقية الروحية الذي عجز عن أدائها علماء العقيدة والفقه، بعد أن تحول علم العقيدة إلى جدل عقيم خال من الأبعاد الروحية، وتحول الفقه إلى الخوض في مسائل دون إدراك لروحها كما يقول: " بيد أن الإنصاف يدفعني إلى القول أن هذا الجانب المهم من الثقافة الإسلامية، لم يلق العناية المستحقة لدى جمهرة الفقهاء والمسلمين، وأن المتصوفة برغم شطحاتهم وغلاطاتهم هم الذين أفاضوا في هذا الحديث، إن فقهاءنا كتبوا المجلدات في غسل الأطراف، ما كان يعيهم أن يتناولوا هذا الجانب، وأن يضبطوه بأدلتهم الفقهية، وإن المسلمين الذين عقدوا الفصول الخطيرة في الشؤون الإلهية، المعيبة، ما كان يعيهم أن يحبوا الناس في الله ويرفعوهم إلى حضرته بأسلوب علمي محكم - لقد كان ذلك - والله أجلى

(1) - محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، المصدر السابق، ص 145.

على الإسلام وأهله من بحوثهم العميقة في الذات والصفات"⁽¹⁾.

ولذلك لو استقرنا تاريخ التصوف في الإسلام، فإننا نقر أن نشأته لا ترتد فقط إلى ظاهرة الفساد الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية، وإنما تعود - بشكل جلي - إلى ظاهرة العقلنة المسرفة، التي تجلت في علم الكلام والفلسفة على حد سواء، والواقع أن علم الكلام الذي خاض معارك مجيدة في وجه خصوم الإسلام، وحفظه للعقيدة الإسلامية تماسكها وصرامتها وأصولها الراسخة، قد كان عاجزا على أن يقوم بدور حيوي فعال في الحياة الروحية والاجتماعية للإنسان المسلم، ولعل من المفاهيم الخاطئة والخطيرة في الممارسات الصوفية، والتي كان لها أثرها السيئ على الفهم والتطبيق في حياة المسلمين ما نذكر منها.

مفهوم الحقيقة والشريعة: هذا المفهوم الذي عرفته الممارسة الصوفية كتمييز بين الخاصة أصحاب الحقيقة والعامّة أصحاب الشريعة، وقد كان هذا المفهوم سببا كافيا لفتح باب الخرافات، ومن المفيد أن نذكر هنا رأي الغزالي في هذه القضية حيث يقول: "إن الحقيقة... أن يتطابق الفؤاد مع اللسان عند ذكر الله وأن تتعاقب الروح مع الجسد عند الانقياد لأمره، فالحقيقة هي أن يلتزم المسلم بشريعة مبنية ومعنى، وأن ينفعل بتعالّمها لبا وقلبا وجسدا، وأن يرقى إلى مستواها فكرا وعاطفة وسلوكا... وهذه هي الحقيقة التي تحدث عنها علماء التصوف ورجال التربية"⁽²⁾.

فليست الحقيقة كما يعرفها ابن عجيبة في شرح عطاء الله الإسكندر حيث يقول: "الأعمال عند أهل الفن يعني فن التصوف على ثلاثة أقسام: عمل الشريعة، وعمل الطريقة، وعمل الحقيقة أو تقول: عمل الإسلام، وعمل الأيمان، وعمل الإحسان، أو تقول أهل البداية، وأهل الوسط وعمل أهل النهاية، والطريقة أن تقصده والحقيقة أن تشهد، أو تقول: الشريعة لإصلاح الظاهر والطريقة لإصلاح الغائر والحقيقة لإصلاح السرائر"⁽³⁾.

و هذا كلام مضطرب مدخول، في تصور الغزالي يقوم على التلاعب بالألفاظ والعبث

(1)-المصدر نفسه، ص 94.

(2)-محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، المصدر السابق، ص 121.

(3)- المصدر نفسه، ص 122-123.

بالمفاهيم، فإن الشريعة إصلاح للظاهر والباطن معا، وهي عبادة دينية وإحسان، فلا يغنيك أحد هذه العناصر عن الآخر، فليس في دين الله أهل شريعة، وأهل حقيقة وإلا انقسم الوحي الإلهي إلى فريق لهؤلاء وفريق لأولئك⁽¹⁾.

ويمكن أن نستخلص من مفهوم الحقيقة والشريعة عند المتصوف، فصلا ظاهرا بين الإنسان وشريعته، بين باطنه وظاهره، فلا نجد في هذا المفهوم صلة بين ما أمر الله الاعتقاد به، وبين ما أمر بتطبيقه، والواقع أن القرآن الكريم ينقل الإيمان من ميدان التصورات النظرية إلى ميدان الشعور الحي المأنوس بالواقع.

ولذا يرى الغزالي الحاجة الملحة في إصلاح مناهج التكية على ضوء ما عرفته الممارسة الصحيحة في سيرة النبي ﷺ وصحابته الكرام وتنشئة أجيال لا يفصلون بين الإيمان والخلق، ولا بين العبادة والعمل.

مفهوم التصوف عند الغزالي:

التصوف في نظره هو علم يبعث الحياة في الإيمان ويزكي النفس ويعطي المعنى الأصح للوجود الإنساني، ولقد عبر عنه في كتبه بـ"التصوف الصحيح" وأحيانا بـ"التصوف الذي نريده"، وهو كما قال: "ما كان فيه الإيمان شعورا نفسيا وعقلا واعيا وقلبا يتحرك، ونظرا متعمقا إلى الوجود الصغير، ونفسا زكية، مستجمعة للفضائل متزهة عن الرذائل"⁽²⁾. إن هذه المعاني استقاها الغزالي من القرآن والسنة، وسعى إلى تمثيلها في حياته وغرسها بين المسلمين.

و يفصل الغزالي في مفهومه للتصوف أنه: " نزعة إنسانية عامة تلتقي فيها الطبيعة النفسية لبعض الناس مع طبيعة الإيمان العميق بأي دين" حيث يقول: " عندما انسلخ التصوف عن الفقه، ظهر فقهاء قلوبهم في منتهى القسوى كأنهم جماد، بينما ظهر متصوفة ذوو قلوب رفيعة ولا عقل

(1)-المصدر نفسه، ص 121.

(2)-محمد الغزالي: ركائز الإيمان، المصدر السابق، ص 188.

لهم، لكننا نريد العقل والقلب معا"⁽¹⁾، وأنظر إلى سيدنا موسى عندما قال له ربه: لماذا جئت مسرعاً وتركت قومك، رغم أنني قلت لك أن تأتي معاً... فلماذا جئت بمفردك؟ فيقول له ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾⁽²⁾ فيقول سيدنا موسى: ﴿قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾⁽³⁾ فهنا عاطفة تعبر عن القرب إلى الله وعن مفهوم التصوف.

ولقد كانت عاطفة رسول الله ﷺ ممتدة، فكان ذا عاطفة جياشة لأنه ذاق حلاوة الإيمان بالله ربا وبالإسلام ديناً، حيث حول الإيمان من حقيقة منطقية عقلية جافة إلى شيء جميل ولين وعظيم.

وعند تمنع الغزالي في سورة النحل يجد فيها المعاني الحقيقية في تزكية النفس (التصوف) فيقول: "وانظر في سورة النمل فأجد تناولا يستحق أن تقف عنده مدهوشاً ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾⁽⁴⁾، فمعنى البهجة التي تشع في أرجاء النفس عندما ترى منظر الخضرة شيء يلفت النظر، ويزيد العاطفة" ويضيف قائلاً: "والذي أراه أن الإيمان الذي يصوغه القرآن في النفس ليرفع به مستوى الإنسان إلى أن يكون ذواقاً لما في آفاق الأرض والسماوات من نواحي الجمال، ولا يتم إيمان إنسان إلا إذا نظر إلى الكون على أنه هذه الصفحات التي يبدو فيها الجمال الإلهي والمجد الإلهي، وفي نظري أن الله عز وجل عندما أقسم بالليل والنهار وبالصبح والظهر والعصر والقمر والسماوات وبالوالد والمولود، وبالنفس يقسم بها لكي يلفت نظرنا إلى أن الكون موضوعاً كبيراً لمعاني كثيرة"⁽⁵⁾.

(1) -المصدر نفسه ص 138.

(2) -سورة طه آية 83.

(3) -سورة طه آية 84.

(4) -سورة النمل، الآية: 60.

(5) -أنظر مجلة المسلم المعاصر حوار مع الشيخ محمد الغالي، ع58، 1991، ص 102، 103.

و فعلا إن هذه المعاني المستوحاة من الكون، لا بد أن يدركها العقل وتتلقاها الأنفس إذ يرى الغزالي أن هذا النظر المتعمق في الكون، وعظمته بهجة للنفس والقلب يشيع فيها الاطمئنان وهو نوع من التزكية الروحية وبعث للخلق الحسن.

فالتصوف كما يتصوره الغزالي: علم يبعث الحياة في الإيمان، ويزكي النفس ويعرف الإنسان بحقيقة وجوده. وهنا تبرز أهمية القلب المسلم فيما ذكره القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾⁽¹⁾، ما تبرز أهمية العقل السليم فيما قاله أهل جهنم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾⁽²⁾.

و من هنا يبدو ضروريا تميز المنهج الإسلامي بالجمع الوثيق بين العقل والقلب⁽³⁾، إلا أن كليهما في حاجة إلى موازين ضابطة تحقق تكاملهما.

و هنا يقول الغزالي "فنحن في حاجة إلى حب الله-بيقين- لكن هذا (الحب) يجب أن تحكمه الضوابط العبادية، والشرعية ولا يكون مجرد عاطفة هائجة بعيدة عن الشريعة التي حددها الله طريقا لحيته ورضاه ورحمته"⁽⁴⁾.

فعلم التصوف يدرس أساس الحب في الله وعاطفة الإحسان " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، إلا أن مستوى الإحسان الذي هو لب التصوف وهو قمة الخلق الحسن، لم يأخذ حقه من الدراسة والاهتمام عند الكثير من الصوفية، والغزالي يوضح حقيقة التصوف إذ يقول: " ما كان عليه تصوف فلسفي، ومن أبطاله محي الدين بن عزمي، وابن سبعين، وابن الفارض والحلاج"، وتصوف أخلاقي أو عبادي مثل الشاذلية، والقادرية، وهؤلاء أناس طيبون، ولكنهم ليسوا على مستوى تصوفهم وربما لا يلتزم كثير منهم بحدود الكتاب والسنة، أما

(1)-سورة الشعراء آية 88، 89

(2)-سورة الملك، آية: 10.

(3)-سنفصل الحديث في الفصل الثالث.

(4)-عبد الحليم عويس: الشيخ محمد الغزالي تاريخ، وجهوده، وآرائه، دمشق دار القلم ص 56.

التصوف الفلسفي ففيه أكاذيب⁽¹⁾.

وعليه فإذا أردنا إحياء التصوف، فليس بالطريقة التي هو عليها الآن، بل عن طريق أناس يحبون التصوف، بطريقة مختلفة عن الكلام الموجود في الكتب الآن، والإسلام بريء منها، بل يجب أن تغربل في ضوء القرآن والسنة، ذلك أن البدع والشوائب التي كانت في التصوف، تسببت للمسلمين في كوارث في تاريخهم، تشويههم للإسلام، وصرفهم إلى الإلحاد والعلمانية والانحراف المادي.

ويرى الغزالي أن التصوف الحق الملتزم بالكتاب والسنة يمكن أن يقترب بصاحبه من مرتبة الإحسان وهي المرتبة التي سمي بها التصوف (علم الإحسان)، كما يطلق عليه (علم القلوب)، أو الجانب العاطفي وهو يقتدى بذلك في إطلاق هذه التسميات بـابن تيمية، في كتابه "الفتاوى الكبرى" وابن القيم في كتابه "مدارج السالكين شرح منازل السائرين"⁽²⁾.

و يدعوا الغزالي إلى التشبع بالزاد الروحي والوجداني الموجود في تراثنا الثقافي، وهو محدد تحديدا حسنا في كتاب ابن تيمية وابن القيم وهما رجلان من أعمدة العلم السلفي، كما يرى أن سبب فشل بعض الدعاة إلى الله في دعوتهم، هو اهتمامهم بالقضايا التافهة نتيجة لهذا الفراغ القلبي حيث يقول الغزالي: "ففي التصوف زهور كثيرة يمكن أن تجمع وتفيد في علوم التربية والنفس والأخلاق، فرفض التصوف كله مرفوض، كما أن قبوله بما يحتشد به من أعشاب ضارة وأشواك دامية مرفوض أيضا"⁽³⁾ ويأسف الغزالي لظهور صنفين من المسلمين - نتيجة كما سبق ذكره - على طريفي نقيض، والإسلام يأبى مسلكها وهما: صنف نلمس في قلبه عاطفة حارة ورغبة في الله وحبا لرسوله إلا أنه ضعيف البصر بأحكام الكتاب والسنة، يعلم منها القليل، وصنف نلمس في عقله ذكاء، وفي علمه سعته، وفي قوله بلاغة، يعرف الصواب في أغلب الأحكام الشرعية مؤديا للعبادات ولكنه غليظ القلب باديء الجفوة، مستعليا بما أوتي من إدراك للعقل، وهنا يضيف

(1)-محمد الغزالي: الجانب العاطفي من الإسلام، ص 12.

(2)-عبدالحليم عويس: الشيخ محمد الغالي، تاريخ وجهوده وآرائه، المرجع السابق، ص 57، 58.

(3)-محمد الغزالي: الجانب العاطفي من الإسلام، مصدر سابق، ص 12

الغزالي مبينا في وضوح: " إلا أن المسلم الكامل رجل نير الذهن والقلب حاد البصر والبصيرة معا، تتعاقب فكرته وعاطفته في معاملته لله، ومعاملته للناس، فلا تدري أيها أسبق، صدق أدبه أم حسن معرفته ولا تدري أيها أروح؟ خصوبة نفسه الجياشة أم فطانة عقله اللماح⁽¹⁾ .

التصوف كما يريده الغزالي:

يؤمن الغزالي أنه لا يصلح دين إلا بأمرين هما: العقل السليم والقلب، فقد يكون للصوفية الحب لله، لكن خروج أكثرهم عن العقل، وعن سنن الله، واعتقادهم بالخرافات تحبط أعمالهم، كما قد يكون لعلماء الكلام والفلاسفة القوة في العقل تبعدهم عن جوهر الدين، إلا أن الإسلام بشموله واعتداله، وجمعه بين العقل والقلب، يرفض هذا التدين المغشوش المنحرف، إذ عندما يحتل الميزان يضيع العقل أو يضيع القلب، فأهمية القلب السليم في الإيمان تتجلى في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾⁽²⁾ وأهمية العقل السليم تبرز في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٣﴾﴾⁽³⁾.

من هذه الآيتين يبدو لنا أن لا إسلام ولا إيمان بلا عقل، كما أنه لا إسلام ولا إيمان بلا قلب، إلا أن كليهما في حاجة إلى موازين تحقق تكاملهما وانسجامهما حتى يتحقق التدين الصحيح فعاطفة الحب الإلهي تصنع الكثير إذا لم تكن مجرد عاطفة هائجة بعيدة عن الشريعة التي حددها الله طريقا لحبه، وأن يحكمها عقل ضابط غير مسرف.

فالصوفي الذي يجارب الأخذ بالأسباب، ويتعاس على بعض النشاطات يكون بعيدا عن العقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح ذلك أن المسلم لا يكون كاملا إلا إذا كان نير العقل والقلب معا، حاد البصر والبصيرة معا تتعاقب فكرته وعاطفته في معاملته مع الحياة والكون.

و هذه الصفات هي مشتقة من طبيعة الإسلام نفسه، فهو دين يبني عقائده من ناحية

(1)-المصدر نفسه، ص13.

(2)-سورة الشعراء، الآيتين: 88-89.

(3)-سورة الملك، آية: 10.

الصحة العقلية، على أسس فكرية تشبه البديهيات في علوم الرياضيات، إذ أن الركائز العقلية لهذا الدين ثابتة فيما شرع من معاملات عامة، وفيما يعرض له من مشكلات وقضايا متجددة.

و إلى جانب هذا فالإسلام دين عبادة تقوم على سلامة القلب، وشحنه بالحب والأدب والإخلاص، ويجمع الغزالي هذين الجانبين في فكره وقوله: "ودين الإنسان ينقص بقدر ما يصحب عاطفته الحارة من نقص علمي أو عجز فكري"⁽¹⁾.

فالجانب العاطفي للإسلام كما يسميه الغزالي - وهو (التصوف) أساس لا يمكن إنكاره في الفكر الإسلامي الصحيح إذا كان مربوط بشرطين:

1 - أن يعتمد على الكتاب والسنة.

2 - أن يكون منسجما مع العقل الصحيح بعيدا عن البدع والخرافات⁽²⁾.

و هنا تكمن الصلة بين العقيدة كجانب نظري وبين التصوف كجانب وجداني.

فاستقلالية العقل كما هو الحال في علم الكلام نتج عنها إيمان غامض "فاترا" واستقلالية القلب عن العقل، نتج عنها إيمان مبهم تغلبه الخرافات، وفي هذا يقول الغزالي: "إن الإيمان الغامض قليل الجدوى والإيمان الفاتر أعجز من أن يهيمن على السلوك والواقع أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يحتلوا مكانة القمة، ولم يغيروا التاريخ الإنساني وقيموا حكما مكان حكم وأخلاقا مكان أخلاق، إلا لقربهم من حياة الرسول واقتباسهم من سناه وسريان الإخلاص في قلبه إلى قلوبهم، وحب الله من فؤاده إلى أفئدتهم"⁽³⁾.

و الذي نستنتجه من هذا القول، أن هدف الغزالي من الجمع بين العقل والقلب، هو أن يتشكل لدى المسلم إيمان مبني على اليقين مهيم على السلوك، محرك للعمل الذي يستطيع به أن يحتل مكان القمة - كما احتلها أسلافه - فيغير التاريخ بفاعليته ويصنع الحضارات.

(1)-محمد الغزالي: الجانب العاطفي من الإسلام، مصدر سابق، ص 11-13.

(2)-عبد الحليم عويس، الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراءه، مرجع سابق، ص 60.

(3)-محمد الغزالي: فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة دط، دت، ص 27.

فالربط إذا يعنى التفاعل المزدوج مع حقائق الإسلام، عاطفة، وفكرا وانفعالا يقينا، ويقظة ذهنية، وهذا ما يقصده الغزالي بقوله " التصوف الذي نريده " فهو الإيمان بالله عاطفة وفكرا، والحقيقة، أن هذا المنهج هو الذي سلكه القرآن في عرض العقيدة الإسلامية وذلك بإثارة العقل والوجدان لتثبيتها في قلوب الناس، ومثال ذلك ما بينه الغزالي في عرض القرآن الكريم لحقيقة الألوهية بما تتضمنه من إثبات لوجود الله تعالى وذكر لأسمائه الحسنی فيقول: " لقد ذكر القرآن الكريم أسماء الله الحسنی مئات المرات في تضاعيف قصصه وتشريعہ، ووصفه لمشاهد الكون، ومشاهد البعث، ورفض أن يكون الثناء على الله فطريا لا يتحرك به فؤاد ولا يرضى به سلوك، ثم ترجم النبي العابد محمد ﷺ هذا المنهج في نواحي حياته كلها فصار إنسانا ربانيا ترنو بصيرته إلى الله، ويأشر كل شيء في الدنيا باسمه كأنه منه على مرأى ومسمع"⁽¹⁾.

و لعل هذا المعنى نفسه نجد عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا

مُتَشَبِّهًا مِثْلَ بَدِيعِ قُرْآنٍ مُّحْسِنٍ ﴿٢٣﴾ وَمَنْ يُّضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٤﴾ "فيقول" الغزالي: "والآية تشير إلى أن القرآن لا يحتوي على مباحث نظرية مجردة، أو قضايا من اختلاف الترف العقلي، كلا هذا الكتاب يعرف الناس برهم على أساس من إثارة العقل، وتعميق النظر، ثم يحول هذه المعرفة إلى مهابة الله ويقظة في الضمير، ووجل من التقصير واستعداد للحساب، هناك أفكار أرضية تبديء وتعيد في نطاق الحمأ المسنون، أما القرآن فهو يدع الناس يمشون في الأرض بعد أن يجعل رؤوسهم في السماء"⁽³⁾. وبناء على هذا فإن الغزالي يتصور الإسلام المكتمل بأنه ليس نظرية علمية، اقتصادية، وليس فكرة مجردة عن الله مهما كانت صحتها وقد رتقا على الاستدلال، بل إنه يقوم على العقل ويرحب بالفكر الجيد، يحث على الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملا وتأملا، مع ذلك فإنه دين يعقد الإيمان عاطفة دافعة بالحب والبر.

(1)-محمد الغزالي: فن الذكر والدعاء، مصدر سابق، ص 16

(2)-سورة الزمر آية 23.

(3)-محمد الغزالي: المحاور الخمسة، مصدر سابق ص 149.

و من المتعذر كما يقول الغزالي - الفصل بين الاستنارة الفكرية، والهداية النفسية، إذ يتعجب إلى وجود ناس لهم عقول ذكية وسيرة هابطة؟ فهذا التناقض - كما يرى - ضرب¹ من

الجنون وقد أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ

الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾⁽²⁾. يضيف موضحاً أكثر: " نعم فالمفروض أن صحة التفكير تستتبع

صحة التصوف لكن هذه البديهية عندما تنتقل إلى عالم التطبيق يعترضها من العوائق ما يعترض التيار الكهربائي عندما تعترضه مواد عازلة، والدين الحق شفاء من هذه العلل، فهو عقل مستقيم،

وضمير حي، أما الثروة الطائلة من النظريات والفقر المدقع في المشاعر النبيلة فليس تدينا مقبولاً"⁽³⁾

وفي هذا نقراً للغزالي تساؤلات في كتابه " ركائز الإيمان " أراد من خلالها تبيان نظريته للتصوف

الصحيح، والتي كان قد أجاب عنها وأكدها في العديد من كتبه نذكر منها: كيف يحقق هذا

التدين؟ كيف نجعل اليقين يتزل من السطح ليشتبك بالأعماق " كيف تحول معرفة الله إلى مذاق

حلو يطبع النفوس على الرقة ويضفي السرائر من كدرها؟ كيف نجعل المرء مشتاقاً إلى ربه، فهو

ببواعث من أشواقه بطبعه ويسارع إلى مرضاته. كيف يشهد المرء ربه في مجال السموات

والأرض، وشهد أسمائه الحسنی فيما يقع من حركة وسكون على امتداد الزمان والمكان؟⁽⁴⁾ إنه لا

يتم إيمان لا يخسر دين إلا إذا أحسنا الإجابة على هذا التساؤل

و من خلال ما سبق تبيانه، فإننا نجد الغزالي يزاوج بين إجلاء الداء ووصف الدواء، وبين

عرض المشكلة واقتراح لها، وعليه فإنه يخلص في نظريته إلى التصوف الصحيح، بقوله: " الموضوع

الفريد والصحيح للتصوف الإسلامي يتكون من ثلاثة عناصر:

أولها: جعل الإيمان الفطري شعور نفسياً عامراً وتحويله من عقل يتصور إلى قلب يعي

ويتحرك.

(1)-محمد الغزالي: ركائز الإيمان، مصدر سابق ص 203.

(2)-سورة البقرة الآية 44.

(3)-محمد الغزالي: ركائز الإيمان، المصدر السابق، ص 104.

(4)-المصدر نفسه، ص 105.

ثانيها: تهذيب النفس على ضوء -نسبها الإلهي- حتى تكون بنمائها واكتمالها أهلا للعبودية، ومقتضى ذلك أن يكون الإنسان مستجمعا للفصائل مترها عن الرذائل حتى يرشحه هذا التلقي لقبول الله ورضوانه.

و آخرها النظر إلى الوجود الصغير في هذه الحياة على أنه جزء من الوجود الكبير الممتد بعد الموت، فلا اعتزاز بالدنيا ولا استيحاش من الله ولا ضيق بالعودة إليه، وهذه العناصر معروفة في سيرة الرسول وأصحابه، بل معروفة في سيرة الأنبياء وحوار بينهم على اختلاف العصور.

و نختتم حديثنا عن سعي الغزالي للربط بين العقيدة والتصوف، وبين العقل والقلب بقوله الهادف هذا: "ليست قيمة الإنسان فيما يصل إليه من حقائق وما يهتدي إليه من أفكار سامية، ولكن في أن تكون الأفكار السامية هي نفسه، وهي عمله، وهي حياته الخارجية كما أنها حياته الداخلية"⁽¹⁾.

(1) -محمد الغزالي: ركائز الإيمان، مصدر سابق، ص 114.

الفصل الثالث:

فكر الغزالي ومواجهة التحديات

بالمعاصرة

المبحث الأول: أسس منهجه العقدي

المبحث الثاني: مواجهة التحديات الداخلية

المبحث الثالث: مواجهة التحديات الخارجية

المبحث الأول: أسس منهجه العقدي

نلمس من خلال كتب الغزالي أن مصادر المعرفة عنده، تشمل في القراءتين، قراءة الوحي وقراءة الوجود، حيث أنهما من عند الله لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾⁽¹⁾، وعندما أمرنا الله بالتعرف عن الحق، أمرنا بقراءة الوجود والواقع من حولنا، وقراءة الوحي لقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾⁽²⁾، وقد كانت هاتين القراءتين مقياساً للغزالي في تعامله مع كل نتاج فكري سواء كان من عند المسلمين أو من غيرهم، فلا تناقض في رأيه بين كتاب الله المسطور وكتابه المنظور، خاصة وأنه لم يقع بتييف ولا تحريف كما وقع في الأديان السابقة، ووقع الصراع بين العلم والدين.

والحقيقة أن المشروع الفكري للغزالي، ومنه العقدي يرتكز على ركائز هي: الكتاب والسنة، والعقل والوجدان، والعلم، والواقعية، مع الاستعانة بالتاريخ. هذا ما نكشف عنه في هذا المبحث.

1 القرآن الكريم

كيف تعامل الغزالي مع القرآن الكريم

يؤمن الغزالي أن الوحي الإلهي وهو القرآن والسنة، هو المرجعية العليا والقاعدة التأسيسية الذي انبثق منها وتفاعل معها الجهد المعرفي في الحضارة الإسلامية، فعلم الكلام والعقائد، وعلوم الفلسفة وعلم الفقه وأصوله، وعلوم التفسير وعلم الأخلاق والتصوف وعلوم اللغة، كل هذه العلوم وغيرها، كان القرآن الكريم المحور الذي يتحرك حوله، وقد سعى العلماء باختلافهم لتحري مداركه، وتفهم معانيه، واستنباط لأحكامه، وتقصى لمقاصده، بهدف التعبير عن حقائق

(1) - سورة الأعراف، الآية: 54.

(2) - سورة العلق، الآيات: 1-5.

القرآن فكرا ونظرا وتجسيد قيمه، ومثله إيمانا وسلوكا.

والواضح من تتبع السيرة الذاتية للغزالي - كما سبق ذكره - أن أول محطة في حياته العلمية، كانت القرآن الكريم، أين نشأ أول اتصال بينه وبين كتاب الله عز وجل، والذي سأتطرق إلى أهم ما ميزه

أ - حفظه القرآن الكريم: حفظ الغزالي القرآن، وهو طفل صغير، ويعود الفضل إلى والده، إلا أن الغزالي الذي تمكن في غضون خمس سنوات من حفظ القرآن الكريم، وجد نفسه بعد مدة قد نسيه تماما وفي ذلك يقول: "دخلت معهد الإسكندرية الديني، عقب انتهاء مرحلة الكتاب، وبعد بضع سنين كنت قد نسيت القرآن كله، وضاعت جهود أهلي"⁽¹⁾.

فما كان منه إلا الإصرار على إعادة العلاقة بينه وبين كتاب الله، والحرص على توثيقها من جديد قائلا: "أدركتني نعمة من رحمة الله، فعزمت أن أمهر في القرآن مرة أخرى، وضللت أكافح في هذا السبيل نحو خمس سنين طوال كنت أقرأ الربع نحو عشر مرات ومع ذلك يعز علي حفظه، وكاد اليأس يغامرني، ولكني صابرت الأيام، وتحملت العناء ورجوت الخير"⁽²⁾، وبهذا الكفاح تمكن الغزالي من استرجاع توثيق علاقته بالقرآن الكريم بإعادة حفظه من جديد.

تدبره للقرآن الكريم: وبعد أن أتم الغزالي حفظ القرآن ظل يتلوه، وهو لا يعي معانيه، ولا يدرك حقيقة مضامينه، لأن حفظ الطفل - بداهة - ينصب على الشكل دون الموضوع، ويبني على الألفاظ دون المعاني، ومع مرور الأيام والسنين، وتعمق الوعي الفكري لديه، ورسوخه في مختلف العلوم والمعارف واكتسابه لرصيد معتبر من التجارب في شتى الميادين، والمواقف، أيقن الغزالي مدى أهمية هذا الكتاب العظيم، وأدرك أنه ليس كتاب للتلاوة والتعبد فحسب، بل إنه الكتاب الوحيد الذي تمكن أتباعه بقيادة رسولهم الكريم من إقامة أكبر وأعظم دولة، وحضارة إسلامية، وبالتالي فإن هذه المكانة تفرض على أتباعه، بعد تلاوتهم له أن يتعهدوه بالدراسة والتدبر

(1) - محمد الغزالي: نظرات في القرآن، شركة الشهاب، الجزائر (د ط د ت) ص 268.

(2) - المصدر نفسه، ص 269.

والتحليل، حتى يقفوا على عوامل نجاح الجيل الأول وأسباب بلوغه قمة المجد⁽¹⁾.

و من هنا توطدت صلة الغزالي بالقرآن الكريم، وازدادت صحبته له، بالتلاوة والتمعن والتفقه في آياته وسوره، حتى طبعت أعماله وأقواله بما، وعن نفسه يقول: "لقد صحبت القرآن الكريم من طفولتي وحفظته في سن العاشرة، وما زلت أقرأه وأنا في العقد الثامن من العمر"⁽²⁾.
و لقد شهد له يوسف القرضاوي بقوله: "الشيخ الغزالي رجل قرآني... ولم أره احتاج إلى المصحف الشريف للقراءة أو للمراجعة إنما مصحفه صدره"⁽³⁾.

كما فقه الغزالي قوله تعالى: ﴿ كُنْزٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو

الْأَلْبَابِ ﴾⁽⁴⁾، كما يقول عنه أيضا رفيق دربه القرضاوي "فهو مع القرآن أبدا يديم القراءة له، والتأمل فيه والتدبر لآياته"⁽⁵⁾.

فلم تفتقر صحبة الغزالي للقرآن على مر السنين، ولم تكن الأيام تزيدها إلا قوة وتماسكا، بدت آثارها جليلة في قدرته الفائقة على قراءة مختلف التجارب والقضايا المعاصرة في ضوء القرآن الكريم، وتمكنه من الاستشهاد الدقيق في شتى المواضيع والمسائل العقديّة التي يطرقها بالآيات الكريمة، بالإضافة إلى تأكيده المستمر على مدى أهمية القرآن، وتضمنه لكل المعايير والأسباب التي تكفل للأفراد والمجتمعات عقيدة سليمة، وحياة راقية متكاملة بفضل معالجته لشتى ميادين الحياة، العقائدية، أو المعنوية أو النفسية كما قال: "إن هذا القرآن وفر للنهضة الإسلامية من عناصر الوجود والاكتمال ما لا تستطيع صنعه ألف وزارة للدعاية، تُجند فيها لتغذية العواطف والآراء ألف الأقلام الداعية والألسنة الحادة"⁽⁶⁾، وقوله هذا تأكيد على أن مواقف وآرائه العقديّة وغيرها

(1)-المصدر نفسه، ص 270.

(2)- محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، مصدر سابق، ج 1، ص 5.

(3)-يوسف القرضاوي: الشيخ محمد الغزالي كما عرفته، مرجع سابق، ص 19.

(4)-سورة ص، آية 29.

(5)-يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص 131.

(6)-محمد الغزالي: نظرات في القرآن، مصدر سابق، ص 130.

مستمدة من فهمه للقرآن الذي كان سنده في معركته ضد التخلف والذهول الحضاري، والتيه الفكري والعقائدي الذي آل إليه المسلمون، فلقد سعى - كما سبق تناوله - إلى تصحيح المفاهيم العقائدية الخاطئة، على ضوء القرآن وتجديدها على هديه.

تعريف الغزالي للقرآن: للغزالي تعريفات كثيرة للقرآن الكريم، وأقرب ما وجدته مناسبة لهذا المقام قوله: " القرآن كتاب عقائد وأخلاق وعبادات ومعاملات، وحديثه عن الأحياء وتاريخه هو قبل كل شيء للإيقاظ والهداية، وحديثه عن الكون وآياته هو لدعم الإيمان، وأخذ

العبرة وترشيد السلوك⁽¹⁾: ﴿ طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾⁽²⁾.

درس الغزالي القرآن وأدرك أنه لا يحتوي على مباحث نظرية مجردة بل هو كتاب يعرف الناس برهم وعقيدتهم، بإثارة العقل وتعميق النظر، وإحياء القلب، حتى تتحول هذه المعرفة إلى الهداية وترشيد للسلوك.

الغزالي والتفسير الموضوعي: وانطلاقاً من دعوته إلى ضرورة القراءة الصحيحة للكتاب والسنة، والتي تتمثل في القراءة الشاملة التي لا تجزيء الفهم، اتجه الغزالي إلى التفسير الموضوعي، وتجاوز التفسير الموضوعي والتجزئي، الذي كان شائعاً عبر التاريخ الثقافي الإسلامي كما أنه تبني المنهج الفكري الذي يحقق القراءة الصحيحة، فألف كتابه: "المحاور الخمسة للقرآن الكريم".

وفي نظره أن التفسير الموضوعي يطلق على نوعين جديدين من خدمة القرآن: أولهما تتبع قضية ما في القرآن كله، وشرحها على ضوء الوحي، والآخر النظر المتغلغل في السورة الواحدة لمعرفة المحور الذي تدور عليه، والخيوط الخفية التي تجعل أولها تمهيداً لآخرها، وآخرها تصديقا لأولها، فتكون صورة عاجلة لملامح الصورة كلها⁽³⁾.

(1)-محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، مصدر سابق، ص 208.

(2)-سورة النمل، آيتين: 1-3.

(3)-محمد الغزالي: تراثنا الفكري بين الشرع والعقل، مصدر سابق، ص 128-129.

ففي تصوره أيضا أن الوعي بمعاني القرآن وأهدافه يعطي الإطار العام للرسالة الإسلامية، ويبين الأهم ثم المهم، من التعاليم الواردة، كما يعين على تثبيت السنن في مواضعها الصحيحة وفي هذا يقول " والإنسان الموصول بالقرآن دقيق النظر إلى الكون خبير بإزدهار الحضارات وانهارها، نير الذهن بالأسماء الحسنى والصفات العلاء، حاضر الحس بمشاهد القيامة، وما وراءها مشدود إلى أركان الأخلاق والسلوك، ومعاهد الإيمان، وذلك كله وفق نسب لا يطغى بعضها على بعض وعندما يضم إلى ذلك السنن الصحاح مفسرة للقرآن و متممة لهداياته فقد أوتى رشده⁽¹⁾.

وفي هذا المقام نعرض نموذجا لهذا التفسير الموضوعي لبعض آيات سورة الفاتحة⁽²⁾: حيث يفسرها الغزالي بأكثر سورة الحمد، هي من قصار السور ولكنها أم الكتاب وأعظم سورة، فقد تضمنت هذه السورة خلاصة وجيزة لعقائد الإسلام، وعهدا وثيقا بين الناس وربهم يحقق رسالاتهم في الوجود ورجاء في الله أن يهدي الطريق ويمنح التوفيق وينعم بالرضا.

الحمد لفظ تلتقي فيه معاني ثلاثة فهو ثناء يكشف عن أمجاد الذات العليا من جلال وجمال وكمال وهو مديح ما تنال من عطاء ونعماء وجاد بها ولي النعم وهو شكر يقابل الخير النازل والفضل الكبير.

" رب العالمين " سيد العوالم كلها من العرش إلى العرش من السماء إلى الأرض من الحيوان إلى النبات من الملائكة إلى البشر والعالم ما عدا الله من خلق وما عدا الله محبوب له فقير إليه فما عدا الله عبد له، صنيعه نعمته ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَّاتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾⁽³⁾.

" الرحمن الرحيم " نحن في رحمته نعيش، والرحمة والعلم يسعان كل شيء ولو لا أن الله

(1) -محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار المعرفة، الجزائر، دط، ص 12.

(2) -محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، مصدر سابق، ج 1، ص 5-9.

³ سورة الجاثية، الآيتين: 36-37.

غفور رحيم لفتكت بنا معاصينا وقضي علينا ببحودنا وطغياننا"⁽¹⁾.

"ملك يوم الدين" المقصود بالدين الجزاء وهو بداية العالم الآخر، وهو المقابل لعالمنا المعاصر والحضارة المادية المسيطرة على الحياة الآن قلما تذكره بل لعلها ترى من الهزل ذكرى هي تعتمد نسيانه في ميادين التربية والتشريع وسياسته الدولية والمحلية مع أنه الحقيقة العظمى التي لا بد من ذكرها .

" إياك نعبد وإياك نستعين" نعبدك وحدك بالله ونستعين بك لا بغيرك فكل محتاج إليك كما جاء في السنة: «اللهم اعني عن ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»، "إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله».

" إهدنا صراط المستقيم" الخط المستقيم أقصر طريق بين نقطتين ولذلك لا يتعدى ومن استقام اهتدى إلى الله ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁽²⁾ ودين الله واحد بلغة الأنبياء على اختلاف الأعصار والأمصار أساسه إله واحد له الولاء وله الشاء يفتقر إليه أهل الأرض وأهل السماء ولعل هذه النقطة منار الخلاف بين أتباع الأديان المعاصرة لكن المسلمون يوقنون أن ما عدا الله عبدا له خاضع يحكم لأمره في الدنيا والآخرة⁽³⁾.

ويخلص الغزالي في تفسيره لهذه السورة إلى أنه في سطور قليلة تم تصوير العلاقة الوحيدة الممكنة بين الناس ورب الناس الاعتراف به والثناء عليه والاستعداد للقائه والتعهد بعبوديته ثم الرجاء إليه أن يجعلنا كما يحب⁽⁴⁾، وبهذا الفهم، فقد تميز الغزالي باستدلالاته الكثيرة من القرآن الكريم، وهو يتناول قضية أو يعرض موقف ما في المجال العقائدي.

نماذج لاستدلالات الغزالي من القرآن الكريم في العقائد:

¹ محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، مصدر سابق، ج1، ص 5-9.

² سورة هود، الآية: 56.

⁽³⁾ - محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، المصدر السابق، ج1، ص 5-6.

⁽⁴⁾ -المصدر نفسه، ج1، ص 8-9.

تمنى الغزالي لو أن المسلمين استقوا عقائدهم تصورا وتصويرا من القرآن وحده، لأراحوا غيرهم واستراحوا وكان لهم عاصم من كل المزالق التي وقع فيها بعض هواة الجدل في قضايا العقيدة حتى ظلوا عن أصول الإيمان وفي هذا يقول الغزالي وهو يفسر القرآن: "مع أسلوب القرآن في الحديث عن الله وعن الخلق أمضي وهو أسلوب يشبع العقل والقلب أما الذين أمضوا قلوبهم الجدل والتطاول أو أمضوا عقولهم التخيل والتفكير فإنني أرى كل الإباء أن أكثر بهم" (1) إلا أنه نجده يتناول استدلالهم العقلية في بعض القضايا التي تقتضي هذا المنهج، ومنها:

1 توحيد الله : ذكر الغزالي أنه عندما جاء الرسل بتوحيد الله قبلوا بحرب شعواء كما جاء

في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدْرَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ أَبَاؤُنَا فَأَنَّا بِمَا تَعَدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (2).

إلى جانب هذا الشرك وجدت فئة تنكر الألوهية، وإذا كانت هذه الفئة قليلة آنذاك ففي العصر الحاضر كثروا كثرة شديدة ولسان حالهم في العالم شرقه وغربه قوله تعالى: ﴿ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (3) كما أنهم أنكروا الوحي ﴿ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (4).

و كان موقف القرآن اتجاه هؤلاء في الحديث عن توحيد الله أن يمزج بين أمرين (5) بين فقر العالم إلى الله وقيامه به واستمداد الوجود منه وبين تبيان أن هذا الخالق المدبر لا شريك ولا ند له. من انس أو جن، لقوله تعالى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى

(1) -محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكر، مصدر سابق، ص 12.

(2) -سورة الأعراف، الآية 70.

(3) -سورة المؤمنون، الآية 37.

(4) -سورة المؤمنون، الآية 38.

(5) - محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، مصدر سابق، ص 20.

أَسْتَوَى ﴿١﴾، وعندما سأل فرعون سيدنا موسى عليه السلام عن كنه الله، كان الجواب الفذ إن الله يعرف بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا وآثاره التي يستحيل أن تنسب لغيره قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَدَكَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُم إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ (٢).

كما يذكر الغزالي أنه يكفي أن يتحدث رب العالمين عن نفسه، فيمحو باطلهم في سياق من العظمة والجلال (٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٤). والمتدبر لحديث القرآن عن الله يلمس براهين الوجود الأعلى مع إغفال مقصود لمنكري

هذا الوجود فجاء قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَِّيَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (٥) وفي مواطن أخرى وضع القرآن الكريم أن هذه الألهة المزعومة (٦) إنما هي أسماء ليست لها تسميات، وأوهام وأكاذيب ليست تحتها حقائق لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا

(١) - سورة طه، الآية: 6.

(٢) - سورة طه، الآيات 49-55.

(٣) - محمد الغزالي: المحاور الخمس للقرآن الكريم، المصدر السابق، ص 21.

(٤) - سورة غافر، الآية: 56.

(٥) - سورة الزمر الآيتان 62-64.

(٦) - محمد الغزالي: المحاور الخمس للقرآن الكريم، المصدر السابق، ص 25.

وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿١﴾.

و يخلص الغزالي بالقول إلى أن رسالة التوحيد لم تبلغ للناس كما يجب، ولو بلغت بمنطق القرآن والعقل لما صد عنها أحد بفطرته السليمة وعقله الواعي.

مسألة القدر والجبر:

وقفنا في الفصل السابق على موقف الغزالي من القضاء والقدر، وكيف كان معتدلاً فيه⁽²⁾، وهو يمضي كما قال: "مع أسلوب القرآن الذي يشبع العقل والقلب. و نتناول هنا بعض استدلالاته من القرآن الكريم في هذه المسألة، فعندما يقرر القرآن أن العلم الإلهي مسطور في كتاب ضابط محيط يستشهد بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾⁽³⁾.

وهذا الكتاب يضم عالمي الغيب والشهادة لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾⁽⁴⁾. وعند تفصيل الله لمحتويات الكتاب يقول الله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ رِيقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَأْسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾⁽⁵⁾.

و يوضح الغزالي أن تفاصيل حياتنا ومواعيد وفاتنا بعض محتويات هذا الكتاب، فالله يعلم ما خلق ومن خلق⁶ كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

(1) -سورة الفرقان، آية 3.

(2) -أنظر المبحث الأول للفصل الثاني، ص 79 فما فوق.

(3) - سورة الحج، آية 70.

(4) -سورة سبأ، آية 3.

(5) -سورة الأنعام آية 59.

(6) -محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 103-104.

﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ (1).

و كل البشر يتحرك عن علم الله لقوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (2).

و لقد أمر الله المؤمنين أن يستكينوا لحقيقته ويتوكلوا عليه لقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (3).

وبناء على ما سبق ذكره، فإن الغزالي يخلص إلى القول أن البشر محكوم ومختار في آن واحد محكوم فيما وجد في كيانه والملابسات من حوله، ومختار في موقفه في هذه وتلك، لذلك شاء الله أن يخلقنا، ويكلفنا، وأن تكون لنا إرادة⁽⁴⁾ حرة وفي ذلك قوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (5) فالإنسان بجهد وكدحه ينجو أو يهلك، أما القول بأن كتاب سبق علينا، فهذا تضليل وتكذيب للقرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ (6) وتعلن الآية: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ (7) أن الإنسان له إرادة حرة في اختيار الإيمان والفكر بعقله، أما عقيدة أن الإنسان مجبور فهو تطويع بالوحي كله، وتزييف للنشاط الإنساني وكسر لعزيمته من بدء الخلق

(1) -سورة الملك، الآيات 13-14.

(2) -سورة الحديد، آية 22.

(3) -سورة التوبة، آية 51.

(4) -محمد الغزالي: المحاور الخمس للقرآن الكريم، مصدر سابق، ص 22. انظر: السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث، مصدر

سابق، ص 170-172.

(5) - سورة الملك، الآية 2.

(6) -سورة الأنعام، آية 104.

(7) -سورة الكهف، آية 29.

إلى قيام الساعة⁽¹⁾، إذ لو كان سعي الإنسان باطل في هذه الدنيا، فلماذا يقول الله عز وجل عن يوم الحساب: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آئِنَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَىٰ﴾⁽²⁾ وقول أيضا: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾⁽³⁾ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَىٰ ﴿٤١﴾﴾⁽³⁾.

و عند تدبر الغزالي للقرآن وجد أنه في تنقيته للعقائد قد وسع دائرة التوحيد داخل النفس — كما سبق ذكره — حتى يتيقن الإنسان أن لا وجود لشركاء يصنعون له مستقبله، بل في نفسه ثقة لربه مطمئن بإيمانه فيفيض بذلك يديه من غيره، حتى وإن دلته الحاجة فلا يتدرع لأحد عند قضائها وهو معتقد⁽⁴⁾ بقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾⁽⁵⁾ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾⁽⁵⁾ ﴿١١﴾.

و بناء على ما سبق ذكره يتبين أن الغزالي قدم للأمة الإسلامية تفسيرا جديدا للقرآن هو التفسير الموضوعي الذي يهتم اهتماما كبيرا بوحدة الموضوع في السورة وإن كثرت قضاياها⁶ وهو في هذا التفسير يطرح رؤية غير مسبوقه كما يقول: "قد ارتاد طريقا لم أسبق إليه افتتح به بابا من أبواب الخير والقرآن لا تنقضي عجائبه ولن نبلغ مهما بلغنا مداه وإن كان قد أشار إلى أنه تأسى بمحمد عبد الله دراز في تفسيره لسورة البقرة، حيث اعتبرها الغزالي أول تفسير موضوعي لسورة كاملة⁽⁷⁾.

وبهذه الرؤية التجديدية في هذا الميدان فإننا نلاحظ الغزالي قد عمل على تفسير آيات

(1) - محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 32-33.

(2) - سورة طه، آية 15.

(3) - سورة النجم الآيتان 39-41.

(4) - محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 34-35.

(5) - سورة الملك، آيتان 20-21.

(6) - محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، مصدر سابق، ص 5.

(7) - المصدر نفسه، ص 4.

العقائد تفسيراً موضوعياً ضمن تفسيره للقرآن كله فإنه ركز أيضاً على تصحيح التعامل مع القرآن في مجال العقائد حتى يوضحها ويزيل عنها المفاهيم الخاطئة.

المطلب الثاني الغزالي والسنة النبوية

نتناول في هذا المطلب موقف الغزالي من السنة النبوية، مع التركيز على الجوانب التي تم وتشمّل بحثنا، ذلك أن موقفه من السنة قد يتسع إلى دراسة موسعة ومعقدة.

تنقسم السنة باعتبار السند إلى قسمين عند الجمهور متواتر وآحاد، ولقد سار الغزالي على رأي الجمهور حيث يقول: "أن في السنة النبوية ما هو متواتر لفظاً ومعنى، وهذا النوع من السنن يشبه القرآن فيما أتى به من أحكام، ولا يمكن رده، وهو كثير في التراث النبوي، وعليه تقوم الكثرة الكاثرة من الأحكام المقررة، ليس بصحيح أن التواتر في السنة ضيق النطاق، ربما كان ذلك فيما تواتر لفظه، أو تواتر معناه فهو أساس مفردات فقهية كثيرة، والواقع أن أخبار الآحاد من الناحية العلمية لا تشكل مساحة كبيرة من السلوك الإسلامي المهم، فإن ما لا بد منه تكفلت به نصوص ثابتة بيقين"⁽¹⁾.

والجدير بالملاحظة أن الغزالي يرى أن مفردات فقهية كثيرة تعتمد على المتواتر، إذ المتواتر ليس ضيق النطاق كما يدعيه البعض، أما الأخبار الأحادية فلا تحتل مساحة واسعة وخبر الآحاد فيما يرى الغزالي يفيد الظن، ولا يفيد اليقين، وبالتالي فهو يعمل به في نطاق العمل أي الفروع. إن ما ذهب إليه الغزالي من أن خبر الواحد يفيد الظن، ولا يفيد القطع أي يفيد العمل دون العلم مؤسس على أمرين⁽²⁾:

1 - أن العقائد تبنى على اليقين لا على الظن

2 - أن أحاديث الآحاد - إن صححت - لا يفيد اليقين، بل تفيد الظن، والخبر التواتر هو الذي يفيد

(1) - محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الحديث وأهل الفقه، مصدر سابق، ص 54. انظر: هذا ديننا، ص 167. انظر:

الإسلام والطاقت المعطلة، مصدر سابق، ص 27.

(2) - يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته مرجع سابق ص 153.

اليقين.

ويقول محمد الغزالي: «لقد تخرجت في الأزهر من نصف قرن ومكثت في الدراسة بضع عشرة سنة، لم أعرف خلالها إلا أن حديث الأحادي يفيد الظن العلمي، وأنه دليل على الحكم الشرعي، ما لم يكن هناك دليل أقوى منه...، القول بأن حديث الآحاد يفيد اليقين - كما يفيد المتواتر - ضرب من المجازفة المرفوضة عقلا ونقلا»⁽¹⁾، وقد استشهد الغزالي على ذلك بنصوص لأستاذه محمود شلتوت وأقوال محمد عبده وغيرهما.

وفي أغلب محاوراته وردده على مخالفه، يؤكد موقفه من خبر الآحاد، فيقول: «وعلى أية حال فإن الإسلام تقوم عقائده على المتواتر النقلي والثابت العلمي، ولا عقيدة لدينا تقوم على خبر واحد، أو تخمين فكري»⁽²⁾.

وفي كل مرة يقرر هذه الحقيقة بصيغ مختلفة⁽³⁾، ويشاطره الرأي رمضان البوطي، الذي يؤكد بدوره أن الاحتجاج بالسنة في الإيمان والاعتقاد، لا بد أن تكون متواترة وذات دلالة واضحة، لا تخضع لاحتمال التأويل، فإذا كانت كذلك وجب الاعتقاد بمضمونها ذلك لأن الخبر المتواتر يأخذ حكم الثبوت القطعي، فإن كان واضح الدلالة، يأخذ حكم الفهم القطعي أيضا⁽⁴⁾.

ولا ينكر الغزالي أنه قد تحف بالخبر قرائن تعضده فيقول: «وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحديث الصحيح الأحادي قد تحف به قرائن مؤيدة ومؤكدة، فينتقل من درجة الظن إلى درجة القطع في الثبوت، وإلى ما يقرب منها، وربما كان هذا منطبقا على كثير من أحاديث الصحيحين، لكن لا يمكن تعميمها على جميعها»⁽⁵⁾.

(1) - محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مصدر سابق، ص 65. وانظر: محمد الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن، دار الانتفاضة، الجزائر، دط، دت، ص 170-171.

(2) - المصدر نفسه، ص 66.

(3) - محمد الغزالي: تراثنا الفكري...، مصدر سابق، ص 170-171.

(4) - السنة مصدر للتشريع ومنهج للاحتجاج بها، مجلة المسلم المعاصر، مؤسسة المسلم المعاصر والمعهد الإسلامي، ع 58،

1411هـ - 1990م، ص 28-29.

(5) - محمد الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن، مصدر سابق، ص 112.

فالحديث لا بد أن يعرض على معايير نقد المتن حتى ولو كان صحيح السند، بل الحديث الصحيح الأحادي ليس مقطوعا بصحته، سواء كان في الصحيحين أو في غيرهما، وصحته ثابتة بطريق غلبة الظن ما دام غير متواتر، ولا مدعم بالقرائن المؤيدة، بالإضافة إلى ذلك فإن اعتماد أحاديث الآحاد في إثبات أصول العقائد، يمكن أن يترتب على الاختلاف فيها - من حيث الدلالة والثبوت -، افتراق واختلاف، كما أن تباين وجهات النظر في قبول خبر الواحد أو رده، وبين النص القرآني، إذا لم يكن الفرق واضحا، سوف يؤدي إلى تمزيق وحدة المسلمين⁽¹⁾.

ونصوص القرآن تبين ذلك، فإن الله ذم المشركين بإتباعهم الظن بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾⁽²⁾.

وعليه فإن الغزالي يرفض التسوية بين أخبار الآحاد، والأخبار المتواترة في إفادة اليقين، وفي الاتجاه المقابل يرفض من يطبق أخبار الآحاد دون مراعاة الشروط العلمية حيث يقول: "هناك من يسوي بين الأخبار المتواترة، وبين الأخبار الآحاد في إفادة اليقين وهذا غلو مرفوض، وهناك من يرحب بالأخبار الآحاد دون تطبيق للشروط العلمية المقررة عن ضرورة خلوها من الشذوذ والعلل والقوادح"⁽³⁾.

و يؤكد الغزالي المعنى ذاته بقوله: "ويتضح هذا المعنى جليا، إذا عرفنا أن علماء المذهب الحنفي يرون أن لا فرض إلا بنص قاطع، وأنه لا حرمة إلا بنص قاطع، وأن الأخبار لا تفيد القطع بل هي كما يرى الجمهور - تقيد الظن العلمي أو العلم الظني"⁽⁴⁾.

و فيما ذهب إليه أيضا: أن القول بأن حديث الآحاد يفيد اليقين كما يفيد المتوتر ضرب من المجازفة المرفوضة عقلا ونقلا⁽⁵⁾، كما لقد ذكر القرضاوي في كتابه أن محققي الحنابلة في صف

(1) - المصدر نفسه، ص 114.

(2) - سورة النجم، آية 28.

(3) - محمد الغزالي: هموم داعية، مصدر سابق، ص 152.

(4) - المصدر نفسه، ص 153.

(5) - محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مصدر سابق، ص 74.

الغزالي حيث يقول: "وقد وجدت الحنابلة مختلفين في هذه القضية نظرا لاختلاف ما روى عن الإمام أحمد بشأنها، وتبين لي أن معظم الأصوليين المحققين في المذهب يميلون إلى أن حديث الآحاد أو خبر الواحد لا يفيد اليقين، وبتعبير آخر لا يقتضي العلم، كما ذكر ذلك القاضي أبو يعلى في "العدة" وأبو الخطاب في "التمهيد" وابن قدامة في "الروضة" وابن تيمية في "المسودة"، ويقول العلامة أبو الخطاب: خبر الواحد لا يقتضي العلم⁽¹⁾.

و الغزالي بعد عرضه لآراء كثير من العلماء من أصوليين، ومتكلمين في كتابه "تراثنا الفكري" والذي لا يتسع المقام لذكرها - مثل أبو حامد الغزالي، الأستوى، والأئمة الأربعة، وغيرهم ذكر يقول: "وهكذا نجد خصوص العلماء من أصوليين ومتكلمين مجتمعين على أن خبر الآحاد لا يفيد اليقين، فلا تثبت به عقيدة، ونجد المحققين من العلماء يصفون ذلك بأنه ضروري، لا يصح أن يناع أحد في شيء منه، ويحملون قول من قال: إن خبر الواحد يفيد العلم، على أن العلم بمعنى الظن، ثم قرأت بعدئذ كتاب "منهج نقد المتن" عند علماء الحديث النبوي، فأدركت أننا على حق، وأن شيوخنا كانوا يقررون الصواب"⁽²⁾.

ورغم أن الغزالي يحكم بأنه ليس لدينا عقيدة مأخوذة من خبر الآحاد، يستدرك قائلا: «ولكن يمكن أن تؤخذ أحاديث الآحاد في العقائد، إذا كانت شريحة للقرآن، مثل: أحاديث عذاب القبر، مثل أحاديث عذاب القبر وثوابه وما إلى ذلك، وهذا كلام موجود كله في القرآن، ولكن بطريقة القرآن في الإجمال، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾⁽³⁾؛ فما ذا يعني اليوم؟ يعني أنه سيعذب اليوم ولن ينتظر إلى يوم الساعة، ويبقى هذا العذاب هو عذاب البرزخ عذاب القبر...، وكذلك الثواب، فكل أحاديث عذاب القبر وثوابه لا تفيد عقيدة بذاتها، لكنها

(1) - يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته، مرجع سابق، ص 154.

(2) - محمد الغزالي: تناقض الفكري في ميزان الشرع والعقل، مصدر سابق، ص 170 - 177.

(3) - سورة الأنعام، الآية: 93.

أفادت بعد أن مهد القرآن لها، بحوالي خمس آيات قرآنية⁽¹⁾.

ومعرفة توافق الآحاد مع ما جاء بطريق التواتر، يكون بالمقابلة بين الدلالات المأخوذة من آية قرآنية، وعلى هذا الأساس كان التعامل مع أصحاب المذاهب مع الأحاديث، فإن قبلوا الحديث فعن علم وإن تركوا الأخذ به فعن علم أيضا، وهذا هو الفرق بين من يرد الأحاديث لهون في نفسه، ومن يردها عن علم ويقين، والغزالي من هؤلاء الذين يردون عن علم.

أما عن الهجومات والخصومات التي جرت على الغزالي من خلال رأيه في السنة، فإنها لم ترقى إلى المستوى الفكري، والعلمي بل والحضاري، الذي يريد الغزالي وضعه للأمة على مستوى التنظير العقلي والمنطقي⁽²⁾.

و لعل موقفه من الأحاديث الصحاح، التي ردها باعتبارها تناقض العقل أو منطق العلم، أو منطق التطور الحضاري، ومنطق الذين نفسه دليل على عقلانيته السليمة، ونظره العميق.

و موقف الغزالي من السنة قد يخالفه البعض، وقد يخطئه فيها البعض الآخر فليس هو بالمعصوم، بل هو اجتهاد، ولكننا لا يمكن اتهامه في دينه ولا في علمه ويلغي تاريخه الحافل في الدفاع عن السنة وفي الدعوة لنصرة الإسلام، ومقارعة العلمانيين والشيوعيين بالحجج ولكن لا يمتري من له مسكة عقل ودين، بأن يقرر بأن موقف الغزالي من السنة وتعامله معها بوصفها المصدر الثاني والأساس للإسلام، كان وجهة نظر عميقة في التراث النبوي ومسلكا في رد بعض الأحاديث الثابتة، قد يكون فيها الغزالي مخطئا كما قد يكون مصيبا.

و عليه نلخص إلى موقف الغزالي من السنة وكيف تعامل معها: ربط الغزالي بين القرآن والسنة في حجيته، والإلزام لطاعة رسول الله حيث اعتبر السنة امتداد للكتاب وتطبيقا عمليا لأحكامه.

(1)-محمد الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن، مصدر سابق، ص114.

(2)- محمد يونس: تجديد الفكر الإسلامي على مشارق قرن جديد قراءة في تجربة الشيخ محمد الغزالي دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة (1419-1999)، ص80.

و في نظر الغزالي ليس من العلمية ولا من الموضوعية في شيء إهمال السنة أو إقصاؤها عن مناحي الحياة، وعن التطور الذي بلغته الأمم، وكيف يقال أن الغزالي لم يعطي للسنة النبوية حقها من خصومه وهو القائل عنها "عندما درسنا تراث محمد ﷺ في الأخلاق، وذاكرنا أحاديثه التي تربو على الألوف في شتى الفضائل خيل إلينا: " لو أن جيشا من علماء النفس والتربية اجتمع ليسوق العالم من هذا الأدب لعجز، والأخلاق شعبة واحدة من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم الضخمة"⁽¹⁾.

كما أنه بين حجية السنة، مفرقا في ذلك بين نقد السنة نقدا علميا منضبطا بمقاييس عقلية، وبين تكذيب السنة. وهذا المنهج للغزالي لم يكن بالجديد، إذ ما من إمام أو فقيه إلا رد بعض ما ثبت في الصحاح إثارا لما ظهر أنه أصح منه وفي هذا يقول: "ومعاذ الله أن نشغب على السنة فهي الأصل الثاني للإسلام يقينا بيد أني تتبعت السنن فعرفت أنهما في جملتها تتفق مع القرآن الكريم"⁽²⁾.

و الحقيقة أن منهجه في قبول الأحاديث ورفضها، لم يكن ليضعف في السنة، وإنما هو نفي أدنى استهانة بها، وهو بذلك ليتفق مع منهج الأئمة والفقهاء - كما ذكرنا -.

و أما موقفه من خبر الآحاد، فليس بدعا كذلك إذ هو خلاف قديم في هذه المسألة، والغزالي لا يخالف ما اتفق عليه جماهير السلف والخلف من الصحابة والتابعين والفقهاء والمتكلمين في الأحكام والفروع وأنه - كما ذكر الغزالي - لا خلاف بين المحققين من العلماء بأن خبر الآحاد ظني الثبوت.

وإذا كان الغزالي قد رفض اعتماد خبر الآحاد في إثبات العقائد، فلائها لا تبني على الظن بل على اليقين، والحديث الآحاد يفقد صحته بالشدوذ والقلة القادحة وإن صح سنده. ولعل الغزالي يهدف من موقفه هذا أنه أراد للسنة أن تساهم في البناء الحضاري للأمم،

(1) - محمد الغزالي: فقه السيرة النبوية، مكتبة رحاب، الجزائر، دط، 1987، ص44-46.

(2) - محمد الغزالي: السنة النبوتية مصدر سابق، ص157.

وترفع المسلمين إلى نهضة شاملة، تعيد لهم مركز الوسطية، والشهود الحضاري من جديد ولذلك نجده قد وضع ضوابط ومعالج لحسن فهم السنة والاستفادة منها.

ولقد تعامل الغزالي مع السنة، كما تعامل مع القرآن، حتى تفهم فهما جيدا واضحا، وأنه لا بد من جمع الروايات الواردة في الموضوع الواحد، للتمييز بين النسخ والمنسوخ، والتعارض إن وجد، وإدراك ظروف وملابسات الرواية، وكل هذا يعد ضمن منهج تنقية الأحاديث وثبوت صحتها سندا ومتنا.

والحقيقة أن الغزالي كدارس للتراث، ومفكرا فمن واجبه بل ومن مسؤولياته كمصلح أن يكون له رأي، وأن ينهج منهجا، وأن يقف على الأدواء ويكشف العلل، ولا يعني هذا الكلام، متابعة لا تقف عند خطأ، أو متابعة تتستر على الخطيئة، والذي يهم هو الوقوف على نهج قد لا نوافق على كل خياراته . والواقع لا نرى مخالفة في نهج يبغى عرض النصوص على كتاب الله، يقوم به علماء اشتهرت عدالتهم وزكيت سيرتهم، بل وقد توقف كبار الصحابة في قبول ما يتلى عليهم من أحاديث نسبت إلى الرسول ﷺ، ولعل أول من أصل لهذا المنهج هي السيدة عائشة¹ - رضي الله عنها - .

و لعل اتمام الغزالي في هذه المسألة هو ابتعاد عن أغراض العلم ونقص في أقدار الرجال وعلمهم وهذا ليس من أدب المؤمن، ومخالفة الغزالي لبعض المتحدثين في السنة لم يكن القصد منه إلا إصلاح المفاهيم وتصحيحها، وما كانت دعوته لذلك إلا كما دعا ونادى شعيب عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾⁽²⁾. والإصلاح الذي سعى إليه الغزالي في السنة النبوية يعد تجديدا، وهو ما عبر عنه

(1) - أنكرت عائشة رضي الله عنها حديث: (إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه) وقالت أين منكم قول الله: (ولا ترزقوه ور

أخرى) الأنعام 164، بيانا لرفضها إياه، أنظر محمد الغزالي السنة النبوية ص 16-17

(2) - سورة هود، آية: 88.

الطاهر بن عاشور⁽¹⁾ في قوله: "بأنه عبارة عن الجهود العلمية والعملية التي تبدل لإصلاح الناس في الدنيا ما من جهة التفكير الديني الراجع إلى إدراك حقائق الدين وإما من جهة العمل الديني الراجع إلى إصلاح الأعمال وما من جهة تأييد سلطانه"⁽²⁾.

وعليه فإن الغزالي ليس محدثا ولا ناقدا بقدر ما كانت غاياته تحديد موضعه من بعض التراث يراه جديرا بالافتاء إذا أريد للأمة أن تنهض بعقائدها وخلقها مجددا وباحثا عن سبيل النجاة. وبذلك أراد الغزالي من العلماء والمحدثين أن يتبعوا منهجه فيقول: "أحب للمتحدثين في الإسلام وأنا منهم أن يرزقوا سعة العلم وعمق الفقه، إن فقر العلم كفقر الدم لا يعين عن نشاط ولا يوجد معه إنتاج وغزارة العلم مع جهالة الفقه تضليل للسعي وضياح للثمرة"⁽³⁾.

فكان لا يطيق من يتحدث باسم الإسلام، وهو جاهل له، إذ أطلق عليهم الغزالي إنصاف المتعلمين حيث يرى أنهم خطر عن الدين وعن المسلمين فيقول: "إنهم أنصاف متعلمين يريد كل واحد منهم أن يكون المتحدث الرسمي باسم الإسلام وزاد الطين بلة الإدعاء الذي لا يسانده وعي مكتمل وإستبحار معجب، كل واحد منهم كما قال الرافعي: أبو حنيفة ولكن من غير رأي، ومالك ولكن من غير سنة، والشافعي ولكن من غير أصول، وأحمد ولكن من غير رواية، والذي أطلبه أمران الأول سعة المعرفة فإن قلة العلم مصيبة والثاني إرادة الله والآخرة فإن استغلال الدين للدنيا جريمة الجرائم"⁽⁴⁾ وكان كثير ما يردد هذه الأبيات الشعرية لأبي الأسود الدؤلي واصفا للحال:

يا أيها الرجل المعلوم غيره هـ لا لنفسك كان ذا التعليم

(1) -الطاهر بن عاشور: (1296-1397هـ/1879-1973م)، من خرجي جامعة الزيتونة، من أكابر علمائها وأفاضلهم، تخرج على يديه أكابر الحركة الإصلاحية الجزائرية في العصر الحديث، تولى منصب إدارة الزيتونة، قاضي القضاة بتونس، مفتي الديار، أهم آثاره: تفسيره التحرير والتنير. انظر: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، الشركة التونسية للطباعة والنشر، تونس، 1986م، ص 96.

(2) -محمد الطاهر بن عاشور: تحقيقات وأنظار في الكتاب والسنة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع تونس 1985 ص 113.

(3) -محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية مصدر سابق ص 101.

(4) -محمد الغزالي: تراثنا الفكري مصدر سابق ص 153.

تصف الدواء لدى المقام وذي الضنى كما يصح به وأنت سقيم
و أبدأ بنفسك فأنهها عن غيها فإذا انتهت فأنت حكيم
و هناك يسمع ما تقول يشقى بالقول منك وتنفع التعليم⁽¹⁾

و نلاحظ هنا أن الغزالي يعتدل دائما في موقفه من القضايا فلا هو يخالف سابقه في التعامل مع السنة ولا هو يقبلها كلها دون تنقية وتحكيم للعقل والواقع والقرآن خاصة في مجال العقائد.

نماذج تطبيقية من الأحاديث التي رفضها:

قبل عرض الغزالي للأحاديث الفتن نورد قوله : "وقبل أن أذكر النماذج من الأحاديث الواردة أقرر حقيقة واحدة هي أننا نحن المسلمون نؤمن بإله لا حدود لجده ولا منتهي لكمالاته ومحامده ليس كمثل شئ وهو السميع البصير خلقنا ورزقنا وكسانا وأوانا وعلمنا وربانا وأفاض علينا من آلائه ما لا يحصى وإنما سنظل نذكره ونعبده ما بقينا على ظهر الأرض مستعدين بذلك للقائه بعد الموت لنستأنف حياة أخرى عنده عامرة بالثناء عليه والتسبيح بحمده"⁽²⁾.

إن موقف الغزالي من أحاديث الفتن⁽³⁾ والغيبات جدير بالتأمل وهو موقف ينسجم مع شخصيته الثقافية ونهجه الفكري العقدي كما سوف نكشف عليه في المطالب اللاحقة في تعامله مع قضايا الإسلام العقائدية ولقد عز عليه أن يرى أمته راكنة إلى الأوهام تغلف هزيمتها على شجاعة الاستعمار وتتقبل ضعفها وتعتبر تراجع الإسلام طبيعياً بحجة أن النبي أخبر بذلك، وبالتالي تغيير أحوالها من الحقال ومجمل ما روي في أحاديث الفتن التي تنبئ بأحوال الضعف والإنكسار للإسلام، والفتن التي تعترى المسلمين، تحتاج إلى توقف لإثبات صحتها سنداً ومتناً لفهمها الفهم

(1) - أحمد بن إبراهيم الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف، بيروت، ج 2، ص 424-425.

(2) - محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث مصدر سابق ص 149.

(3) - أحاديث الفتن: يتحدد مفهوم الفتنة في أمرين: الأول: الامسحان والاختبار. الثاني: الاختلاف والتنازع وما يترتب من فرقة واقتتال وكثيراً ما تفتن الفتن بأشراط الساعة ويشهد لها صريح البخاري ومسلم في صحيحهما. أنظر الإدريسي، فقه الفتن، الملكة العربية السعودية دار المنهاج، ط 1، 1430هـ، ص 27 وما بعدها.

الصحيح الدافع للعمل ولهذا نجد الغزالي قد اهتم بها وتناولها بمنطق القرآن والعقل.

و من أمثلة الأحاديث التي رفضها الغزالي والتي تنسجم مع فهمه الفكري وأسسها في العقائد موقفه من بعض الأحاديث الصفات حيث قال: "لا ريب أن يوم الحساب يوم رهيب يلتقى فيه العصاة والفجار ما لم يخطر لهم ببال ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ٤٢ خَشِعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾" (1) والآيات تعني كما ذكر الغزالي إن الذين ألقوا العصيان في الدنيا والتمرد على الله يحشرون بعاداتهم التي ألفوها من قبل فلا يقيم لهم عوجا ولا يرظم له خلل وتكون حالتهم على تلك المشاهد وهم يقادون إلى العذاب و كلمة يوم يكشف عن الساق تعبير عربي أصيل قال ابن عباس: تقول العرب للرحل إذا وقع في أمر عظيم فضيع يحتاج فيه إلى الجد ومقاسات الشدة ستمر عن ساقك وجاء في شعر العرب (2) قال جرير :

ألا رب ساهي الطرف من آل مازن إذا شمرت عن ساقها الحرب شمرا (3)

عن هذا الأساس فهم ابن عباس الآيات وتبعه العلماء من الصحابة والتابعين وما نعرف إلا هذا التفسير للوحي الكريم حتى جاء بعض المولعين بغريب الروايات قالوا: إن الساق هي العلامة التي يعرف بها المؤمنون ربهم في امتحان عصيب يجرى بهم يوم القيامة (4).

وقد جاء في تفسير القرطبي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ٤٢ خَشِعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾ ، قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ ، يوم تكشف "بالنون"، وقرأ ابن عباس ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ ؛ أي تكشف الشدة أو القيامة عن ساقها، قال الشاعر:

(1) -سورة القلم، الآيتين: 42-43.

(2) - محمد الغزالي: السنة النبوية، مصدر سابق، ص 151.

(3) - جرير: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، دط، (1398هـ-1978م)، ص 185.

(4) - محمد الغزالي: السنة النبوية، مصدر سابق، 150-153.

قد كشفت عن ساقها فشدوا وجدّت الحرب بكم فجدوا⁽¹⁾

قال ابن عباس: هي أشد ساعة في يوم القيامة، وقال أبو عبيدة: إذا اشتدت الحرب والأمر: قيل كشف الأمر عن ساقه، والأصل فيه أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجد شمر على ساقه، فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة، وقيل: ساق الشيء أصله الذي به قوامه، كساق الشجرة أو ساق الإنسان؛ أي يكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصلها، فأما ما روي أن الله يكشف عن ساقه، فإنه عز وجل يتعالى عن الأعضاء والتبعيض، وأن يكشف ويتغطي، ومعناه أن يكشف عن شأنه العظيم من أمره، وقيل يكشف عن نوره عز وجل، وروي أبو موسى عن النبي ﷺ في قوله تعالى (عن ساق) قال: «يكشف عن نور عظيم يخرون له سجدا». وقال أبو الليث السمرقندي في تفسيره حدثنا الخليل بن أحمد: هدبة قال: حدثنا حماد بن سلمة عن عدي بن زيد عن عمارة القرشي عن أبي بردة عن أبي موسى، قال: حدثني أبي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا فيذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، ويبقى أهل التوحيد فيقال: ما تنتظرون وقد ذهب الناس، فيقولون: إن لنا ربا كنا نعبده في الدنيا ولم نره، -قال- وتعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم، فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه، قالوا: إنه لا شبيه له فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله تعالى فيخرون له سجدا، وتبقى أقوام ظهورهم مثل صاصي البقر (فروتها)، فينظرون إلى الله تعالى فيريدون السجود فلا يستطيعون، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾. فيقول الله تعالى: عبادي ارفعوا رؤوسكم فقد جعلت بدل رجل منكم رجلا من اليهود والنصارى في النار»⁽²⁾.

قال الغزالي: "الحديث كله معلول وإصاقه بالآية خطأ يعني الآية "يوم يكشف عن ساق" وبعض المرضى بالتحسيد هو الذي يشيع هذه المرويات إن المسلم الحق ليستحي أن ينسب إلى

(1) - لم أف على قائله، ولم يرد قائله في كتب التفسير التي أوردته.

(2) - أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، دط، 1387هـ-

رسوله هذه الأخبار واضطراب القول تقع في الأمور الغيبية كما يقع في الأمور التكليفية العملية، ولا يضر الإسلام أن تتشابه الأمور على أحد الرواة فالكتاب معصوم والسنة في جملتها سليمة وليس العجب من غلط يقع فيه راو، وإنما العجب من قبول هذا الخطأ ثم الحماس في الدفاع عنه ولم يكن ذلك شأن الأئمة و"لا منهج السلف والخلف"⁽¹⁾.

ويضيف الغزالي مبيناً: "أن الحديث الذي فيه أن الله تعالى يكشف عن رجله يوم القيامة حديث ضعيف، وذلك لأن الله تعالى ليس جسماً، وإذا قلنا أن الذي يكشف رجله ملك من الملائكة، نيابة عن الله، فليس قرينة على هذا القول"⁽²⁾.

المطلب الثاني: العقل والوجدان

أدرك الغزالي أن الحياة المعاصرة قد وسعت من آفاق النظر، وأصبحت مجالات العقل أوسع من أن تحصر أو يحاط بها، وانكشف له أن ثقافة الداعية والمفكر ينبغي أن تركز على الاستيعاب الواسع، وحسن البصر بالمعاني، والصلة العميقة لحاجات الإنسان وأغراضه، وفهم أن التدين: "ليس علاقة موهومة بالله، فلا قيمة للتدين إذ لم يمنع الاسفاف ويدفع إلى التسامي ويقمع غرائز الاستعلاء وقهر الضعفاء"⁽³⁾، فمن المستحيل - كما يرى - إقامة مجتمع ناجح الرسالة، إذا كان أصحابه جهالاً بالدنيا، عجزاً عن الحياة .

لذلك نجده يعبر عن التدين في موطن آخر بقوله: "الدين في حقيقته ليس إلا كمالاً لمشاعر الإنسان وتصحيحاً لمواهبه، فهو عقل يحسن التفكير وعين تحسن النظر، وأذن تحسن السمع ويد تحسن العمل، والمؤمن على هذا إنسان ناضج الفهم والتأمل والحكم على الأمور، إنسان جيد الإنتاج والآثار والتصرفات ... فإذا اضطريت هذه المعاني في نفسه اضطرب معها مصدر الإيمان

(1) - محمد الغزالي: السنة النبوية، المصدر السابق، ص 154.

(2) - أحمد حجازي السقا: دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالي: المكتبة الثقافية، بيروت، ط 1، (1416هـ - 1996م، ص 272.

(3) - محمد علاء الدين وحيد: نبضات محمد الغزالي، مرجع سابق، ص 78.

في قلبه ولبه وتقلصت معها حقيقة إنسانية"⁽¹⁾ وفي هذا القول يعرض الغزالي مصادر المعرفة الإنسانية المتكاملة في نظره، وهي الوحي والعقل إلى جانبهما الحواس.

لذلك نلمس في كتاباته وآرائه أن العقل المتبصر كما يسميه هو من أدوات فكره ودعوته، فهو في نظره العقل المؤمن الذي يعمل في إطار ثوابت الإسلام، فنجده كثير التمعن والتدبر في القرآن الكريم، حيث أنه يلتقط منه المعاني كأنه صفحة بين يديه إذ كان يستنبط من القرآن ما لا يستنبط غيره⁽²⁾.

و يؤمن الغزالي أن العقل هو الذي يبصر أدوات النجاح ويقر بها، منتهجا قول النبي ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها»⁽³⁾، ولقد جمع الغزالي حوله الآراء والقبول بفكره الثاقب، وعرضه العلمي، إذ كان يسعى للبحث عن جواهر الحكمة مهما كان مصدرها، فلم يرفض فكرا ابتداء ولم يرفض الاقتباس والمقاربة ولا الاعتراف بالآخرين.

ويختلف الغزالي في عقلايته عن التيار العقلاني الخالص الذي مثله في الإسلام المعتزلة وابن رشد وجملة من المتكلمين والفلاسفة، فهو لا يخص العقل بمطلق المرجعية في المعرفة، كما يختلف عن أصحاب الحديث القدماء الذين خصوا (النص) بمطلق المرجعية، وبذلك لا يمكننا أن نتصور موقف الغزالي إلا أن يكون تركيبيا بين (تيار الرأي) العقلاني على وجه الإجمال وبين تيار (الصوفية) الروحي بإطلاق، إذ أنه جمع بين العقل والوجدان في تأسيس المعرفة الدينية⁽⁴⁾، وهو بهذا ينهج منهج محمد عبده الذي أرساه في كتابه (رسالة التوحيد)، وكما يضيف فهمي جدعان: "والحقيقة أن الغزالي كان كتلة حية منوثة من قوة العقل وحرارة الوجدان والعاطفة وجدت نفسها مشخصة في هذا المركب الحي"⁽⁵⁾ كما تتميز عقلانية الغزالي بالواقعية لأنها أكثر موافقة

(1) - المرجع نفسه، ص 55.

(2) - يوسف القرضاوي: العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، مرجع سابق، ص 211.

(3) - أخرجه الترمذي في سننه، أبواب العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ح 2687، ص 632، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(4) - فهمي جدعان: العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، مرجع سابق، ص 137.

(5) - المرجع نفسه، ص 137.

من تلك الرؤى لواقع الأحوال البشرية في عالمنا المعاصر، فهي تدرك الغايات بوسائل (آليات) أقرب إلى الحس العام، والبداهة والفطرة والضمير.

وإذا كانت عقلانية الغزالي تقترب في بعض المواطن من عقلانية المعتزلة وابن رشد، إلا أنها تؤمن أن للعقل حدودا لا يجوز أن يتخطاها، ولذا أنكر الغزالي ما حدث للعقل الإسلامي عندما خاض في دراسة ما وراء الطبيعة فنتج عن ذلك - كما سبق ذكره - تعجيز للعقل الإسلامي عن بحوث المادة والاستفادة منها. و في هذا يقول: "إن العقل قادر على البحث في العناصر الطبيعية، لكنه لا يقدر على البحث في الروح، أو في ذات الله العظمى، وفي إسرار الألوهية، ما يتصل بالذات والصفات وغير ذلك وقضايا عالم الغيب تقع فوق العقل⁽¹⁾ وفي تصور الغزالي أن العقل عاجز عن فهم حقيقة الروح التي بين جنبيه، وكيف له بمعرفة كنه الألوهية واتصال الذات بالصفات؟ فكلام الفلاسفة في الوجود وأصله ومباحث المتكلمين، كل ذلك ليس من العلم الأصل - كما يرى - وهو بذلك يقترب من رأي أبي حامد الغزالي الذي يرى أن أقوال الفلاسفة والمتكلمين في الإلهيات، هي أقوال جدلية غير برهانية⁽²⁾، بل إن المتأمل في فكر الغزالي يجده أنه لا يخالف الفكر الإنساني السليم الذي يقر بأن العقل عاجز على تجاوز عالم الطبيعة أمثال الفيلسوف "كانط" و"ديكارت".

و يجمل الغزالي موقفه في تحديد العلاقة بين العقل والوحي في قوله: "إن العقل لا يعنى عن شريعة الله، وإن الله من عباده مطالب لا تعرف إلا عن طريق النبوة"⁽³⁾ وهذه القضية كما نعلم قديمة، خاض فيها المتكلمون والفلاسفة⁽⁴⁾، وكان للغزالي فيها رأي واضح كما جاء في قوله: "هيهات أن يختلف العقل والنقل أو تتناقض ثمار الوحي والفكر،... إن الدين الحق والعلم الحق

(1) - محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مصدر سابق، ص 148.

(2) -أنظر أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق وتقديم: جميل صليبة، دار الأندلس، بيروت، ص 87.

(3) -محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة، دار الكتب الحديثة، مصر، ط3، 1384هـ-1964م، ص 157.

(4) -الفلاسفة مثل الكندي في كتابه (رسائل كندي الفلسفية) 1: 244، ابن رشد في كتابه (فصل المقام وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) ابن تيمية في كتابه (درء تعارض العقل والنقل).

هما تصوير متكامل للوجود"⁽¹⁾.

فدور العقل ليس محصوراً في مجالات الكون والطبيعة، بل له دوراً أساسياً مع الوحي، وهناك أمور نص عليها الوحي نصاً كلياً، وأمور نص عليها الوحي نصاً جزئياً، وأمور لم ينص عليها الوحي، ودور العقل هنا أن يستنبط ما لا نص فيه ونفهم ما فيه نص، لذلك استخدم الغزالي العقل في فهم العقيدة والشريعة⁽²⁾، فمثلاً رفض الغزالي بعض الأحاديث التي كانت تخالف العقل في رأيه، وقد أنكّر عليه الكثير رفضه هذا؟ إلا أنه لم ينكر السنة كما فهموا - بل كان يدافع عن الإسلام بحفظها، وهو يعرضه عرضاً معقولاً مقبولاً موافقاً للفطرة والمسلمات العقلية والدينية ويرفض كل ما خالف هذه المسلمات من أحاديث ووردت في صحيح البخاري ومسلم - كما سبق ذكره - في حديث الآحاد.

فليس بالمبالغة إذا قلنا أن الغزالي لم يأت في كتبه بالجديد في هذا المجال، وإنما قدم أسلوب عرض جديد، مزج فيه بين العقل والنقل مزجاً ينفرد به، وهو ما أنعم الله عليه، فما أضاف الغزالي في منهج الأسلاف الفقهي شيئاً بل أحيانا سنة اجتهادية حميدة وهي أنه (لا فقه بغير حديث ولا حديث بغير فقه)⁽³⁾.

و بذلك يعد الغزالي مجتهداً من المجتهدين، وقد نؤيد رأي عبد الحليم عويس إلى ما ذهب إليه بأننا في عصر نحتاج إلى جرأة الغزالي وقدرته على الاجتهاد، أصاب أم أخطأ⁴، فكل مخلوق يؤخذ من كلامه ويترك إلا محمد ﷺ .

فالوحي في رأي الغزالي يعد مصدر أساساً للمعرفة، إلى جانبه الحس والعقل، وهذا الاعتبار له ما يبرره فالعقل والحس يقودان عبر الملاحظة والنظر - بتدبير عجيب صنع الخالق في الأنفس

(1) - محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام والأمم المتحدة، دار الهدى للطباعة والنشر، دط، دت، ص 213-

214.

(2) - يوسف القرضاوي: الغطاء الفكري، المرجع السابق، 212.

³ عبد الحليم عويس: الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه، مرجع سابق ص 42-43.

(4) - عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 47.

والآفاق، وبتدبر معاني القرآن الكريم وقوة تأثيره في النفوس - إلى الاقرار بوجود الخالق، ويقودان عبر تدبر القرآن ودراسة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم - وشمائله إلى الإقرار بصدق الرسول وصدق رسالته¹، فالمعارف كما يقول ابن تيمية: "منها ما يعرف بالمشرع فقط كتسبيح الأشياء . ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾"⁽²⁾، ومنها ما يعرف بالعقل والحس فقط كالطب والرياضيات، ومنها ما يعرف بما معا كعرفة ضرر الخمر مثلا، والمعارف التي تعرف بالعقل والشرع معا قد تعضد بعضها بعضا⁽³⁾.

وبهذا ينحاز الغزالي إلى عقلانية معتدلة، عقلانية مؤمنة بالخالق وتزويجه، متدبرة في وحيه، مجتهدة في فهمه وتطبيقه، مستخدمة العقل فيما يصلحها في دينها ودنياها، فمنهج التكامل المعرفي الإسلامي يحتم علينا رفض كل نظرية تخالف المعقول، وقبول كل نظرية توافقه ما لم تخالف الوحي.

و إذا كان الغزالي يعترف بالجهد العقلي الذي بذلته الحضارة الغربية، وما قدمته للإنسانية من خدمة، إلا أنه يأسف لها عندما جعلت الكنيسة، العقل يكفر بالدين، ويضع فاصلا بين وبين الوحي، وبين العلم والدين، كما يأسف لما نتج عن ذلك بأن نظرات أوروبا إلى الإسلام بالعين التي نظرت بها إلى الكنيسة النصرانية، وبالتالي حرمت نفسها، والإنسانية من التعرف الموضوعي على عقائد الإسلام التي كانت من شأنها أن تقود مسيرتها قيادة حكيمة يسعد بها، وفي هذا يقول الغزالي: إن حدة الذكاء ويقظة الفكر واستنارة الرأي عناصر لا بد منها في تكوين الإيمان الصحيح، فإن الإيمان معرفة بلغت حد اليقين، وانتفت معها الريية، وحيث لا يوجد الإدراك الواضح والفهم الناضج يصبح اليقين غير ذي موضوع⁽⁴⁾.

فالعقول الذكية إذا هي التي تستطيع اختراق أسرار الكون، ومعرفة آيات الله، فتدر سر

(1) - محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، مصدر سابق، ص 131-132.

(2) - سورة الإسراء، آية 44.

(3) - ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، جامعة محمد بن سعود، السعودية، دط، دت، 1982، ص 64.

(4) - محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، مصدر سابق، ص 125.

هذا الوجود فتزداد إيمان، وتعلقا بربها، وخشية منه لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾⁽¹⁾.

و بناء على موقفه من العقل، فإن الغزالي من الذين دعوا إلى الربط بين العقل والقلب وتفاعلهما مع حقائق الإسلام، حتى يكون للمسلم فهما يحرکه إلى العمل ويعصمه من الزلل، وهو منهج القرآن الكريم .

و قد ذهب إلى هذا الرأي طه عبد الرحمن في كتابه وهو يبين مفهوم العقل وعلاقته بالقلب وذلك من خلال جهود الفلاسفة والمتكلمين وأعمال الفقهاء والصوفية على أن العقل للقلب كالصبر للعين⁽²⁾.

لذا نجد الغزالي يحذر في فكره ودعوته في الفصل بين العقل والقلب خاصة في الممارسة الإسلامية سواء في الفهم أن التطبيق، لأن ذلك هو سبيل النجاة إذ يقول: " إذا لم يفلح الدين في شد زمام الفكر والشعور إلى أبعد حد مستطاع فحقيق به أن يهزم، وحقيق بأتباعه أن ييؤدوا⁽³⁾ والقرآن في طبيعة خطابه يزاوج بين العقل والقلب، فيجعل الإيمان، يطمئن إليه العقل، والمثاعر تملأ جوانب النفس وفي هذا الصدد يقول: " مع قيام الإسلام على العقل وترحابه بالفكر الجيد والبحث الأصيل وحضه على الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملا وتأملا، مع ذلك كله فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان، والمشاعر الجياشة ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والخير، إلى جانب أنه نظر يتسم بالسداد والصواب"⁽⁴⁾ وهذا النص واحد من نصوص كثيرة، تحفل بهذه المعاني التي يقصد منها الغزالي إثارة العقل بضياء الروح والقلب، لأن الإنسانية في تصوره لا تكتمل إلا باجتماع العقل والقلب إذ يقول: "الدين الحق هو الإنسانية الصحيحة، والإنسانية الصحيحة هي العقل الضابط للحقيقة المستنير بالعلم، الضائق بالخرافة، النافر من

(1) - سورة فاطر، آية 28.

(2) - طه عبد الرحمن: العمل الديني وتحديد العقل، المركز الثقافي العربي، ط2، ص 18-19.

(3) - محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، مصدر سابق ص 87.

(4) - المصدر نفسه ص 95.

الأدهام، بيد أن الذكاء الحاد هو جزء من هذه الإنسانية ما يكتمل ولا يستقيم إلا بجزء آخر ينضم إليه ويتحد معه، وهو القلب النظيف من الكبر، الشاكر لأنعم الله والمعترف بأمجاده والماضي إلى غايته في هذه الحياة على ضوء أسمائه الحسنى وهداه القويم⁽¹⁾.

و منه فقد درس الغزالي القرآن الكريم بعقله ووجدانه، عرف ربه حق المعرفة، ثم نظر إلى الحياة والأحياء نظرة تصل المخلوق بالخالق، فأدرك آثار القدرة الالهية في الطاقة التي تدير الآلات، وترفع الطائرات التي تمثلت في قوة العقل، الذي جعل الله بها الإنسان أكرم مخلوق لقوله تعالى:

﴿ سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾⁽²⁾ إذ يقول الغزالي:

"القرآن ينقل الإيمان من ميدان التصورات النظرية المعزولة إلى ميدان الشعور الحي المأنوس في الواقع، فالقرآن في أسلوبه ينتقل من الإيمان العقلي إلى الإيمان القلبي، فهو انتقال من الممارسة الذي يمتزج فيها الفكر مع العاطفة فتثمر إيمانا صادقا، وعملا صالحا"⁽³⁾ هكذا ظهرت عقلانية الغزالي التي تلازمها الوجدانية في كتاباته، ونجده قد عبر عنها بعدة تعابير مثل: " الفكر والعاطفة"، " العقل والوجدان"، "العقل الذكي والقلب النقي"، وكان يقصد من وراءها الدعوة إلى الإيمان المبصر بالعقل، معتقدا أن حياة المسلم لا يمكن لها أن تقوم على إيمان فاتر، ولا يصنعها إيمان غامض، كما أن الجمع بين العقل والوجدان - وهو منهج القرآن في الخطاب - يحقق لنا حسن الإيمان بالله مع الاكتمال الثقافي والخلقي، ويضمن لنا نهضة جادة، كما تجد الغزالي يؤكد على طبيعة الإسلام - بمخاطبة العقل والقلب - من خلال التنويه بالعقل تارة حينما يلاحظ انسياق المسلمين نحو الجوانب العاطفية، وبعدهم عن أحكام العقل، وتارة من خلال التنويه إلى مكانة التعامل الوجداني، عندما يرى وقوف المسلمين عند حدود النظر المجرد خصوصا في مسائل العقيدة⁽⁴⁾ بل ويعجب لمن لا يدرك أن الكون محكوم بقوانين دقيقة، ولا يدري أن العقل يقظ

(1)-محمد الغزالي: الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، مصدر سابق، ص 22.

(2)-سورة فصلت: الآية: 52.

(3)-محمد الغزالي: الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، المصدر السابق، ص 22.

(4)-أنظر محمد الغزالي عقيدة المسلم ص وأنظر: محمد الغزالي: ركائز الإيمان، مصدر سابق، ص 210. أنظر: تراثنا الفكري

في ميزان الشرع والعقل، مصدر سابق، ص 22-23.

هو الوسيلة الفذة لمعرفة الله عن طريق تأمل ملكوته وتدبر وحيه، كما أن الدين يتضمن جانبا من الإيمان بالغيب ليس للعقل مجال فيه، وإلى جانب هذا فإن الغزالي حرص على تبيان كيفية تحويل معرفة الله، والإحساس بجلال قدرته والخشوع لعظمته إلى مذاق حلو بطبع النفوس على الرقة وصفاء السريرة، ولا يتم ذلك كما يرى إلا بتلازم العقل والوجدان.

و قد اهتم الغزالي الآثار التي نتجت من جراء الفصل بين العقل والنقل، في حياة المسلمين الثقافية والاجتماعية بل والسلوكية، وما آلت إليه أحواله، لذا بحث عن أصل الداء الذي جعل الأمة الإسلامية تخرج من التاريخ لتقع في زوايا المظلمة ذليلة حائرة تابعة لكل ما يأتي من الغرب بعد أن كانت في قمة حضارتها، وقد وجد - كما سبق ذكره في الفصل السابق من البحث - أن أكثر المجالات تأثرا على المسلمين قديما وحديثا هما مجالي "علم العقيدة" و"التصوف" إلا أن العودة إلى القرآن الكريم يعيد الربط بين الفكر والعاطفة إلى أصلهما الواحد، وهو معرفة الله كما يعرضها القرآن الكريم وتشرحها السنة النبوية وفي هذا يقول: "أن العالم من أزله إلى أبده لا يعرف إنسانا استغرق في التأمل العالي ومشى على الأرض وقلبه في السماء كما يعرف في سيره محمد بن عبد الله ﷺ - أنه خير من حقق في نفسه وفي الذين من حوله حياة الإنسان الكامل ... الإنسان الرباني المستخلف في ملكوت الله لينقل إليه أطرافا من حقيقة هذه الخلافة الكبيرة، وفي الموارث العقلية والعاطفية التي تركها هذا النبي الكريم، ترى كل العناصر التي يستنفع بها أي إنسان وأن يقوم بوظيفته الصحيحة في الحياة"⁽¹⁾.

العقل والوجدان في العقائد

كان منهج الغزالي في عرض أهم حقائق الإسلام وهي "الألوهية" بأن زاوج بين العقل والقلب فيها عاطفة وفكرا، من إثبات لوجود الله وذكر أسمائه وفي هذا يقول الغزالي: "لقد ذكر القرآن أسماء الله الحسنى مئات المرات في تضاعيف قصصه، وتشريع ووصفه لمشاهد الكون ومشاهد البعث، ورفض أن يكون الثناء على الله نظريا لا يتحرك به فؤاد، ولا يرقى به سلوك، ثم

(1) - محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، مصدر سابق، ص 21.

ترجم النبي العابد ﷺ - هذا المنهج في نواحي حياته كلها، فصار انسانا ربانيا ترنو بصيرته إلى الله يباشر كل شيء في الدنيا باسمه كأنه منه على مرآى ومسمع" (1)، ونجد المعنى نفسه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۚ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ﴾ (2) فيقول الغزالي مفسرا: "والآية تشير إلى أن القرآن الكريم لا يحتوي على مباحث نظرية مجردة أو قضايا من اختلاف الترف العقلي كلا هذا الكتاب يعرف الناس بربه على أساس إثارة العقل وتعميق النظر، ثم يحول هذه المعرفة إلى مهابة الله ويقظة في الضمير ووجل من التقصير، واستعداد للحساب، هناك أفكار تبدي وتعيد في نطاق الحمأ المسنون، أما القرآن فهو يدع الناس يمشون في الأرض بعد أن يجعل رؤوسهم في السماء" (3).

و في نظره العقلي في وجود الله يقول الغزالي: "وجود الله تعالى من البدايات التي يدر كها الإنسان بفطرته، ويهتدي إليها بطبيعته وليس من مسائل العلوم المعقدة، ولا من حقائق التفكير العويصة، ولولا شدة الظهور قد تلد الحفاء، واقتراب المسافة قد يعطل الرؤية، ما اختلف على ذلك مؤمن ولا ملحد ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (4) والحقيقة أن الإيمان بالله هو فطرة في الإنسان، إلا أن البيئة الفاسدة تؤثر على توجيهه، وهذا سر انصراف الكثير من الناس عن الإيمان والصلاح، وقبولهم للكفر، رغم أن ذلك مخالف لمنطق العقل.

قد جاء ذلك على لسان النبي ﷺ أن الناس خلقوا على فطرة الإيمان بالله وهي الحقيقة السمحاء، وقد أشهدهم ربهم على ذلك: «أني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فأنتهم الشياطين

(1) -محمد الغزالي: فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، دار المعرفة، الجزائر، دط، دت، ص 13.

(2) -سورة الزمر آية 23.

(3) -محمد الغزالي: المحاور الخمس للقرآن الكريم، مصدر سابق، ص 16.

(4) -سورة إبراهيم آية 10.

فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»⁽¹⁾.

فمضى هدي الإنسان إلى الفطرة، هدي إلى الإسلام لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾⁽²⁾ ولقد ساق الغزالي في كتابه - كما سبق ذكره - أدلة على وجود الله تعتبرها أدلة عقلية وعلمية.

و يستنكر الغزالي تقليد المعتزلة لمنطق أرسطو في فهم الألوهية الذي أوغل في تزيه إلهه حتى جرده من صفة الذات، لأن مقتضى التوحيد عنده أن يرحم بذاته ويرى بذاته ويقدر بذاته، وهذا تفكير لا وزن له كما يقول الغزالي - من ناحية العقل والنقل، ومع هذا فقد تأثر به المسلمون وأقحموه إقحاما على التفكير الإسلامي التطبيقي، الذي تمثل في منهج السلف والذي خط أصول الإيمان والعقائد كما ورثوه عن النبي ﷺ وصحابته⁽³⁾ ونلاحظ أن الغزالي يحكم دائما في آرائه العقديّة العقل والنقل خاصة وهو يوجه ويصحح للهيجان العقائدي⁽⁴⁾ الذي مر به التاريخ العلمي للمسلمين إذ يرى أن الخلافات العقلية كانت لفظية لا ثمرية لها بعيدة عن الأسلوب الذي يقبله العقل السليم ويصدقّه النقل، حتى أصبحت ترفا عقليا لا روح له، فالخلافات في قضايا خلق العباد مثلا والتحسين والقيح كان يمكن علاجها بأفضل من الأسلوب الذي مزق الشمل وقسم الأمة⁽⁵⁾.

و في مسألة الجبر، قد رأينا رأي الغزالي فيها في الفصل السابق وكيف تناولها بعقلانية معتدلة، فلم يقر للإرادة الإنسانية حريتها المطلقة، ولم ينف عنها الجبر مطلقا، حيث يقول: "وقد استطعت بشيء من تناول العقلي أن أصرف شبهة الجبر عن آثار شتى لكنني لم أستطع إصلاح

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة ووصف نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة أهل النار، حديث 2865، ص 724.

(2) - سورة الروم، الآية: 30.

(3) - محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية، مصدر سابق، ص 112.

(4) - المصدر نفسه ص 112.

(5) - المصدر نفسه ص 113.

عقول تريد أن تسوق الإسلام كله إلى أحاديث غير واضحة تظهر عليها العلل القادحة"⁽¹⁾. كما أوردنا في مبحث وسطية الغزالي في مسألة "القضاء والقدر" كيف تناول هذه المسألة بالتفكير العقلي السليم، حتى خلص إلى أن شمول الإرادة العليا وهيمنة القدرة الإلهية على الخلق، لا ينفي أبداً للإنسان إرادته الحرة. وقد تبين من خلال ذلك العرض، منهجه الاعتدالي العقلي في مجال الغيبات الصرفة، حيث اعتبره "تفعر العقل" وأن بجوته عقيمة، إلا أنه يقر النظر السديد والتدبر الذي دعا إليه القرآن الكريم في مجال العقائد، رغم قيام الإسلام على العقل إلا أنه ليس للعقل قبح فيما لا طاقة له، وهذا لا يعد أبداً قصور للعقل، بل هو من طبيعة البشرية التي خلقه الله عليها.

المطلب الثالث: العلم

و نقصد به الاستعانة بمعطيات العلم الحديث بشقيه الإنساني مثل العلوم والاجتماعية والنفسية والسياسية والاقتصادية، أما التطبيقي فهي علوم البيولوجيا، وعلم الفلك، والفيزياء، والطب، وعلوم الأرض وغيرها.

و بتتبعنا لمسار الغزالي الفكري العقدي نجده قد اعتمد على الاطلاع على العلوم والمعارف، والتخصصات الأخرى، بل وعلى الديانات الأخرى للوصول إلى الحقيقة وتجليه الحق والغزالي لم يكن رجل علم (عالماً)، وإنما كان يدرك قيمة العلم الإنساني في حياته، لذا نلاحظ عليه دقة الملاحظة في الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وكذا تأمله في ظواهر الكون التي كانت تثير انتباهه⁽²⁾، فكان يكثر الاستشهاد بالعلوم الحديثة في كتبه، كما كان يتابع برامج عالم الحيوان

(1) - محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، مصدر سابق، ص 47.

(2) - عبد الحليم عويس، الشيخ حمد الغزالي صور ن حياة مجاهد عظيم، مرجع سابق ص 58-59.

والبحار في التلفزيون⁽¹⁾، ويتابع مستجدات العلوم الحديثة ويقول في العلم: "إن العلم للإسلام كالحياة للإنسان، ولن يجد هذا الدين مستقرا إلا عند أصحاب المعارف الناضجة والألباب الحصينة"⁽²⁾.

ففي دراسة الكون يقول الغزالي: "دراسة الكون نهج قرآني واضح لبناء الإيمان أولا، ولدعمه وحراسته ثانيا، ولمنافع البشر ومتاعهم ثالثا، ومع ذلك، فإن أجيالا كثيفة علقت مشاعرها دون هذه الدراسة"⁽³⁾، فالهدف من دراسة الكون هو لبناء الإيمان الصحيح، إلا أنه يأسف لكون الأوروبيين والأمريكيين أقرب إلى الفطرة الصحيحة من المسلمين، وذلك عندما تركوا لعقولهم العنان تبحث في الكون وتكشف أسرار كنوزه التي أودعها الله فيه، إذ كلما اتسعت معرفة الإنسان في الكون، كلما اقترب من حقيقة ربه، وتبين له الحق لقوله تعالى:

﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾⁽⁴⁾.

و إذا كان الغزالي يعترف للعالم بتقدمه إلا أنه يراه خطرا على الإنسانية ببعده عن القيم الإيمانية إذ يقول: "إن وثبات العلم الحديث إنما تمت مع إدمان النظر في الكون والاعتراف من الأسرار، والقوى المودعة فيه، وهذا هو نهج القرآن الواضح من آيات النظر الكثيرة، ولكن فقر الحضارة الحديثة للقيم الرفيعة وظلامها العقائدي حول النجاح العلمي إلى تهديد للإنسانية وضياح مستقبلها"⁽⁵⁾.

و يشير الغزالي إلى أن الميزة التي رجحت كفة آدم على الملائكة هي العلم، فقد عرف ما في الحياة من جماد، ونبات، وحيوان، و عرف آثار قدرة الله فيها، أي أنه عرف الكون منسوبا إلى صاحبه لا مقطوعا عنه، على عكس الحضارة الحديثة التي تعرف الأشياء ولا تعرف خالقها، ومن

(1)- المرجع نفسه، ص 60.

(2)- محمد الغزالي: خلق المسلم، مصدر سابق، ص 214.

(3)- محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية، مصدر سابق ص 210.

(4)- سورة فصلت، آية 53.

(5)- محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية، المصدر السابق، ص 212.

تعاجيب الأيام كما يرى الغزالي، أن المسلمين يعرفون الله ولا يعرفون آياته في الكون، وأن أوربا وأمريكا تعرفان الكون معرفة حسنة، وتجهلان الله جهلا شائنا⁽¹⁾، لذا يرى الغزالي أن العلم الذي يجب على المسلمين أن يتطلعوا إليه هو الذي يوصلهم إلى معرفة ربهم أولا وترسيخ عقيدتهم وصلتهم بالوجود: فيقول: "العلم الذي يقبل المسلم عليه ويستفتح أبوابه بقوة، ويرحل لطلابه من أقصى المشارق والمغرب ليس علما معينا محدود البداية والنهاية، فكل ما يوسع النظر ويزيد السدود أمام العقل النهم إلى المزيد من العرفان، وكل ما يوثق صلة الإنسان بالوجود يفتح له آمادا أبعد من الكشف والإدراك وكل ما يتيح له السيادة على العالم والتحكم في قواه والإفادة من ذخائره، ذلك كله ينبغي التطلع له والتطلع فيه، ويجب على المسلم أن يأخذ بسهم منه⁽²⁾.

وكثيرا ما نجد الغزالي يمدح الجانب العقلي المتمثل في الجانب العلمي التطبيقي، والذي تمنى لو أن يكون المسلمون متفوقون فيه، فالغرب نجحوا نجحوا ملحوظا في اكتشاف الكثير من قوى الكون ومعجزاته، وجعله طوع بنان الإنسان، وما بلغت الحضارة الغربية هذه الذروة من التقدم إلا بأخذها عصارة الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى.

و بناء على إدراك الغزالي لقيمة العلم الإنساني، فإنه يتبين أن القرآن ليس بكتاب علم، بل العلم الذي فيه غايته معرفة الله وحسن الإيمان به فيقول: "أن القرآن الكريم ليس بكتاب علم أو فيزياء أو كيمياء ولا طب ولا فلك، بل هو كتاب عقائد وأخلاق وعبادات ومعاملات، وكل حديث عن البشر إنما للإيقاظ والهداية، وأما الحديث عن الكون فهو لدعم الإيمان وترشيد السلوك⁽³⁾ كقوله تعالى: ﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ

﴿٢﴾ الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾، لذا يرى الغزالي أنه على المسلمين أن يكون لهم اليقين في تحقيق نتائج في العلم، خاصة وأن القرآن يدعو إلى ذلك لقوله

(1) -علاء الدين: محمد الغزالي وتحطيم القيود، مرجع سابق، ص 180.

(2) -المرجع نفسه، ص 17.

(3) -علاء الدين: محمد الغزالي وتحطيم القيود، مرجع سابق، ص 180.

(4) - سورة النمل، الآيات: 1-3.

تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾⁽¹⁾.

كما يكشف الغزالي أنه بالموازنة المنصفة عند تدبرنا للقرآن نجد حديثه عن بناء الكون وقوانينه ووظائفه ينسجم مع الحقائق العلمية انسجاماً لم يعرف لها شبيهها في كتاب آخر⁽²⁾، ويؤكد على أنه يستحيل أن توجد حقيقة علمية يقال أن في الإسلام ما يناقضها وفي هذا يقول: "إنه يستحيل وقوع تفاوت بين الإسلام والعلم، أي أن الحقائق المقطوع بها في ميدان الدين يستحيل أن يوجد ما يكذبها في ميدان العلم"⁽³⁾.

فالدين الحق والعلم الحق يتصادقان ولا يتكادبان، والخلاف قد يقع بين ظن علمي وظن ديني⁽⁴⁾.

و يقصد الغزالي بمصطلح النظرية العلمية (ظن علمي)، الرأي الراجح عند القائلين به في تفسير ظاهرة طبيعية أو تحليل قضية اجتماعية، أما الظن الديني فيقصد به المعنى الذي يحتمله نص قد يحتمل أيضاً نصاً آخر، وللناظر أن يرجح بالقرائن ما يتبادر له بتصريف، فالخلاف هنا يكمن في حقيقته بين أفهام البشر⁽⁵⁾، وبناء على ذلك فقد كان للغزالي رأي في منهج تعليم العقائد.

منهج تعليم العقائد: يرى الغزالي أن تعليم العقائد الإيمانية يقوم على دعامتين:

الأولى: القرآن الكريم الذي يخاطب الفطرة السليمة والعقل الرشيد، ويلفت النظر إلى الكون والإنسان والتاريخ، لتكون سرا للتفكير، ولذلك خص الغزالي مسألة التوحيد بمحور رئيسي من المحاور الخمسة للقرآن.

الثانية: العلم الحديث وما كشف من آيات في كونه، ومن بدائع صنع الله في خلقه، في

(1) -سورة الأعراف، آية 185.

(2) -معد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية، مصدر سابق ص 203.

(3) -المصدر نفسه، ص 208.

(4) -المصدر نفسه، ص 208.

(5) -المصدر نفسه ص 209.

علم الأفلاك، وفي عالم الجمادات، وفي النبات والحيوان وعالم الإنسان، وفي العوالم كلها من الذرة إلى المجرة، وبذلك يلتقي كلام الله في كتابه (القرآن) مع فعل الله في كونه وكلاهما يدل عليه ويهدي العقول والقلوب إليه⁽¹⁾، ولو قيل : كيف تعلم العقائد اليوم؟ يكون: الجواب، : أن يؤتى بكتاب: "الله يتجلى في عصر العلم" أو كتاب "العلم يدعو إلى الإيمان" وتوضع فصوله العلمية تحت الآيات القرآنية العلمية، التي تتحدث عن الكون، والتي تربط الأديان بالنظر في هذا الملكوت، ومثل هذا منهاج نديم الجسر في كتابه (قصة الإيمان)، ووحيد الدين خان في كتابه (الإسلام يتحدى)، (الذين في مواجهة العلم)⁽²⁾.

فسعة العلم - في نظر الغزالي - تلد رحابة الأفق، وحسن النية فيه تلد رحابة الصدر، والإيمان المحض يلد الحفاظ على الأمة، وفي هذا يقول: "اننا نرفض رفضا باتا أن تعيش الخليفة بغير دين يصلح بالها، ويزكي أحوالها ونرفض كذلك أن تعيش الخليفة بدين تأوي إليه الخرافة وتنهزم فيه الخصائص الإنسانية العليا، وتتأخر في ظل الحياة، وتذبل ملكات الابتكار والإبداع والنخيل"⁽³⁾.

و في اعتقاد الغزالي أنه لا بد من الاستعانة بنتائج العلم الحديث في كل المجالات في عرض العقيدة الإسلامية: لأنها من أولويات هذا الدين فيقول: "متزلة علوم الكون والحياة في إنجاح الجهاد الإسلامي، لا ريب فيه ومن أجل ذلك، فإن التفوق فيها أولى من معرفة فروع شتى في فقه العبادات والمعاملات، إن صيانة الأصل أرجح وأهم"⁽⁴⁾ لذا يدعو الغزالي إلى التوسع في المعارف، وحسن الإطلاع عليها، والعقل السليم هو الأداة الوحيدة لفهم الوحي والكون على السواء، والعلم والدين لا يتخاصمان كما ذكر الغزالي، ولذا يقول: " لقد رأينا أسرع الناس إلى تكفير الآخرين وغمط حقهم أقلهم سهما في فقه الدين والدنيا"⁽⁵⁾، ولقد عانى الغزالي من أمثال هؤلاء

(1)-عبد الحليم عويس، الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه مرجع سابق ص 24.

(2)-المرجع نفسه، ص 18.

(3)-علاء الدين : محمد الغزالي ودفاع عن الإسلام، مرجع سابق، ص 13-14.

(4)-محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية، مصدر سابق، ص 193.

(5)-محمد الغزالي: ظلام الغرب، مصدر سابق، ص 272.

الذي سماهم في مواطن أخرى "أنصاف المتعلمين" لإساءتهم إلى هذا الدين أكثر من غيرهم بجهلهم .

لذا فإننا نجد يؤكد في الكثير من كتبه وحواراته وخطبه⁽¹⁾ على أن الرؤية الصحيحة لعقائد الإسلام والأحكام التشريعية لا يتم تقريرها إلا بوجود خلفية عظيمة من المعرفة القديمة والحديثة على السواء وبأفق واسع، و بالتالي فإن الدعوة إلى الله لا يصلح لها إلا من كانت له ثروة طائلة من الثقافة الإسلامية والإنسانية عارفاً، بالكتاب والسنة والفقهاء، ملماً بالتاريخ الإسلامي والإنساني وعلوم الكون والثقافات الإنسانية المعاصرة⁽²⁾.

و لقد قدم الغزالي منهجه في عرض العقيدة في مقدمة كتابه "عقيدة المسلم" فيقول: "هذه بحوث في العقيدة دفعتني إلى كتابتها قلة الرسائل التي تعنى بهذا اللون من علوم الدين، وتعرضه في أسلوب يتفق مع حاجة المسلمين المعاصرين، وقد رأيت أن أسوق الأصول العلمية لعقيدة المسلم في نسق يخالف ما ألف الناس قراءته من هذه الأصول في ثقافتنا الدينية، لا لآتي بجديد في هذا الميدان، بل نزولاً على منطق التجارب، وانتفاعاً بما اكتنف جوانب التاريخ الإسلامي من أحداث"⁽³⁾.

و في هذا الكتاب يقدم الغزالي نموذجاً من النماذج الدالة على المنهج السليم في معالجة قضايا العقيدة، فيثبت وجود الله من خلال أربعة أدلة هي:

1 دليل الإبداع: وفحوى هذا الدليل أن الإنسان لم يخلق نفسه، و لم يخلق غيره من الكائنات، ومن المقطوع به أن وظيفة الخلق والإبراز من العدم، وهي لله . وقد قرر هذه الحقيقة القرآن في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلْقُونَ ﴾ (٣٥) أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ^ع

(1)-أنظر محمد الغزالي دستور الوحدة الثقافية، المصدر السابق، ص 204-208. انظر: محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 145-146.

(2)-قطب عبد الحميد قطب: خطب الشيخ محمد الغالي، مرجع سابق، ص ص15.

(3)-محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 5.

بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴿١﴾ وما دامت الأشياء لم تخلق نفسها ولا تخلق غيرها فخالقها هو الله عز وجل^(٢).

2 دليل العناية: ويقصد به الترتيب المحكم في الكون، ولا بد أن يكون عن تقدير وحكمة وليس عن صدفة وإتقان، والفاعل مجهول، فالناظر في الكون وآفاقه، والمادة وخصائصها، يعرف أنها محكمة بقوانين مضبوطة شرحت الكثير منها علوم الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان والطب وغيرها.

ولعل ما وصل إليه العلم الحديث من اكتشاف أسرار الكون، تبعد كل شبهة توهم صاحب النظر أن الكون وجد صدفة، بل إن النظام الدقيق الموجود في طوايا الذرة مطردا فيما بين أفلاك السماء الرحبة لقوله تعالى: ﴿نُبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سُرُبًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴿٣﴾.

دليل الحركة: وفحواه أن الكواكب السيارة في أعماق الفضاء يتحرك بانتظام، وفي سرعة واحدة، وتلتزم مدارا واحتلالا تحرف عنه فمن الذي هيمن على نظامها؟ ومن الذي أمسك بأجرامها؟ ولحكمة الله فإن هذه الكرات الغليظة الحجم المضيء منها والمعتم هي معلقة لا تسقط، وقد يصطدم المشاة كما يقول الغزالي والركبان على أرضنا وهم أصحاب بصر وعقل، أما هذه الكواكب التي تزحم الفضاء فإنها لا تزيع ولا تصطدم^(٤)، لقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴿٥﴾.

(١) -سورة الطور، الآيتين: 35-36

(٢) -محمد الغزالي: ظلام من الغرب، مصدر سابق، ص 14.

(٣) -سورة الفرقان الآيتان 61-62.

(٤) -محمد الغزالي: المصدر السابق، ص 15.

(٥) -سورة يس، الآيات 38-40.

وكلمة الجاذبية في نظر الغزالي هي رمز لقوانين تصرخ باسم الله، ولكن الصم لا يسمعون⁽¹⁾.

دليل الحدوث: ومضمون هذا الدليل أن لكل شيء في الكون بداية معروفة سواء كان انسانا أو حيوانا أو نباتا أو جمادا ومعنى ذلك أن الكون كله محدث، وما دام كذلك، فلا بد من محدث وهو الله تعالى يؤكد العقل والعلم. وعناصر الكون الذي تعيش فيه لها بداية، فلقد قدر علماء الجيولوجيا لها أعماراً محدودة، ومهما طالَتْ فإنها بدأت من الصفر، أي من العدم، والله هو الذي أوجدها ويؤكد الغزالي في هذا الدليل أن تفجير الذرة هدم ذلك الظن الذي يقول بقدم العالم، فعدم اعتناء العلماء إلى مادة الكون، لا يعني أبداً أن هذه المادة غير قابلة للدمار والفناء، وفي هذا يقول الغزالي: "إننا جازمون بأن وجودنا محدث، لأن إحساسنا وتفكيرنا يهدينا لذلك، وغير معقول أن يتطور العد إلى وجود تطورا ذاتيا⁽²⁾، بل يوجد الله ويكونه لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾⁽³⁾.

كما ينقل الغزالي بعض الشهادات العلمية التي توصل إليها أصحابها في إثبات وجود الله فيقول: "استفتت مجلة كولييرز" المعروفة عددا كبيرا من علماء الذرة والفلك، وعلم الأحياء" البيولوجيا، فأكدوا أن لديهم أدلة وقرائن كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذي لا حد له"، ويقول الدكتور "راين": "إنه ثبت من أبحاثه في المعامل أن في الجسم البشري روحا وجسما آخر غير متطور"⁽⁴⁾، وقال عالم آخر: "إنه لا يشك في أن الكائن الأعظم وهو ما نسميه الأديان السماوية " الله هو الذي يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها ن الظواهر والقوانين الخارقة في هذا الوجود"⁽⁵⁾. وهذا "هرشل" كما يذكر الغزالي فهو

(1)-محمد الغزالي: المصدر السابق، ص 16.

(2)-محمد الغزالي: ظلام من الغرب، مصدر سابق، ص 16-17.

(3)-سورة الإنسان، آية 1.

(4)-محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 26.

(5)- المصدر نفسه، ص 26.

من فلاسفة القرن الثامن عشر يقول: " أنه كلما اتسع نطاق العلوم تحققت وكثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة، وعلماء الأرضيات والبيق والطبيعات والرياضة يهينون بمساعيهم واكتشافاتهم كل ما يلزم لإنشاء معبد العلوم، إعلاء لكلمة الخالق"¹.

كما أورد الغزالي في كتابه شرح "لابلاس" دليل الحركة الكونية وأبان قوة هذا الدليل في جسم الشبهات التي تثيرها الجاحدون فيقول: " أما القدرة الفاطرة فقد عينت جسامة الأجرام الموجودة في المجموعة الشمسية وكثافتها، وثبتت أقطار مداراتها، ونظمت حركاتها بقوانين بسيطة، ولكنها حكيمة، وعينت مده دوران السيارات حول الشمس، والتتابع حول السيارات بأدق حساب، بحيث أن هذا النظام المستمر إلى ما شاء الله لا يعدوه خلل"².

وفي كتابه نظرات في القرآن ذكر الغزالي فضلا كاملا عن عجائب الوحي في وصف السحب والأمطار والرعد والبرق لبعض العلماء، الذين تحدثوا في الإعجاز العلمي ، كما تحدث الغزالي عن موريس بكاي الذي أبرز جوانب من الإعجاز العلمي تفرد بها القرآن الكريم، ولم تعرف في كتاب من الكتب السماوية، بل إن كتب أخرى للأديان كان فيها الكثير من العوج والوهم العلمي³، فيضيف قائلا: "ثم قرأت كتابا عن خلق الإنسان بين الطب والقرآن" لصاحبه محمد علي البار، فبهمني ما وجدت من تطابق بين حقائق العلم التي قررها بالصور الدقيقة وبين آيات الكتاب العزيز، وزدت إيمانا على إيمان، والحق أن الكتاب يترك في نفس القارئ إعجابا عميقا بالقرآن وتصديقا مطلقا للنبي خاتم الأنبياء ﷺ، - وغيرهم من الذين استشهد بهم الغزالي في كتبه⁴.

المطلب الرابع: الواقعية

انتهج الغزالي خاصية الواقعية في عرضه للعقيدة الإسلامية، تأسيسا بمنهج القرآن والسنة،

(1)-المصدر نفسه، ص 20.

(2)-محمد الغزالي: عقيدة المسلم، المصدر السابق، ص 21.

(3)-محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية، مصدر سابق، ص 203-204.

(4)-المصدر نفسه، ص 204-206.

وإحياء وتجديدا لعلم الكلام الذي بدأ واقعياً، ثم بمرور الزمن انفصل عن الواقع وجنح إلى التجريد حتى فقد حيويته وفعاليته في حياة الناس، ذلك أن الخطاب القرآني هو الخطاب المقنع والنافع، والمطابق لواقع الحال، لذلك نجد الغزالي في تناوله للعقيدة يراعي مقتضيات الواقع ومتطلباته، كما تبين ذلك من خلال عرض خصائص فكره العقدي في الفصل السابق، وعليه فقد عمل الغزالي على ترشيد الواقع الإسلامي من جميع الجوانب ورده إلى أصول الإيمان الصحيح، حيث انطلق من واقعه يدعو إلى قراءة مسالكه وسبله كقراءة الصفحة من الكتاب، وفعلاً كان واقعه كمثل الكتاب المفتوح، يقرأ سطوراً وما بينهما⁽¹⁾، ففقه هذا الواقع عن طريق المعيشة والإطلاع، سواء كان واقع المسلمين أو واقع غير المسلمين، فتدبر أحداثه، وتعلم منها ووظفها في نصرة عقيدته، فقد كانت له عقلية متدبرة، تحلل بهدوء، وتشرح بمرونة، وتأخذ من الواقع لتغيير الواقع، ورغم أنه اهتم بجوانب واقعه المختلفة المادية والحسية، إلا أنه ركز على واقع العقائد والأفكار، والأخلاق والتقاليد.

فلقد أتقن الغزالي علوماً كثيرة، ونظر بعمق إلى مجتمعاتنا المعلولة، فرتب أدوائها ثم حارب الداء والدواء المغشوشين معاً، وأدرك أنه لا يمكن عزل عقائد الإنسان عن حياته، ولا الخطاب عن المخاطب. بل ومحاولة ذلك هي كمن يروم بناء على غير أرض، وزراعة في غير تربة والحقيقة أننا عندما نقرأ لكتب الغزالي، فإننا لا نلمس فيه المؤلف الذي يقدم فكراً أو تصوراً نظرياً أو مواعظ مجردة بقدر ما نلمس، المؤلف الذي يكتب نتيجة معاناة وتجربة اجتماعية أو فكرية⁽²⁾، ووعي للواقع الذي يريد تصحيح عقائده التي كانت سبباً في تخلف المسلمين، كما لمسنا هذه الواقعية عند عرض بعض خصائص فكره العقدي، من خلال سعيه للربط بين عقيدة المؤمن والشريعة الإسلامية، وبين العقيدة والعمل، وبين العقيدة والأخلاق، فكانت كل أفكاره وآرائه، ومواقفه التي عاشها تنبع مما في صدره من إيمان وما في عقله من تبصر لواقعه وللحقيقة، فكان يعيش للإسلام بالإسلام، إذ قاده تجربته هذه إلى ترصد طبيعة العلل والإشكالات التي يطرحها

(1) - يوسف القرضاوي: الشيخ محمد الغزالي كما عرفته، مرجع سابق، ص 97.

(2) - محمد عمارة: قصة حياة، مرجع سابق، ص 240.

واقعه المعاصر خاصة في مجال الانحرافات العقيدية والمفاهيم الخاطئة فيها.

وبالتالي نجد قد ناقش علماء الكلام والمتصوفة والمحدثين والفقهاء والمؤرخين كما ناقش المستشرقين والمتغربين⁽¹⁾، وليس له من ذلك كله سوى العمل على إصلاح المفاهيم المنحرفة، وترشيد الواقع الإسلامي وفق ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله، وقد تناول ذلك تارة بالنقد، وتارة بالتوجيه وإعطاء البديل، إلى أن وقف على تشخيص العلل التي أصابت الأمة في عقائدها وفي أخلاقها والتي تتمثل في ضعف الولاء لله وفقدان روح الالتزام بالعقائد الصحيحة والعبادات، ولتجاوز هذه العلل في نظره، لا بد أن تكون عقيدة المسلم هي القوة الفاعلة والمؤثرة، والمؤسسة لتصرفاته حيث تسري في أفكاره وجميع أفعاله، وميادين حياته سواء على المستوى الفردي أو الاجتماعي.

ومن واقع تجربة الغزالي، نجد صور لنا أثر دروس العقيدة التي كان يتلقاها في تعليمه، بتلك الصياغة فيقول: "قد كنت أرقب عن كتب ما تخلفه دروس التوحيد من كتبه المقررة، فما كنت أجد فارقا يذكر لدى السامعين بينها وبين شروح المعادلات الجبرية مثلا"⁽²⁾.

و بناء على ذلك فإنه عمل على إرشاد قواعد جديدة لمنهج تعليم العقائد - كما سبق ذكره - وذلك في ظل رؤيته التجديدية، لعلم العقيدة، وفي ظل هذه الرؤيا أيضا، في فكره السياسي مثلا لم ينشغل كثيرا بإعادة إنتاج الفكر الإسلامي الموروث في هذا الميدان، وإنما اهتم بمعالجة القضايا التي طرحها عصره، وربطها بالعقيدة كما قاوم الاستبداد بكل صورته وانتصر لحرية الجماهير - كما سبق ذكره - ومن أقواله التي تثبت هذا الموقف: "أن الإسلام والاستبداد ضدان لا يلتقيان، فتعاليم الدين تنتهي بالناس إلى عبادة ربهم وحده، أما مراسيم الاستبداد فترتد بهم إلى وثنية سياسية عمياء"⁽³⁾.

(1) -سيأتي الحديث عنه في المبحث الثالث.

(2) -محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص8. وانظر: محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة، الزيتونة للإعلام والنشر، الجزائر، دط، 1987، ص85-88.

(3) -محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، مصدر سابق، ص8.

ولعل ردوده الكثيرة والمختلفة على بعض العلمانيين والحجج التي ساقها، كانت سلاحاً قوياً لكسر جناح التغريب والعلمانية وهو دليل من أدلة واقعيته كما سيأتي الحديث عنه.

ونتيجة للظروف القاسية (اجتماعية - سياسية) التي عايشها الغزالي، والتي استمد مقومات شخصيته منها، هذه الشخصية التي جمعت بين مقاييس العزة والعناد، وبين الإيمان والعمل، المبدع الذي من شأنه أن يخلص الطبقات المستضعفة من البؤس ويقرر مبدأ العدالة الاجتماعية الذي يضمن الحياة الكريمة لكل فئات المجتمع، فإنه يخلص إلى قول حكيم يدل على فقه الواقع، وفقه التدين الذي عرف به، إذ يقول: "وقد رأيت بعد تجارب عدة أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة، والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، إنه من العسير جداً أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذ كان بدنه عارياً، إنه يجب أن يؤمن على ضروراته التي تقيمه أوده كإنسان، ثم ينتظر بعدئذ أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان، وكثيراً ما وجدني أعالج وعظ الناس في بيئات صرعها الفقر والمرض والجهل، فكنت أحرار ماذا أقول لهم؟ هل أقبح لهم الدنيا؟ كما يظن أنه مفروض من علماء الدين، إن الدنيا لن تكون أقبح ما عليه في أعين هؤلاء التعساء"⁽¹⁾. أي أن توظيف العقائد في النفوس، وغرس الفضائل في القلوب يحتاج إلى تمهيد اقتصادي واسع، بل حتى العقل الإنساني لا يمكن له أن يبدع أو يبتكر إلا في ظل بيئة تضمن له ضرورات الحياة.

و يؤكد الغزالي في هذا الاستخلاص قيمة الجانب الروحاني في تدعيم معنويات الإنسان، وحفظ كيان الأمم، بيد أن ذلك لا يعني إغفال المشاهد الملموسة من تولد الرذائل الخطيرة في المجتمعات المصابة بالعوز والاحتياج، بل إن الاضطراب الاقتصادي في أحوال كثيرة جداً قد يكون السبب الأوحى في نشوء الرذيلة وشيوعها⁽²⁾.

و هذا الرأي للغزالي يعبر بوضوح على مدى واقعية فكره، وتعامله معه وبذلك أراد الغزالي للمسلمين أن يجسدوا عقيدتهم، وحسن إيمانهم بالله في واقعهم وذلك بالإصلاح النفسي العمرائي

(1) - محمد الغزالي: الإسلام والأوضاع والاقتصادية، مكتبة رحاب، الجزائر ط1، ص61.

(2) - سورة إبراهيم، الآية: 1.

الشامل، حتى تتمكن من محاربة الرذائل والمعاصي والجرائم، وهذه في حد ذاتها واقعية المنهج القرآني الذي جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور لقوله تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾⁽¹⁾، فهذه الظلمات هي واقع الإنسان من الشرك والرذيلة والفساد، والتخلف المادي والمحتوى.

فمشكلة الإنسان كما يتصور الغزالي، ليست في استقبال عقائدها من الكتاب والسنة، وإنما هي في كيفية إنزالها على واقعه وترجمتها إلى كل عمل صالح وسلوك حسن، ويحمل في ذلك القول: "غاية ما يصبو إليه الدين، أن يجد الجو الملائم لغرس عقائده وظهور آثارها من خلق وعمل — فإذا ضمنا هذا الجو الرحب، فقد أمكن للدين أن يحقق رسالته وإلا فالدين لا يعدو أن يكون بضاعة تباع في بطون الكتب، أو كلاما تنقله طائفة من الرجال في حلقات الوعظ، وخطب المنابر، لا يثمر غير التوجيه النظري"⁽²⁾، وبذلك لا يكون له علاقة بواقعه، فلا يغير فيه ولا يصلحه.

(1) - محمد الغزالي: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، المصدر السابق، ص 91.

(2) - المصدر نفسه، ص 62.

المطلب الخامس: التاريخ

لم يؤثر عن الغزالي في كتاباته - كتاب في " التاريخ " بمعناه الخاص، إلا أنه كان شغوف بقراءة التاريخ الإنساني عموماً والتاريخ الإسلامي خصوصاً، قراءة المتدبر الواعي، الراصد لبواعث الفعل التاريخي، الراسم للخط البياني لأمته عبر تاريخه بمختلف مراحلها، ولا يكاد يخلو مؤلف من مؤلفاته ولا دراسة ولا مقال إلا وله فيه نظرة إلى حدث من أحداث تاريخ المسلمين، يحلله، ويقراً سطوره، مستنبطاً في النهاية قوانين التغيير والإصلاح، ووقوفاً عند العلل، وفي هذا يقول: "ولمعرفة التاريخ العام أثر عميق في صوغ العقل وفعله بتجارب لا حصر لها، فإن حاضر الإنسانية، امتداد لماضيها البعيد ومهاد لمستقبلها المرتقب، وعلى المؤمنين أن يلتمسوا العبرة مما مضى ليصونوا يومهم وغدهم"⁽¹⁾ ولذلك كان يرى أن التاريخ دراسة إنسانية وفريضة دينية.

فالتاريخ في نظر الغزالي ليس مجرد أحداث تسرد تُعرف من خلالها على أبناء الانتصارات والهزائم، بل هو ذاكرة الأمة ومستقبلها ومستودع تجاربها ومعارفها، وهو عقلها الظاهر والباطن، وخزانة قيمتها ومآثرها وأساس شخصيتها الفائرة في القدم، الممتدة مع الزمان⁽²⁾، لذلك نجده يقرر بأن التاريخ هو دراسة إنسانية، وفريضة دينية إذ يقول: "إن دراسة التاريخ ليست نافلة يتطوع بأدائها من يشاء، إنما ضرورة دينية واجتماعية تقوم بها الأمم الحية، ولو أن مؤسسة تجارية غفلت عن ماضيها وتجاربها، لأغلقت أبوابها على عجل، وانسحبت من الأسواق لتكون ذكرى"⁽³⁾ وإلى جانب ذلك، فإنه يؤكد أنه بعد التأمل العميق في تاريخ المسلمين القريب والبعيد، تبين بأن دراسة التاريخ هي ضرورة بقاء وسياج لحياة المسلمين، ورسالتهم، إذا كانوا حراساً على صون حياتهم وتبليغ رسالتهم⁽⁴⁾ ذلك أن الأمة الإسلامية تتمتع بتاريخ لا تزال أسرارها مخبوءة

(1) - يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته، مرجع سابق، ص 113.

(2) - محمد الغزالي: ظلام من الغرب، مصدر سابق، ص 296. وانظر: تراثنا الفكري، مصدر سابق، ص 105-108.

(3) - محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية، مصدر سابق، ص 145.

(4) - محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، مصدر سابق، ص 116.

ومعرفة المسلمين له ضئيلة، ولهذا السبب نجد الغزالي في دراسته للتاريخ - لا يقف عند مرحلة معينة من مراحلها، بل يجعل التاريخ وحدة متجانسة وحلقات مترابطة تبدأ من بعثة الرسول ﷺ إلى حاضر المسلمين اليوم.

وقد سلك الغزالي نهج القرآن الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٤٦) (١)، والذي يبين في هذه الآية وفي مثلها أن هناك عقلا يتكون من التجربة، ومن السير في الأرض، ومن النظر إلى الماضي، وأخذ العبر والدروس منه. هذا العقل المتولد من المدارس والمعاناة، فتكون أحكامه أقوى وأصوب.

والغزالي ينظر إلى التاريخ على أنه المعبد الذي تُعرف فيه سنن الله في الكون، وقوانينه في الحياة والأحياء، وهو مختبر لسلوك البشر، ومجال فرز الحق من الباطل، وميزان الفوز من الخسران، وليس دخول هذا المعبد من نوافل الأعمال - كما ذكر - بل هو واجب ديني على كل مسلم وبيان ذلك في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢).

و بهذه الرؤية أنكر الغزالي على الذين لم يبدلوا الجهد في قراءة تاريخهم، ظنا منهم أنه من العلوم القليلة الشأن والجدوى، فوقع للأمة ما وقع من الخزي والوبال فيقول: "عتبت على رجالنا أنهم لم يدرسوا التاريخ كما يجب و لم يوفرُوا له الجهد والوقت الذين وفروهما لعلوم أقل قيمة، ومن ثم وقعت في ماضيها أخطاء معيبة وأراء رهيبية ثم مرت كأنها رقم على الماء، لم تخلف بعدها عبرة و لم تستفد منها عضة وهذه طبيعة الأمم الغافلة تستقبل أحداثا كانت من قبل مثلها، ثم تتعامل معها وكأنها لا تعرف عنها شيئا... أليست هذه الأمم هي المعنية بقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ

(١)-سورة الحج، الآية: 46.

(٢)-سورة يوسف، الآية 111.

يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴿١﴾ ... وآلامنا المعاصرة تجعلني أدرس بتوعدة تاريخ رذيلة طالما حذرنا الإسلام منها، ونهانا عن مواقعتها⁽²⁾.

وبما أنّ الرسالة الإسلامية، هي رسالة عالمية، فلا بد من التعرف على الأمم الأخرى، وعلى أحوالها وفي هذا يقول: " لم نكلف أنفسنا مد البصر إلى ما وراء حدودنا، مع أننا أصحاب دعوة عالمية نعم لم نحاول أن نعرف كيف يفكر أو كيف يعيش اليهود والنصارى وغيرهم في بلادهم وما هي الأطوار النفسية والاجتماعية التي يتميز بها"⁽³⁾.

و بناء على ذلك دعا الغزالي إلى إيجاد منهج معرفي إسلامي جديد قادر على صياغة التاريخ الإسلامي صياغة جديدة يكون من خلالها ركيزة وحدة ومناصرة، فيؤلف له "مجمع علمي" يتعاون رجاله على غرلة التاريخ الإسلامي كله غرلة قوامها نشدان الحق، وعلاج الهفوات الفردية كما يرد للشعوب الإسلامية اعتبارها ويجمع شتاتها⁽⁴⁾.

كما أن الغزالي يرى الحاجة الملحة، إلى بعث روح النقد الموضوعي لتراثنا العقدي وتاريخه وحاضرنا وفي أفكارنا، والغاية من ذلك هو الكشف عن أسباب الخلل والاضطراب والانحطاط في جميع أحوالنا، عن طريق التمييز بين الأسباب والنتائج الذي يتوقف عليه العلاج الصحيح للمسائل، إذ أن الخلط بينها فوق أنه خطأ منهجي وعلمي فادح، فإنه قد ضيع علينا وقتنا طويلا وطاقات في تشخيص العلة والعلاج، فكان سببا في تفاقم أمراض الأمة الإسلامية، فلا بد إذا أن نعيد النقد على أسس قيمنا العقائدية لبعثها قيم جوهرية لها دورها الأساسي في بعث روح الأمة، واستنفار طاقاتها للنهوض الأخلاقي والعلمي والعملية، مع تبصير الأمة والعالم أجمع، بقيمة الإسلام وما يتضمنه من قيم عظمى عليها أن تبرز في واقع الناس. حتى يكون الإسلام في التاريخ الإنساني عنوان على حقائق العقيدة والشريعة والعبادات والأخلاق وشتى المعاملات، وتكون

(1) -سورة الأعراف، الآية 100.

(2) -محمد الغزالي: ظلام من الغرب، مصدر سابق، ص 290.

(3) -محمد الغزالي: عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق، دار الشهاب، باتنة، دط، ص 162.

(4) -محمد الغزالي: ظلام من الغرب، مصدر سابق، ص 299.

كلمة الحضارة عنوان على النشاط الفكري والروحي والعمراني، وجملة القيم الدينية والمدنية التي صاحبت مسيرة الإسلام⁽¹⁾.

و بهذا المسلك السليم في التاريخ، لا يكون الدين ظاهرة تاريخية أو ثقافية - كما هو عند بعض الشعوب - بل هو في حقيقته فطرة الله، وهو خاصية كونية وإنسانية، حتى لا تعود الديانات كلها إلى مذاهب متعارضة وعقائد متناقضة، وإنما هي دين واحد متواصل قائم على الوحي والكتاب، وما أرسل محمد إلا ليؤكد الرسائل السابقة، وليظهر ما تغير عبر التاريخ ليتممها ويكملها ويصحح الانحرافات العقدية، ويردها إلى وحدتها في المصدر والغاية، بعد عرض خصائص فكر الغزالي العقدي وأسس منهجه، يمكن لنا استخلاص مدرسته التي ينتمي إليها، والتي تأسست وفق هذا المنهج الفكري العقدي.

مدرسة الغزالي:

يرى الغزالي أنه واحد من أبناء مدرسة التجديد، وقد حاول التأكيد على أصالتها وامتداد جذورها في تاريخها العريق فالفكر الإسلامي عرف في بداياته مدرستين : مدرسة الرأي والتي نظر فقهاءها إلا الملابس والظروف المحيطة بالحديث ومفسروه على ضوئها، وعلى ضوء الآية القرآنية المحكمة، وقد جعلوا الآية حاكمة على الحديث محددة لمعناه ومدرسة الأثر التي تكاد تكون إمضاء لظاهر النص مع بعد عن الحديثية التي أخذت على ابن حزم وأزرت بفكره في قضايا كثيرة، وإن هذا البعد يتلشى في بعض القضايا⁽²⁾.

فمدرسة التجديد هي امتداد لمدرسة الرأي، وفي حديث الغزالي عن رواه يقول: " كان جمال الدين الأفغاني أول من أبصر الحقد التاريخي في ضمير الاستعمار الغربي ونية المسلمين إلى أن أوروبا لا تزال تحمل ضغائن (بطرس الناسك) في تعامله مع المسلمين وكان محمد عبده أول من أحس حاجة الأمة إلى تربية واعية، تتعهد سلوكها بالعقل المؤمن، وتحرس نظامها بالشورى العامة

(1)-محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، مصدر سابق، ص 164-165.

(2)-محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، مصدر سابق، ص 74-75.

وكان محمد رشيد رضا ترجمان القرآن وشارة السلفية الصحيحة والمفتي العارف بأهداف الإسلام والمستوعب لآثاره وما كان حسن البنا ولا الأتربون منه يخدمون الإسلام بالعنف أو ما يسمى الآن بالإرهاب"⁽¹⁾.

و لقد حدد الغزالي بنفسه موقفه في المدرسة التي قادها جمال الدين الأفغاني بدء من النصف الثاني من القرن الماضي، وهو بذلك يمثل الجيل الخامس في هذه المدرسة، لذا كان عليه أن يواصل الطريق الذي بدأه أسلافه الذين أخذ وتعلم منهم ويقر الغزالي بذلك في قوله: "أتردد على تفسير المنار بين الحين والحين لأن تعلم منه ما لم أكن أعلم وهو في نظري موسوعة ثقافية موازاة بالأبحاث التي تشل الدين له، والشيخ رشيد وأستاذ محمد عبدو، وزعمهم جمال الدين من أعمدة اليقظة الإسلامية في العصر الحديث، وكأهم، ومن فوقهم ومن دونهم من المفكرين الإسلاميين الذين رزقوا الحكمة ولا زعمت له يوماً"⁽²⁾.

مميزات مدرسته:

تقف مدرسته الغزالي وسطا جامعا بين كل التيارات الإسلامية ملتزمة الكتاب والسنة وتدعو إلى تبني المرجعية الإسلامية في التغيير، كما تحاول التمييز بين المنابع والأصول المقدسة في ديننا، وبين الوسائل المتغيرة، والفهوم التي تميزت بمتغيرات عصورها وتجارب أجيالها، فهي ما يستأنس بها، ويستفاد منها دون إلزام، وهي بذلك ترفض التعصب والتفوق، وتدعو إلى التكامل والوحدة بين المسلمين، وتضع الرؤية الحضارية فوق الرؤى الجزئية.

و لعل ما يميز هذه المدرسة أكثر، هو تعاملها مع الثقافات الغربية وقوانين الطبيعة التي لا وطن لها، فهي مشترك إنساني عام، لا يتغير بتغير البيئات والحضارات، وبين الفلسفات والثقافات التي تصنع شخصية الأمم وتحدد خصائصها، فهي تختلف بذلك باختلاف الأمم والعقائد.

و لقد اعتمدت هذه المدرسة في مواقفها الفكر والبيان مع التربية والعمل سبيلا لتقديم

(1)-محمد الغزالي: الحق المر، نضة مصر، القاهرة، 1996، ج5، ص 4-5.

(2)-محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية، مصدر سابق، ص 80

المشروع الحضاري الإسلامي كونها مدرسة مثقفة واعية بواقعها، تؤمن بالتعاون والعمل الحضاري، والتغيير العاقل كما تدعو إلى الإصلاح الشامل عن طريق السلوك الحميد المنبثق من العقيدة الصحيحة.

كما ترفض هذه المدرسة الجمود والتقليد والتحديث على النمط الغربي، ورأت فيه غلوا وقصر نظر، ودعت إلى الوسطية التي تسعى إلى أسلمة الحلول لمشكلات الواقع الإسلامي⁽¹⁾.

و نشير هنا إلى أن الأسس (المنطلقات) السابقة لمنهج فكر الغزالي هي نفسها منطلقات مدرسة محمد عبده ورشيد رضا، والأفغاني، وقد عبر عن هذا المعنى محمد عمارة بقوله: "وهكذا رأينا الإطار الذي نعتقد أن فيه موقعه الفكري، إطار مدرسة الأحياء والتجديد، وخاصة فضيلته الذي انتقل بإسلامية المعرفة والحياة من إطار الصفوة - كما كان الحال على عهد الشيخ محمد عبده إلى إطار الأمة وجماهيرها وهي المرحلة التي بدأت بالشيخ حسن البنا رحمه الله"⁽²⁾.

هذا ولا يعتبر الغزالي نفسه مجرد منتم إلى هذه المدرسة بل علما من أعلامها، ورائد فيها، مبينا لأسس التي اعتمد عليها فكره، إذ يقول: "والمدرسة التي أعتبر نفسي رائدا فيها، أو ممهدا لها، نقوم على الاستفادة التامة من جميع الاتجاهات الفكرية والمذاهب الفقهية في التاريخ الإسلامي، كما ترى الاستفادة من كشوف الفلسفة الإنسانية في علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والتاريخ ومزج هذا كله بالفقه الصحيح للكتاب والسنة"⁽³⁾.

و في موطن آخر يعبر الغزالي موضحا أثره ومحددا لمناهج مدرسته الفكرية، وملاحظها فهي إن قامت على النقل إلا أنها تقوم على ترويجها للعقل وتقديم دليله، واعتبارها له أصلا للنقل، وهي تقدم الكتاب على السنة وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد، وهي ترفض أيضا مبدأ النسخ وتكرر إنكارا حاسما أن يكون في القرآن نص انتهى أمده⁽⁴⁾.

(1)-محمد عمارة: هل الإسلام هو الحل؟ لماذا وكيف؟، دار الشروق ط 2، القاهرة (1418-1996)، ص15.

(2)-محمد عمارة: الشيخ الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية، مرجع سابق، ص42،

(3)-قطب عبد الحميد قطب: خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة، مرجع سابق، ص 15.

(4)-محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، مصدر سابق ص 80.

كما ترى هذه المدرسة المذهبية فكرا إسلاميا قد ينتفع به ولكنه غير ملزم، فهي تنكر التقليد الأعمى المذهبي، وتحترم رأي الأئمة، وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية، ولا تلقي بالا إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة أو الحديثة⁽¹⁾.

و مع حب الغزالي العميق للسلف، إلا أنه يحتفي سائر العباقرة من أئمة الفقه والأدب والعقيدة وسائر فتون المعرفة الذين ظهروا في تاريخنا⁽²⁾.

و بهذه الرؤية يقدم الغزالي مشروعه الفكري ومنه العقدي ضمن هذه المدرسة التجديدية، على أن الإسلام قلب نقي وعقل ذكي، معبرا بذلك عن وسطية الإسلام، جامعا فيها مصادر المعرفة بين كتابي الله، كتاب الوحي المسطور وكتاب الكون المنظور، وفي سبيل المعرفة جامعا بين العقل والنقل، والتجربة والوجدان، وبين الواقع والنظري.

(1)-المصدر نفسه، ص 80.

(2)-عبد الحليم عويس: الشيخ محمد الغزالي صور من مجاهد عظيم، مرجع سابق، ص 58-59.

المبحث الثاني: مواجهة التحديات الداخلية

اعتنى الغزالي بتصحيح الفكر الديني والقصور فيه، لدى المسلمين خاصتهم وعامتهم، فقد انتشرت بينهم أفهام سيئة وتصورات مغلوطة عن كثير من المفاهيم الإسلامية التي جاء بها القرآن والسنة وحتى ينفي الغزالي، هذا الزيف والانحراف الواقع في هذه الأفهام أُلّف العديد من الكتب منها: " كيف نفهم الإسلام " و ليس من الإسلام"، " دستور الوحدة الثقافية"، " علل وأدوية" وغيرها، وقد بين فيهما البدع والمحدثات التي دخلت رحاب الفكر الإسلامي في ميادين مختلفة خاصة العقائد منها .

و لقد حرص الغزالي على أن ينفي عن الإسلام تزييف الغالين وأوهام الجافين، وأن يعرض الإسلام عرضاً نقياً مصفى، ولعل كتابه " دستور الوحدة الثقافية" كان أكثر بروزاً في مواجهة هذه المفاهيم الخاطئة، ومن أبرز ما واجهه الغزالي من مفاهيم خاطئة وانحرافات عقديّة مايلى:

المطلب الأول: التدين المغشوش

أدرك الغزالي أن هناك عدواناً طريقه ما إلى الأرض الإسلامية هما: العدو الأول سوء فهم الدين، وهذه من التحديات الداخلية والعدو الثاني: أن الإسلام دين لا دولة، أي أنه ليس له علاقة بحياة الناس، ويمثل من أبرز التحديات الخارجية التي نتناولها في المبحث الثالث.

و لمواجهة ذلك بل ولعلاج تلك المفاهيم الخاطئة والمنحرفة يرى الغزالي، وجوب نظرة فاحصة واختيار لبيب⁽¹⁾ في التراث الثقافي الإسلامي، وفي هذا الصدد يصرح الغزالي بإعجابه لعبارة عمر عبید حسة القائلة بضرورة إعادة العقل الإسلامي من جديد لتصحيح الفهم المغلوط في الدين وأساس هذا الترتيب كما يرى الغزالي:

أولاً: تنسيق شعب الإيمان في سلم يكشف أذناها وأعلاها، ويأحصاء شؤون الدنيا التي لا يقوم الإيمان إلا بها، وتوزيع قوى الجماعة عليها، والتعريف بالقطيعات والظنيات في آفاق التشريع

(1) - محمد الغزالي: علل وأدوية، مصدر سابق، ص 173. وانظر: محمد الغزالي: دستور الوحدة، مصدر سابق، ص 134.

ومواطن التقليد والاجتهاد⁽¹⁾.

إن هذا الأساس الذي وضعه الغزالي، هو محاولة لإعادة التصور الكلي والمتوازن للإسلام عن طريق تحقيق التوازن في عرض قضاياها المختلفة كلا حسب درجتها، وتفادي حدوث أي امتداد لجزء على حساب جزء آخر، أو فرع على حساب فرع فهناك أصل، وفرع وكلا وجزء في الدين، ولكل درجته، وأن يتفادى المسلمون حدوث الفرقة بينهم والتشتت بسبب القضايا الجزئية والفرعية، ولهذا نجد الغزالي في ميدان الدعوة مثلاً يطلب: "أن تعرض الحقائق المسلمة الثبوت وأن تطوى جانباً خلافات الفقهاء ووجهات النظر العائمة، وقبل ذلك كله أن تطرح المرويات الشاذة، والسخافات العلمية"⁽²⁾.

ثانياً: ينضم إلى ذلك كله درس مستمر لأحوال العالم من حولنا ومبلغ تأثيرنا به، وتأثيرنا فيه، فإننا لم نحتكر الحياة على ظهر هذا الكوكب، ويستحيل أن تؤدي رسالتنا فيه، ونحن جهال به⁽³⁾ والغزالي بهذا التوجيه يحث المسلمين على ضرورة الوعي بالأفق المحيطة بهم، وإدراكهم لحقيقة ما يجري فوق الأرض، وذلك يسهل لهم أداء رسالتهم العالمية، وهذه دعوى - كما سبق ذكره - إلى المسلمين بعد تفوقهم وانغلاقهم على ذاتهم بدعوى التدين الصحيح - وهو في الحقيقة تدين مغلوط لأنهم مكلفون بتبليغ رسالة عالمية، كما يشير الغزالي في هذا أن وزراً كبيراً من الثقافات المغشوشة التي أساءت إلى الإسلام يعود إلى دعاة أساءوا التعامل مع التراث الثقافي منهم كما يقول: "قرأوا كتباً ألفت في عهود الاضملال، أو حفظوا آراء قائلها قوم عديمو الفقه، وقد يتعصبون لأوضاع جرت على الإسلام البلاء، أو تمر بهم أحداث حافلة بالعبث فما يفيدون منها عبرة... أما علمهم بما جد في أرجاء العالم من أطوار وما يستتبعه من أفضية ذكية فصفر"⁽⁴⁾. وهذا ما دفع الغزالي إلى استشعار خطر هؤلاء على العقيدة الصحيحة، مبيناً "أن الأوان قد آن

(1)-محمد الغزالي: علل وأدوية، مصدر سابق، ص 173.

(2)-محمد الغزالي: علل وأدوية، مصدر سابق، ص 178.

(3)-المصدر نفسه ص 173.

(4)-المصدر نفسه ص 180.

لإقصاء الدعاة الذين لا فقه لهم أو الذين يريدون إلباس الإسلام عقالا بدويا، أو تقليده سيفاً تركيا، ثم يعرضونه في عواصم الغرب والشرق التي ازدحمت بأذكي المبادئ وأمكرها " " ¹ وإنما يدل هذا على إدراك الغزالي لخطورة هذا الصنف من الدعاة على مستقبل الإسلام داخل العالم الإسلامي وخارجه.

و إذ ينشد الغزالي هذه الثقافة السليمة والوعي الديني، في كل الاتجاهات، مدركا ضرورتها — فهو ينشد بذلك ثقافة الوحدة بين المسلمين بوحدة عقيدتهم، وينشد ثقافة التنشئة السليمة للعقل المسلم، والضمير المسلم، والسلوك السليم، كما أنه ينشد ثقافة السمو بشؤون الدنيا في ظل الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية التي تجعل عبادة الله في المسجد أو في المصنع أو في الحقل سواء ⁽²⁾.

و هو بذلك ينشد الثقافة الموروثة أو التقليدية كما يسميها أحيانا، والتي كانت تمثل عنصرا هاما بالنسبة للحضارة الإسلامية، فهي التي تصنع عقيدة الأمة و مزاجها، وشخصيتها ووجهتها ⁽³⁾، ولا يمتري فيها عاقل بأن هذه الثقافة لعبت دورا فعالا إبان الفترة الذهبية حين تمكنت من صنع عقول من الطراز العبقري ثم نجحت بمعية العلم الإسلامي، في مساندة الحضارة الإسلامية حتى بلغت شأنا عظيما، لكنها حين اختلطت بالخرافات والأوهام والبدع وتسربت إليها جهالات الدهماء، وأهواء الخاصة، هوت مكائنها وهوت معها الحضارة الإسلامية، ولهذا دعا الغزالي بإلحاح إلى ضرورة إعادة المسلمين لثقافتهم الإسلامية الأولى التي تتفق مع الكتاب والسنة إذ يقول: "إني أطلب من أمتنا الإسلامية أن تحاكم تقاليدها إلى الإسلام فما وافقه بقي، وما خالفه ترك" ⁽⁴⁾.

فمن أجل تصحيح التدين المغلوط، والوعي الديني وتقويم ثقافتهم العقدية لابد من غربلة

(1) -المصدر نفسه ص 179.

(2) -محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، مصدر سابق، ص 227.

(3) - محمد الغزالي: ركائز الإيمان، مصدر سابق، ص 149

(4) - محمد الغزالي: مستقبل الأمة خارج أرضه كيف نفكر فيه، مصدر سابق، ص 82.

التراث الثقافي الضخم الذي آل إليهم، بعد تراكمه طيلة قرون عديدة من الزمن،: هذا التراث الذي يحمل موروثات ثقافية مترادفة بين الصحة والخطأ، ويجمع بين الأفكار والتصورات القيمة، والبدع والخرافات الخطيرة، مما يستلزم على مسلمي القرون الأخيرة غربلته، وتنقيته من أجل الانتفاع من الموروثات النقية واستبعاد الموروثات المشوهة والخطئة، والتي تحمل وزرا كبيرا فيما لحق بالمسلمين من تخلف وانحطاط⁽¹⁾ والذي يشغل الغزالي أكثر، ويستغرب له هو أن تلقى هذه الموروثات رواجاً كبيراً بين المسلمين رغم بعدها عن الكتاب والسنة، ولا صلة لها بهما كما عبر عنها: " بعضها عادات لا عبادات، والبعض الآخر وجهات نظر فقهية غير ملزمة أو طبائع شعوب لا تعاليم دين، وقد تكون اعوجاجاً فكرياً أو أخلاقياً أطال عمره التهاون فتلقاه الرعاى بالقبول ونشأت عنه فوضى واسعة النطاق⁽²⁾ .

على أن هذه الموروثات الأسنة لم تقتصر على مجال معين، بل شملت العقيدة والسيره والتفسير والأخلاق والتربية والتشريع والتاريخ الإسلامي، فلم تقتصر على كتب التصوف فقط، وإن نالت هذه الكتب نصيباً جليلاً⁽³⁾ منها، من الخرافات وبدع في العقائد.

المطلب الثاني: البدع في العقائد:

معنى الابتداع: الابتداء في الدين نزعة تسيطر على نفر من المتدينين وتزين لهم أن يخترعوا من عند أنفسهم أفعالاً وأحوالاً، ثم يجعلونها ضميمه أو جزء من الدين الإلهي، ويطلبوا إلى الناس الأخذ بها كما يأخذون ما جاء ن عند الله سواء بسواء⁽⁴⁾.

وفي نظر الغزالي أن هذا الابتداع مرفوضاً رفضاً قاطعاً في الإسلام وذلك للأسباب التالية:

1. إذنا أقررنا هذه الضميمه الجديدة، ورأينا الدين الأصيل محتاجاً إليها حقاً، فمعنى ذلك أن

(1) - محمد الغزالي: ركائز الإيمان، المصدر السابق، ص 149.

(2) - محمد الغزالي: الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، مصدر سابق ص 115.

(3) - محمد الغزالي: الجانب العاطفي للإسلام، مصدر سابق، ص 5.

(4) - محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية مصدر سابق ص 143. وانظر: محمد الغزالي، تراثنا الفكري، مصدر سابق،

دين الله ناقص، وهذا باطل لقوله تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾⁽¹⁾ وقال النبي ﷺ: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»⁽²⁾.

2 بقرار هذه الإضافات (البدع) التي صنعها الناس يعني إعطاء حق التشريع في العقائد والعبادات وما إليها. وهذا باطل، فالله وحده انفراد بالتشريع وحده: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾⁽³⁾

3 لشغال العقل الديني بالتحوير في الدين أضر إضرارا بالغا بشؤون الدنيا، إذ أن المتدينين بدلوا طاقاتهم العقلية في اختراع ما لا قيمة له ولا خير فيه، رغم أن الأصل في شؤون الدين الإلتباع وفي شؤون الدنيا الابتداع⁽⁴⁾ كما قال الرسول ﷺ: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم»⁽⁵⁾ إلا أن بعض المسلمين عملوا على تطوير تعاليم الدين الثابتة، وجمدوا شؤون الدنيا، وهذا ما أدى إلى تخلف الأمة وضياعها.

4 - والبدع المحدثه غالبا ما تقوم على حساب السنن الأصلية نفسها.

5 - طبيعة الدين الإسلامي العموم والشمولية، فهو يصلح لكل البشر، فالأثر النفسي الخاص لعبادة ما لا يكون حجة لتعميمه على جميع الناس، ويؤكد الغزالي أن الابتداع مرفوضا جملة وتفصيلا حتى وإن كان متفاوت الخطر والضرر، فللصغائر منها حكمها كما للكبائر حكمها⁽⁶⁾.

(1) -سورة المائدة، الآية: 3.

(2) -أخرجه الترمذي في سننه، أبواب العلم، باب: الأخذ بالسنة واحتساب البدع، حديث 2676، ص 229، وقال حديث حسن صحيح.

(3) -سورة الشورى، آية 21.

(4) - محمد الغزالي: المصدر السابق ص 144.

(5) -أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب: وجوب امتثال ما قاله شرعا، دون ما ذكر ﷺ من مقاييس الدنيا على سبيل الرأي. ح 141، ص 607.

(6) -محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية المصدر السابق ص 146.

من أمثلة هذه البدع في العقائد:

يذكر الغزالي أن التوحيد جوهر الإسلام ومظهره، إلا أن المسلمين أصابه ما أصاب الأمم السابقة فظلموا رسالتهم الجليلة بما شابوا به عقيدة التوحيد⁽¹⁾ وبما أقحموه عليها من بدع وخرافات لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾⁽²⁾ والابتداع قد يأتي بالشيء وضده معا ليفسد العقيدة الوسط فتسوية المخلوق بالخالق شرك يفسد عقيدة لتوحيد، وكذلك إفناء الخلق في الخالق ضلال لا أصل له في الدين، وإن كان ظاهره أنه غلو في تقدير الله، وإغراق في مبدأ التوحيد⁽³⁾، ومن هذه الأمثلة نذكر:

بدعة الوسطاء: وقع بعض العوام في بدعة الوساطة، بأن يتجهوا إلى قبور الصالحين، وأضرحتهم طالبين منهم ما لا يطلب إلا من الله، وفي اعتقادهم أنهم تقربوا إلى الله بالتوسط بمؤلاء الصالحين فهم يلتجئون إلى من هم أركى حالا ليدفعوا عنهم ما لا يمكنهم رفعه بقلوبهم وألسنتهم، وهذا السبب في نظر الغزالي سر الانصراف عن الله الحق إلى عبيده الذين يسمعون، والذين لا يسمعون بل الذين يعقلون والذين لا يعقلون⁽⁴⁾ فكم من علة ظاهرها زيادة توقير الله، وهي تنتهك حرمت الله وفي هذا يذكر الغزالي: "ألا ترى أن المشركين كانوا يطوفون بالكعبة عرايا نساء ورجالا، محتجين بأنه لا ينبغي أن يطوفوا في ثياب عصوا الله فيها"⁽⁵⁾.

و عدم الاتصال بالله واللجوء إليه مباشرة، كان جريمة الوثنية القديمة لقوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾⁽⁶⁾، وهذا الاعتذار القديم - كما ذكر القرآن - هو نفسه ما

(1) - محمد الغزالي: ليس من الإسلام، دار الهناء للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، د ت، ص 140.

(2) - سورة البقرة، الآية: 118.

(3) - محمد الغزالي: ليس من الإسلام المصدر السابق ص 141.

(4) - محمد الغزالي: ليس من الإسلام، المصدر السابق، ص 143.

(5) - محمد الغزالي: المصدر نفسه ص 143. وانظر: محمد الغزالي: دستور الوحدة، مصدر سابق، ص 152-157.

(6) - سورة الزمر، الآية: 3.

يردده بعض الجهلة بالدين، في دفاعه عن من يقصدون القبور والأضرحة طلبا للشفاء والنجاح والعون.

كما يقر الغزالي أن لا مكان في الإسلام لوسطاء بين الله وخلقه، فالمسلم يقف بين يدي ربه ويدعوه مهما كانت حالته، متيقنا أن دعاءه لا يسمعه إلا الرحمن، ولعل الصلاة وهي العبادة الأولى خير دليل على هذا الاتصال المباشر مع الله دون وساطة بشرية أو مادية، ويعجب الغزالي لهؤلاء الذين يتخذون الأموات التي انقطعت صلاتهم بالدنيا ووسطاء الله، وهم لا يملكون لأنفسهم شيئا. إن هذا التفكير لا عقل فيه ولا إخلاص، كما يتصور الغزالي - بل هو أوهام تحاول تعكير التوحيد الخالص، وهو روح الإسلام، وما يأسف إليه أيضا اضطراب نظرة المسلمين إلى سنن الله الكونية بهذه الأوهام والبدع .

وهنا يلفت الغزالي نظر المسلمين، إلى أنه إذا كلفنا بزيارة القبور حتى ترق القلوب وندعو لمن سبقونا بالمغفرة والرحمة، فهذا ليس معناه أن زيارة القبور عبادة، وأن الذين تربطهم بمكان القبور بعض مشاعر الرجاء، فهذه مشاعر مرفوضة جملة وتفصيلا ما دامت توهن أمل الإنسان في الله، وتزده إلى غيره من الأموات أو الأحياء وفي هذا يقول الغزالي: " نحن نغار على عقيدة التوحيد، ولا نسيغ شركا ونقبل آخر، وكم يحزننا أن يكون قلب أمريء ما فارغا من الله مملوء بغيره ممن بقوا أو هلكوا"⁽¹⁾.

فلاستعانة على قضاء الحاجات او طلب العون أو الشفاء أو الفرح إلا من الله وبالله، ولا يجوز لمسلم أن يتجه إلى قبر طالبا العون من صاحبه، على أن الغزالي لا ينكر محبة الصالحين والثناء عليهم، بل نجده يؤكد على أن احترام العظماء واجب حيث يقول: "ولا أعني بالعظماء أصحاب الثروة ولا أصحاب السلطة، فهؤلاء فيهم من يوقر وفيهم من يحتقر، وإنما أعني بالعظماء أصحاب العلم الغزير، والشمائل السنية، واليقين الحي، والجهاد المخلص"⁽²⁾ ولعل دليلنا على ذلك هو ثناء

(1) - محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية، مصدر سابق، ص 155.

(2) - محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية، مصدر سابق، ص 149.

رب العالمين على الصالحين من خلقه، وتوبيهه تعالى بأخلاقهم لقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾⁽¹⁾ وقوله أيضا عن سيدنا نوح: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامًا عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾⁽²⁾.

فالثناء على الصالحين كما يرى الغزالي هو قانون مطرد تتوارثه الأجيال وتخلد به تقوى العابدين، وشجاعة الأبطال. وطلب الدعاء من الصالحين وهم أحياء، أو دعاء المؤمنين بعضهم

لبعض ثابت من عهد سيدنا نوح الذي قال لربه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا يُزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾⁽³⁾، إضافة إلى أن هذا الدعاء سواء كان عن حضور أو في الغيب، فهو ماثور مأجور لماله من دلالة حسنة وحسن الثواب، وحسن الظن بالله، حتى أن الملائكة حملة العرش تقول في ورد دائم⁽⁴⁾: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾⁽⁵⁾ ويرد الغزالي في كتابه قولاً لحسن البناء في هذه القضية موضحاً ذلك: محبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب عملهم قربة إلى الله تبارك وتعالى والأولياء هم المذكورون في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾⁽⁶⁾. والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية، مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا في حياتهم أو بعد مماتهم فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم⁽⁷⁾.

(1) -سورة مريم آية 41.

(2) - سورة الصافات، الآيات: 78-81.

(3) - سورة نوح، الآية: 28.

(4) -محمد الغزالي: دستور الوحدة، المصدر السابق، ص160.

(5) - سورة غافر، الآية: 7.

(6) -سورة يونس، الآية: 63.

(7) - محمد الغزالي: دستور الوحدة، مصدر سابق، ص160.

1 - الإيمان روح الحياة:

كما سبق ذكره في الفصل الماضي عن مدى أهمية الإيمان في حياة الإنسان، وأنه الحقيقة الكبرى فيها، فهو القوة الباعثة على العمل الصالح التي توجه الإنسان فيما يفعل وفيما يترك، وفراغ القلب من هذه العقيدة معناه سقوط الأعمال التي تصدر عن الإنسان ذل أن الإيمان الله شرط أساسي لصالح الكل⁽¹⁾ لقوله تعالى: ﴿يَقُومُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ۗ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾⁽²⁾.

إلا أن الغزالي قد لاحظ أن أعمال الناس لا تقوم على هذا الأساس، وهو الإيمان المجرد بل أكثر الأعمال يقوم بها أصحابها وهم ذاهلون عن ربهم ذاكرون لأنفسهم وأهوائهم⁽³⁾. ولذلك نجده يؤكد على أن للإسلام أحكاما حاسمة في تقدير الأعمال بحسب النيات، فيقبل منها ما كانت نيته لوجه الله، ويرفض منها ما كانت لغيره.

أما ما ابتدع الناس من مقاييس أخرى في الحكم على الخير والشر بذلك مما لم يتزل به الله من سلطان، فلا أساس لها ومثال ذلك ما يعجب إليه في الجهود المبذولة ولا زالت تبذل في جعل التزعة الوطنية تحل مكان العقيدة الدينية في شتى ميادين الحياة، بل وتزداد هذه الجهود قوة كلما كان القصد منها إقصاء الإسلام وعقائده عن مكانته في التوجيه والإرشاد، فإذا كان حب الوطن غريزة لا تنكر والدفاع عنه واجب، فلا يكون ذلك على حساب صلة المرء بدينه وإيمانه بربه. ويتساءل الغزالي " ولست أدري لماذا يصر البعض عن إفراغ الإيمان بالله من القلوب لتمتليء بشيء آخر بدلا عنه، هو الإيمان بقطعة ما من أرض الله التي نعيش فوقها"⁽⁴⁾.

(1) - محمد الغزالي: ليس من الإسلام، المصدر السابق، ص 155.

(2) - سورة غافر، الآيتان: 39-40.

(3) - محمد الغزالي: ليس من الإسلام، المصدر السابق، ص 156.

(4) - المصدر نفسه، ص 156.

2 ترك الأخذ بالأسباب:

من بدع العقائد التي تعتبر شركا بالله هو عدم الأخذ بالأسباب بل ونكران العلاقة الكائنة بين الأسباب والمسببات، والحقيقة كما ذكر الغزالي - أن الخلاف الذي أداره علماء الكلام الأقدمون في هذه المسألة قد نضح سما قاتلا على أفكار المسلمين ومشاعرهم⁽¹⁾ وهو ما يجب محاربه والذي يستغرب له الغزالي - هو أن المسلمين قد اشتغلوا ببعض السخافات والبدع حتى حولوا دينهم إلى طلاس يناط بها المستحيل في الوقت الذي غلبهم العجز عن فقه شؤون الدنيا وخصائص الأشياء.

كما أسلفنا الذكر فإن الغزالي يؤمن بما كشفتها العلوم الحديثة، من حقائق، وخواص ممكنة لكثير من الأشياء، وليس للمسلم أن ينقصها أو يزيد عليها باسم الإسلام، بل لا يقبل منه ديناً إذا تجاهلها باسم التوكل على الله، لأن التوكل لا يחדش قانون الأسباب والمسببات⁽²⁾، ولا يعطلها، بل ولا يمس القوى التي وهبها الله لمختلف العناصر في هذا الكون لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾⁽³⁾ بل ومقتضى الإيمان الاعتراف بما أودع الله من طبيعة في مواد الكون، ومثال ذلك: أنه من خواص النار أنها تحرق، وانكار ذلك لا يقول له به دين وجهها له، والإسلام بريء منه لأنه دين يصدق الحقائق ويؤكد كدها ويوضح هذا ابن تيمية قائلاً: " إن أهل الهدى والفلاح يثبتون علم الله وقدرته مشيئته ووجدانيته، وأنه خالق كل شيء وربهم ومليكه ومع هذا لا ينكرون ما خلقه من الأسباب التي خلق بها المسببات قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾⁽⁴⁾ وقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾⁽⁵⁾ فأخبر الله أنه يفعل ومن قال إنه يفعل ما يريد عند

(1)-محمد الغزالي: ليس من الإسلام، مصدر سابق، ص 151.

(2)-المصدر نفسه، ص 148.

(3)-سورة طه، الآية: 50.

(4)-سورة الأعراف، الآية: 57.

(5)-سورة المائدة، الآية: 16.

وجود هذه الأسباب لا بها، فقد خالف ما جاء به القرآن وأنكر ما أوجده الله من القوى والطبائع وتوضيحا لذلك يعرف الغزالي الأسباب على أنها أدوات ووسائل فطرية وطبيعية، وهي سنن الله في خلقه، ولذا فجحودها عبث، والتعويل عليها في بلوغ الغايات والعمل بها دين⁽¹⁾، لذا نجده يستنكر على الذي يعلق ودعة أو تميمة، وهو يعتقد النفع فيها قائلا: "فالذي يعلق ودعة أو يحتفظ بتميمة ظانا أن هذه المواد تنفع في دفع مرض أو جلب رزق أو إطالة أجل، إنما وثني يجاري بتفكيره العفن تفكير عبدة الأصنام والعجول"⁽²⁾ فالاستشفاء من الأمراض لها مواد أخرى حددتها علوم صحيحة، مبنية على الأخذ بالأسباب، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه دخل على امرأته وفي عنقها شيء معقود، فجدبه فقطعه ثم قال: لقد أصبح آل عبد الله أغنياء عن أن يشركوا بالله ما لم يتزل به سلطانا، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرقى والتمايم والتولة شرك» قالوا يا عبد الرحمان هذه الرقى والتمايم قد عرفناها . فما التولة قال: «شيء يصنعه النساء يتحبين إليه إلى أزواجهن»⁽³⁾ . وروي أحمد عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة من صفر فقال: «ويحك ... ما هذه؟ قال: من الواهنة قال: أما إنها لا تزيد إلا وهنا، انبذها عنها فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا»⁽⁴⁾.

كما انتقد الغزالي بعض الناس الذين يتخذون المصحف نفسه حجبا، معتقدين أنه يقيهم الإفلاس إن كان تاجرا مثلا، أو يرد عنه بطش الرؤساء إن كان موظفا: قائلا: "وهذا تخبط سقيم وإذا حسبه السذج إيمانا بالله إجلالا لكتابه " فهم واهمون، فصلة المسلم بالقرآن العظيم أن يتدبره ويعمل به"⁵ ويؤكد الغزالي هنا على أن النجاح في العمل وفي شتى الميادين إنما هو منوط بالعمل والأخذ بأسباب، فكل تفريط في العمل لا يعوضه تعليق مصحف ولم يرد هذا في ديننا وما أنزل

(1)-محمد الغالي، ليس من الإسلام، مصدر سابق، ص 152.

(2)-المصدر نفسه ص 148.

(3)-أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقى والتمايم، ذكر التغليظ على من قال بالرقى والتمايم، متكلا عليها، حديث

6090، ج 13، ص 456.

(4)-أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب: تعليق التمايم، حديث 3531، ص 804.

(5)-محمد الغزالي: ليس من الإسلام، مصدر سابق، ص 149.

الله به من سلطان.

وقد بين الغزالي طريقاً شرعياً يتوجه به المسلم إلى ربه إذا أحياه أمر أو نابه سوء، أو حلت به مصيبة أو مرض - وهو الدعاء بدلاً من تعليق الصحف فهناك أدعية في القرآن والسنة يستعين بها المسلم يرددها راجياً من الله أن يكشف عنه ما نزل به، ويسوق إليه رحمته: "وهذه هي الرقى التي نعترف بها لأن الشارع هو الذي علمنا إياها، وهي من أسباب الكون المعتادة فإن العاجز إذا طلب من القادر شيئاً ينتظم مع الحكمة العامة لم تكن إجابته إليه شذوذاً ولا فوضى بل كانت عوناً يذكر ويشكر"⁽¹⁾.

كما يحذر الغزالي من الاعتقاد أن الدعاء يخترق سنن الله الكونية، أو يهدم قوانين الأسباب والمسببات، بقدر ما هو توفيق للإنسان من الله، للأخذ بالأسباب الصحيحة، ومنع العوائق التي تعترضها. والإيمان بهذا النوع من الدعاء هو لون من الرقى لاشيء فيه بل هو إيمان محض⁽²⁾ وليس من قبيل الشرك الذي حذر منه ابن مسعود كما سبق ذكره في حديثه .

ويخلص الغزالي بالقول: وهو يحذر من بدع العقائد وغيرها داعياً إلى علاج الانحراف ببصيرة وأناة وبالعودة إلى كتاب الله وسنة نبيه مؤكداً على أن البدع صغرها وكبرها لا يمكن إقرارها لقول الرسول ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد عليه»⁽³⁾.

والحقيقة أن سر هذه المحدثات في العقائد خاصة بعيدة المدى في المجتمع الإسلامي من ناحية السلوك أو العمل لذا يجب محاربتها بالحكمة وذلك بالالتزام بما صح من تعاليم الإسلام عقيدة وشريعة، فهذه خرافات وبدع أزرت بجوهر الإسلام وعرقلت مسيرته الحضارية المنشودة، فلن يصلح للمسلمين دين ولن تصح لهم عقيدة إذا تناولوا أمورهم بطريقة لا يقرها وحي من كتاب وسنة ولا يؤكدها فكر سليم.

(1) - محمد الغزالي: ليس من الإسلام، مصدر سابق، ص 149.

(2) - المصدر نفسه، ص 150

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب: إذا أصلحوا على صلح جور، فالصلح مردود، ح 2697،

المطلب الثالث: تصحيح الفهم المغلوط للعلاقة بين الدين والدنيا

إذا كان العلاج الذي قدمه الغزالي في الجبهة الأولى يستهدف إلى تصحيح الفهم العقائدي والوعمي الديني من أجل إعادة صلتهم الحقيقية، بالإسلام مثلما كان على عهد رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم، فإن هذا العلاج قد ركز في جبهته الثانية على تصحيح وعي المسلمين للدنيا وفقههم للكون، من خلال إعادة علاقتهم بها بعد وهن في أوصالها أحيانا وقطع في أحيان أخرى. وقد تبين الغزالي كيف حدثت القطيعة بين المسلمين والدنيا، لأسباب كثيرة أهمها فهمهم الخاطئ للإسلام، وعدم إدراكهم أن الإسلام هو الدين الذي يحث على العمل للدنيا والآخرة، ويربط العمل في الدنيا بالإيمان ويجعل تأمل الإنسان في الكون وسيره لأغواره وإحاطته بأسراره، عبادة خالصة لله ترقى بها عقيدة الإنسان، ومفتاحا لنيل خير الدنيا والآخرة، ولهذا كان من أشد ما سيتغرب له اعتقاد بعض المسلمين، أن الإيمان محصور في أداء مختلف العبادات والشعائر رافضا هذا الاعتقاد وفي هذا الصدد يقول الغزالي: "وإني لأستغرب أحوال الناس ينتسبون إلى الإسلام ويديرون ظهرهم للكون، فلا يدرسون له قانونا ولا يكشفون له سرا، أي إيمان هذا؟ وأي جهل بقصة الحياة ووظيفة آدم وبنيه في ربوعها"⁽¹⁾.

و الغزالي هنا يذهب إلى الجزم بأن العالم الإسلامي لن يحقق أية نهضة حضارية ما دامت هذه الأفكار منتشرة بين أبنائه، وعليه أن يحاربها وأن يستبدلها بإقناعهم، كما قال: "أن كل علم يطوي مسافة هذا التخلف هو من أركان الدين وفرائض العبادات العينية، والكفائية، وهو أولى من نوافل العبادات ومسائل الخلاف التي يدع فيها الفارغون وانشغل بها المنتطعون"⁽²⁾.

ويأسف الغزالي للأمراض والعلل التي ألحقت أضرارا فادحة، وقفت عائقا في طريق أداء رسالة العمل والاعمار ومقصد الاستحلاف عن الله، وهو توحيد الله والتي كانت من بينها المفهوم الخاطئ للعلاقة بين الدين والدنيا، رغم أن الإسلام قد جعل الأرض والإصلاح فيها مطية للفوز بالآخرة، إلا أن الكثير من المسلمين قديما وإلى يومنا هذا جانفوا التصور الإسلامي

(1) - محمد الغزالي: علل وأدوية، مصدر سابق، ص 09.

(2) - المصدر نفسه، ص 115.

الصحيح، وفهموا أن الدين عدوا للعالم وأن المسلم لا يبلغ درجة التقوى إلا إذا عاش وهو يعاني الفقر وكآبة المنظر، في الأهل والمال، وعاش جاهلا لسنن الله في خلقه، في الكون والكائنات، فهذا الفهم السيئ قد أنشأ أجيالا من المسلمين - دون شعور - تعيش حالة التطفل على غيرها، والاستقالة العقلية التي لا تملك دنيا ولا تفقه دينها.

و لخطر هذا المفهوم على انحطاط الأمة الإسلامية فكرا وسلوكا، فإن الغزالي سارع إلى تصويبه، كما يبيح هنا أن إسهاب النصوص الإسلامية من الكتاب والسنة - في الحديث عن الآخرة وهو أحد أصول الإيمان الست (إيمان باليوم الآخر) إنما المقصود منه هو تهذيب الغرائز، وتربية الضمائر، ونشيدان الخير والصلاح في الأرض وإعمارها.

و من جهة أخرى فإن القرآن يحث على تأمل الكون وتدبره، ويدعو إلى إمعان النظر فيه، حتى يدرك من وراءه عظمة الله، وقدرته تعالى وثمة زيادة الإيمان وتثبيتا للعقيدة الصحيحة يقول

الله : ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

وَأَخْلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾⁽¹⁾ فيكون التأمل في الكون مفتاحا لإدراك عظمته وبالتالي مفتاحا لإدراك عظمة الباري الذي أبدعه⁽²⁾ ويقرن القرآن دعوته لإدراك عظمة الخالق بدعوته البشر إلى استغلال الكون والانتفاع بما أودعه الله تعالى فيه، فإن الهيمنة على قوانين الكون تنفع الإنسان في الدنيا والآخرة وتمنحه قدرة على إعزاز عقائده والدفاع عنها³. فتستقر بذلك عقيدة التوحيد في نفسه.

و يرى الغزالي أنه إذا كان الغرب قد غزوا الفضاء بعدما سيطروا على زمام الحضارة في العالم، فإن المسلمين ما زالوا متمسكين بممارسات وتصرفات واعتقادات، لو أنشغل أسلافنا بما لما تمكنوا من نشر الإسلام، ولا استطاعوا إنشاء الحضارة التي نعمت البشرية بظلالها قرون من

(1) - سورة الجاثية، الآيات: 3-5.

(2) - محمد الغزالي: الجانب العاطفي، دار الشهاب، باتنة د.ط.د.ت، ص 43.

(3) - محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، مصدر سابق، ص 387.

الزمن وفي هذا يقول الغزالي: "إنه أمر مثير للعجب أن يعيش جمهور المسلمين من بضعة قرون لا يعرفون عن الكون شيئاً يذكر، وأن تكون علومه ثانوية في ثقافتهم الخاصة أو العامة، وأن يكون التعرف على أسراره وقواه شيئاً كمالياً خفيف الوزن عند البعض، وضرباً من اللغو والعبث عند البعض الآخر⁽¹⁾."

لذا قاوم الغزالي بعض الأصناف من العابدين الذين يعتقدون أن الانغماس في العبادات هو سبيل لنيل رضوان الله والفوز بالآخرة، حتى أصبح كما يقول: "أغلب العابدين يرجحون نافلة في مجال العبادات المحضة على درس علمي، أو ابتكار صناعي، وربما ظن تلاوة ورد أرضى الله من اختراع آلة، أو صون جهاز، أو إحكام إدارة أو تدبير سياسة"⁽²⁾، ولكن في الحقيقة هم يظلمون الإسلام باسم الإسلام وهم يجهلون، حقيقة الأمور، وحقيقة العبادات في الإسلام، فلا يدركون بفهمهم القاصر "أن عبادة الله في الحفل كعبادته في المحراب، وعبادته في المصنع كعبادته بالسعي والطواف"⁽³⁾... وأما كما تكون مناجاة الله في صلاة خاشعة تكون مدارس لعلمه الجليل في كونه الكبير⁽⁴⁾.

وعن فلسفة الإسلام في الحياة يقول الغزالي: "إن الذين لا يذكر الموت ليعطل الحياة، وإنما ليكفف من غلوائها ويمنع الافتتان بها والعزف في حماها⁵، وهو بهذا القول يحاول إبراز فقه الحياة الإنسانية وتوسطها بين الدنيا والآخرة كقولهم: «عش لآخرتك كأنك تموت غدا وعش لدنياك كأنك تعيش أبداً»⁽⁶⁾ وأمة الإسلام وسطاً، لا تأخذ الدنيا وتغوص فيها فتنسى الآخرة، ولا تعمل للآخرة فتنسى الدنيا، وخاصة الوسطية لهذه الأمة، هي في حد ذاتها فكرة الاعتدال بين الدنيا

(1) -محمد الغزالي: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، مصدر سابق، ص 20.

(2) -محمد الغزالي: الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، مصدر سابق ص 60.

(3) -محمد الغزالي: الجانب العاطفي للإسلام، مصدر سابق ص 79.

(4) -محمد الغزالي: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية مصدر سابق ص 24.

(5) -محمد علاء وحيد: محمد الغزالي وتحطيم القيود، مرجع سابق، ص 130.

(6) -أخرجه التقي الهندي، كثر المال كتاب الحضارة من قسم الأفعال 581/5 رقم: 14034 وقال الألباني: لا أصل له موضوعاً: وأنه اشتهر على الألسنة في الأزمنة.

والآخرة ذلك كما قال الشاعر:

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت يبنها⁽¹⁾

وحتى أن صور الثواب والعقاب كلها سبقت للترغيب والترهيب، ودعم تربية سليمة، يسعد بها المسلم في الدنيا ويفوز بها في الآخرة، ولعل أن الترغيب والترهيب هو في حد ذاته نمجا سليما يعبر عن وسطية الإسلام يقوم به سلوك الإنسان ويدرك به فقه الدنيا والآخرة.

فذكر الموت كما يرى الغزالي - يضع حدودا حاسمة لشئ أهوال الحمق والغرور والاستطالة التي تطيش بالألباب كما ذكر الموت ليس لإفساد الحياة وإساءة العمل فيها، بل للتخفيف من غلوائها وكفكفة الاغترار بها، فإذا اعتدل التفكير فلن تتحول السعة إلى فوضى، ولن يتحول الضيق إلى محن⁽²⁾، بل تنشأ عقيدة سليمة في نفس المؤمن، تكون له العين الذي يبصر بها والعقل الذي يدرك به عمه هذا الخالق، فيفقه بذلك غاية وجوده.

المطلب الرابع: موقف الغزالي من السلف والسلفية:

كتب الغزالي في الكثير من كتاباته ومقالاته، وصرح في العديد من حواراته وخطبه أنه سلفي العقيدة، فما المقصود من أنه سلفي؟ وما هي السلفية التي يؤمن بها؟ وما وقفه من سلفية عصره؟.

المنهج السلفي في العقيدة: تناولنا في الفصل السابق مفهوم الإيمان (العقيدة) عند الغزالي، فهو ليس حقائق مجردة نظرية يقتنع بها العقل فقط، بل هو أيضا عاطفة محبة الله ورسوله، وسلوك متأثر بتلك الحقائق، وأمانة يجب على المؤمن صياغتها في كل شيء في دينه ودنياه، في مواقفه، في عمله مع أهله ومجتمعه⁽³⁾.

ففي آيات الصفات وأحاديثها، رجح الغزالي مذهب السلف وعذر الخلف ودوافعهم

(1)-ينظر: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1409هـ-1988م، ص210.

(2)-محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية، مصدر سابق، ص142.

(3)-لعرابة نصر الدين، الشيخ محمد الغزالي حياته آثار شهادات ومواقف، مرجع سابق، ص 11

للتأويل، وكان كثيرا ما يردد: "دعني أعلن للناس أنني سلفي أصيل، بل قد أكون درويشا في محبة الصحابة والتابعين. فالغزالي يؤمن بالسلفية التي كان عليها الصحابة والتابعون فهما وإيمانا والزاما، وقد أعلن أنه على دربهم ومنهجهم يجبهم⁽¹⁾ مؤمنا يقول النبي ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم»⁽²⁾. ففي نظره أن السلف الأول هم أصدق الناس فطرة وأقومهم ديناً وأرشدهم عقلا وفكرة، ولا يتصور أن هناك فجوة نفسية أو فكرية بينه وبين سلفنا الأول، لذلك كان يدعو إلى الاقتداء بتلك النماذج إذا أردنا العودة إلى ساحة الفعل الحضاري، فكان يهيب بالمسلمين أن يعودوا إلى كتاب الله وسنة رسوله وألا يسمحوا للمعزفين والطامعين أن يستغلوا تفاوت الأنظار في أمور يسيرة ليقطعوا ما أمر الله به أن يوصل⁽³⁾ وإذا تساءلنا عن الشيء الذي ميز هذه النماذج، نجد الجواب عند الغزالي في قوله: "إن علماءنا الأوائل كانوا يجمعون بين سعة العلم، وصدق الصلة بالله، والأجيال التي استمعت إليهم تفيد منهم الأمرين معا: نضارة القلب المتجهة إلى الله وإشراق الفقه الذي سيضيء الطريق إليه، فهم علماء ومربون في وقت واحد"⁽⁴⁾.

فالسلفية عند الغزالي لا تعني مذهبية، ولا حركة إصلاحية خاصة- مع تقديره لكل حركات الإصلاح القائمة على الكتاب والسنة - بل تعني السير على هدى الصحابة والتابعين في العقيدة والسلوك وبناء الإنسان وبناء الحضارة والعودة إلى الإسلام ظاهرا وباطنا وترسم خط السلف الأوائل في صدق الإيمان وحسن العمل⁽⁵⁾.

و بناء على ما سلف ذكره، وعلى العكس ما يروج لدى الكثير عن وجود فجوة بين

(1) - انظر: محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 149. وانظر: دستور الوحدة، مصدر سابق، ص 115.

(2) - متفق عليه: البخاري، كتاب الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إلا إذا أشهد، 938/2، رقم: 2509.

مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1962/4، رقم: 2533.

(3) - محمد الغزالي: حصاد الغرور، طبعة دار القلم، دمشق، 1998 ص 274. وانظر: محمد الغزالي: عقيدة المسلم، مصدر سابق، ص 213.

(4) - محمد الغزالي: ركائز الإيمان، مصدر سابق، ص 108.

(5) - عبد الحليم عويس: الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه مرجع سابق ص 21.

السلفية والعقلانية نجد الغزالي يرى بأن السلفية: "نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون، وتعمق ولاعها لكتاب الله وسنة رسوله، وتحشد جهود المسلمين المادية والأدبية لإعلاء كلمة الله، دون النظر إلى عرق أو لون، وفهمها للإسلام وعلمها به يرتفع إلى مستوى عمومته وخلوده، وتجاربه مع الفطرة، وقيامه على العقل"⁽¹⁾ وهذا المفهوم أطلق عليه الغزالي بالسلفية "الواعية".

و قد علق محفوظ عزام في كتابه على هذا الفقه الرفيع العقلاني للسلفية قائلا: "هذا هو الفهم الواعي للشيخ عن السلفية ومن ثم فإن أي اتجاه يهتم ببعض الأمور الجانبية فحسب، يعد خارجا عن السلفية، ولا يمثلها التمثيل الصحيح"⁽²⁾.

والسلفية أيضا ليست فرقة من الناس تسكن بقاعا من جزيرة العرب تحيا على نحو معين بل هي عنوان كبير لحقيقة كبيرة أساسها العقل المكتشف الدؤوب⁽³⁾ الذي احترم نفسه عندما توقف عن البحث في الذات العليا، وحقيقة كيفية الصفات .

فانتساب الغزالي للسلف أو إلى "السلفية الواعية" كما قال، ومع حبه له، لا يمنعه من أن يمد طرفه إلى الحاضر، فيعيشه ويعالجه وإلى المستقبل يتطلع إليه ويبيّن لأجله، وفي هذا يقول الغزالي: "إن الأمة التي لا تاريخ لها ليس لها حاضر ولا مستقبل ولذلك فأنا مع حي العميق للسلف - أحتفي بسائر العباقر من أئمة الفقه والأدب والعقيدة وسائر فنون المعرفة الذين ظهوروا في تاريخنا... ولماذا تقوم من جيلنا بينهم خصومة وهم جميعا يقومون على الكتاب والسنة، ويرفعون راية التوحيد، ويجندون مواهبهم لخدمة الإسلام وقيمه وأتمته؟ يجب أن نلتمس الخير في آرائهم ولا نتربص بهم"⁽⁴⁾.

و في إحدى إجاباته الساخرة الواعية عندما سأله أحد الناس: أتتبع رسول الله أم تتبع أبا

(1)-محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين مصدر سابق ص 114.

(2)-حفوظ عزام: الشيخ محمد الغزالي صور من حياة مجاهد عظيم، دراسة حول العقيدة الإسلامية في فقه الشيخ الغزالي، دار الصحوة، القاهرة، 1413، ص 87.

(3)-محمد الغزالي: ركائز الإيمان، المصدر السابق، ص 116.

(4)-محمد الغزالي دستور الوحدة، مصدر سابق، ص 114.

حنيفة؟ قال: أتبع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فسره لي أبو حنيفة رحمه الله، فقيمة أبي حنيفة ليست مستمدة من ذاته بل هي من العلم الديني الذي تصدى له، وللاتساق إلى المنهج النبوي الذي شرف به، وكذلك سائر أئمتنا إلى يومنا.

موقف الغزالي من سلفية عصره:

ذكر يوسف القرضاوي في كتابه أن الغزالي قد اشتبك مع غلاة السلفية في كثير مما كتبه في السنين الأخيرة، ولقد انتقد الغزالي المفاهيم المختلفة للسلفية إذ أنه خلص بعد تأمله لها أن هناك من يرى أن السلفية هي فقه أحمد بن حنبل، وهذا خطأ - في نظره - لأن فقه أحمد أحد الحظوظ الفكرية في الثقافة الإسلامية والتي تسع أئمة الأمصار وغيرهم⁽¹⁾.

كما أن هناك من يفهم السلفية على أنها مدرسة النص، وهذا خطأ أيضاً، فإن مدرسة الرأي كمدرسة الأثر في أخذها من الإسلام، ومرجعيتها القرآن والسنة معا.

كما رأى الغزالي أناسا يفهمون السلفية على أنها ضد المكتشفات العلمية، والعلم الحديث حيث يرفضون الانتفاع بها في دعم الرسالة الإسلامية، فيرفضون مثلاً التلفزيون على أن الشاشة حرام، وهؤلاء وفي نظره لا سلف ولا خلف بل تحتاج أدمغته إلى تجديد⁽²⁾.

كما رأى أناس يتبعون الأعنت والأغلظ من كل رأي، فما يفتون الناس إلا بما بشق عليهم وينفخ حياته، ويؤخر مسيرة المؤمنين في الدنيا عن الركب الحضاري.

كما استنكر عن الدين يرون أن الآية ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾⁽³⁾ إنما مرحلية، ولو أمكن لهم لقتلوا كل كافر على وجه الأرض.

(1)-المصدر نفسه، ص 114-115.

(2)-المصدر نفسه، ص 115-116.

(3)-سورة البقرة، الآية: 190

و هذه الأنواع من السلفية - في نظر الغزالي - كلها بلاء، ومنهم من لهم فكر قطاع الطرق⁽¹⁾، بل السلفية في تصوره هي تخلق في الفكر والفهم، ورسالة الإسلام لا يؤمن عليها في أيدي هؤلاء .

فالعالم الإسلامي الآن متخلف حضارياً، ومضطرب أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً، وحتى تنهض به، وتنجح في ذلك لابد أن نقتفي آثار سلفنا وندرك " أننا محتاجون إلى فقهاء يستطيعون النظر في سياسة المال والحكم، ويرفضون أن يسبقهم الإلحاد إلى اجتداب الشعوب الفقيرة في هذه الميادين الخطيرة، ومحتاجون إلى فقهاء يهيمنون على شؤون التربية والإعلام برحابة الإسلام، ببساطة لا بالترمت والتكلف"⁽²⁾.

و قوله هذا تأكيد على أن الإسلام دين مبني على عقيدة صحيحة سليمة، يفهمه نير القلب، والعقل معاً، ويكون بذلك المسلم حاد البصر والبصيرة معا تتعانق فكرته وعاطفته في معاملته لله، ومعاملته للناس بحسن الأدب والسلوك.

(1)-محمد الغزالي: دستور الوحدة، مصدر سابق، ص 116.

(2)- المصدر نفسه، ص 117.

المبحث الثالث: مواجهة التحديات الخارجية

إن مصارعة القوى المعادية للإسلام ومواجهتها، والتصدي لها ولتياراتها، والعمل على كشف عملائها، وهدم أوكارها كان جانباً أساسياً في فكر الغزالي، فقد وقف في وجه الاستعمار وفي وجه الصهيونية، وفي وجه الشيوعية، وفي وجه الحضارة المادية وفي وجه التنصير والعلمانية، فالغزالي - كما سبق ذكره - في منهجه واقعي الفكر والمنهج، لذا فلم يكن بمغزل عما يحدث في عصره بل تفاعل معه، وتصدى لما يجب أن يتصدى له.

كما كان للغزالي موقف عظيم حيال العقائد المنحرفة التي تمثل تحديات قديمة وحديثة للمسلمين كاليهودية والنصرانية والاستشراق والفلسفات، ورأى أن على المسلمين أن يكون لهم أقدام راسخة في كل مجالات المعرفة وأن تكون إحاطتهم بالمذاهب الجائرة أكثر من إحاطة أهلها بها، وقد كان منهجه في عرض العقيدة الإسلامية ومواجهة التحديات، فما موقف الغزالي من هذه التحديات؟ هذا ما نحاول الإجابة عليه في هذا المبحث.

الغزالي والحضارة العربية

دعا الغزالي دعوة ملحة إلى ضرورة دراسة الحضارة الغربية والانتفاع منها، ولكن هذا الإلحاح كان مقيداً بشروط وضوابط تسمح بالاستفادة أو الاستيعاب حسب مقتضيات الحال، والملاحظ على فكر الغزالي حيال الحضارة الغربية أنه ينظر إليها: كما ينظر إلى كل القضايا من منطلق قرآني مضبوط، فيرى أن الجانب الإنساني والأخلاقي من الغرب هو المرفوض، ذلك أنه يستغل قوته المادية والعلمية في نشر الأباطيل حول الإسلام⁽¹⁾، فالغرب كما يصفه الغزالي هو "المسلح من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، الغرب الذي يجر وراءه ألوفا من الأمم المأسورة والدول المقهورة بعدما كسر شوكتها بقوته الباطشة، الغرب الذي رسم الصليبان رمز التضحية على رايات تضلل جيوشاً انشغلت بالسلب والنهب، وانطلقت في مشارق الأرض ومغاربها، تثير الرعب والفرع، هذا الغرب العنيد الذي يسير بحوثاً علمية نزيهة لإثبات أن الإسلام قام على

(1) - رمضان خميس الغريب: محاور المشروع الفكري للشيخ الغزالي، مرجع سابق، ص 233.

السيف"⁽¹⁾.

و الغزالي إنما يلفت انتباه المسلمين إلى حقيقة النوايا التي تحرك الغرب، ويحدد موقفهم من المسلمين، بناء على حقدهم الذي لم يتوقف أبداً، ولم يتوان عن تحديد أساليبه واتخاذها سلاحاً له ودعمها لمهاجمة العالم الإسلامي. وبذلك كشف الغزالي خطورة هذه الحضارة في حرصها على صرف الناس جميعاً عن الله وعن التفكير فيه أو لقائه فهي كما عبر عنها: "تعرف الخلق ولا تعرف الخالق، تعرف اليوم ولا تعرف الغد، وقد شبهها بأبي الهول التمثال القابع عند الأهرام في مصر له وجه إنسان وجسم حيوان . كذلك هذه الحضارة لها عقل إنسان وغرائز حيوان"⁽²⁾. وهكذا اتخذت الحضارة الحديثة دينها في الحياة بإيثار العمل للدنيا، وإهمال الآخرة، ورغم أنها نجحت كثيراً في بلوغ درجات رفيعة من التقدم العلمي والتطور المادي، إلا أنها فشلت فشلاً دريباً عندما حولت البشر إلى عبيد للتراب، وجعلت جماهير غفيرة تحيا ليومها، وتذهل عن آخرتها، وتكدهح لمآربها القريبة، ولا تفكر تفكيراً جاداً في مرضاة الله والعمل له، بل قد طوعت التقدم العلمي لخدمة أخس الغرائز، وهيأت العالم لحروب لاحقة⁽³⁾.

و من هنا بالذات تبرز حقيقة التحديات التي تخلفها هذه الحضارة أمام العالم الإسلامي، فهي التي تحارب الدين الذي ما قام إلا على أساس التوحيد، وما حرص إلا على توثيق الصلات بين الله عز وجل وبين عباده، وربط العمل في الدنيا بالعمل للآخرة، ثم قرنه جميعاً بمرضاته - جلا وعلا -.

و ما تجدر إليه الإشادة أن الغزالي لم يرفض الحضارة الغربية في جانبها الإنساني والأخلاقي، إلا عندما وقف على واقعها اليومي، ومختلف الملابس التي تكتنف الحياة في ظلها، وبذلك فإنه من حملة السلبيات التي يجب على المسلمين أن يجذروا منها هي ابتعاد هذه الحضارة عن الله، وإعلانها المعصية له وفي هذا يقول "تجاهل الناس رسالتهم ونسوا ربهم وشرعوا لأنفسهم، فماذا

(1) - محمد الغزالي: ظلام من الغرب، مصدر سابق، ص 106.

(2) - محمد الغزالي: كنوز من السنة، مصدر سابق، ص 9.

(3) - محمد الغزالي: مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف نفكر فيه؟ مصدر سابق، ص 5.

كسبوا؟ كسبوا أزمات الجوع والخوف، إن الساسة أجهدوا ذكاهم في الشرق والغرب حتى درت الأرض السمن والعسل، ثم حمدوا ذلك الخير كله في أسلمة الدمار الشامل، وبقيت الأمم تلهث وراء الضرورات المضيئة ألا ما أسأم العصيان وأقل جدواه، مهما كان لصاحبه من ذكاء وحضارة إن نصف الجهد في تحصيل الأقوات لو بدل في الأدب مع الله وابتغاء مرضاه لكسب الناس الدنيا والآخرة معا⁽¹⁾.

فالحضارة الغربية قضت على الكثير من المبادئ الإنسانية، الرفيعة والأخلاق الكريمة وفتحت أبوابا لانتشار المذائل وشيوع المباديل، أما استحضار رقابة الله وخشيته، فأمر مستبعد، بل إنه رجعي، ودلالة على التخلف والانحطاط.

و إلى جانب هذا، فإن الحضارة التي يرفضها الغزالي ويحذر منها كافة المسلمين من الإفتتان بها، هي التي ساندت الغزو العسكري والثقافي وتمده بأحدث الوسائل وتدعمه بأرقى الطرق لاستبعاد العالم الإسلامي أو القضاء عليه. و مقابل هذا الموقف من الحضارة الحديثة، فإن الجانب الذي يرى ضرورة الاستفادة منه واجبا هو الجانب المعرفي العالمي . كما سبق ذكره - إذ يقول: " إما صلتنا بالدنيا فيجب أن تتسع دائرتها إلى أبعد الحدود، وأن نهجر أخطاؤنا إلى صواب غيرنا وألا تستحي من التعلم والاقْتباس وأن نُحِث الخَطِيء إلى الأحسن حيث كان في شرق أو غرب"⁽²⁾.

ففي نظر الغزالي، أنه على المسلمين في سبيل إعلاء كلمة الله وتحقيق النهضة الإسلامية أن ينتفعوا بكل التجارب الإنسانية النافعة دون أن يهتموا بمصدرها أو موطنها، وهو بذلك يتفق مع شكيب أرسلان الذي سبقه بالقول: " إن الذين يفهمون الإسلام حق الفهم يوصون بكل جديد لا يعارض العقيدة ولا نخشى منه مفسدة، ولا أظن شيئا يفيد المجتمع الإسلامي يكون مخالفا للذين المبني على إسعاد العباد"⁽³⁾.

و إن كان الغزالي معجبا بما حققته الحضارة الحديثة من تقدم وازدهار، فإن تعجبه أكثر في

(1)-محمد الغزالي: فن الذكر والدعاء عند خلتهم الأنبياء، مصدر سابق، ص 6.

(2)- محمد الغزالي: الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، مصدر سابق، ص 156.

(3)-شكيب أرسلان: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم موقع للنشر الجزائر، د ط، 1990، ص 112.

قرب هذه الحضارة إلى فطرة الله في هذا الجانب ، وفي الوقت الذي ابتعد المسلمون عنها حين انكمش الدين في نفوسهم، وضعفت العقيدة في قلوبهم، واختل معناه في سلوكهم، لذا دعا الغزالي كافة المسلمين إلى ضرورة العمل والاكتشاف، لتحقيق المعنى الأصيل للدين مؤكداً بأن: "دراسة العلوم الحديثة واجب إسلامي أول وأن أي عقل نضيف يدرك أن هذه الدراسة امتداد محتوم لحديث القرآن الكريم عن الكون، وأن نتائج الجهود العقلية الذكية دعم للإيمان الصحيح ودمغ للإلحاد"⁽¹⁾ والغزالي بذلك ماض إلى تصحيح الفهم الخاطئ للمسلمين، والذي يرى أن العمل يجب أن يكرس لآخرة، أما الدنيا فلا فائدة منها أو الذي يرى العلم والكشوف معادية للدين مبينا لهم أن الحقيقة على خلاف ذلك وأن القصور في فهم الدنيا والغربة فيها والعجز على امتلاك زمام الحياة، فهذا كله لا يدل على تقوى، بل يدل على طفولة فكرية يضار بها الدين، وتنكس بها أولويته وتتقهقر بها تعاليمه⁽²⁾.

وفي الوقت نفسه فإن الغزالي قد أوجز شروط الاقتباس من الحضارة الغربية حتى لا تضار عقيدة ولا تمس شريعة في قوله " الاقتباس من الغرب لا يقبل بناتا إذا خالف نصابه في كتابه أو سنة"⁽³⁾.

ومن هنا نخلص إلى أن الغزالي وهو ينتقد الجذور العقيدية والفكرية والأساليب اللا أخلاقية للحضارة الحديثة ومنها التنصير، إلا أنه لم يغمط لها حقها، بل دعى إلى حسن الانتفاع منها.

المطلب الثاني: موقفه من التنصير

إن التنصير أو التبشير هو حركة صليبية تسعى إلى نشر المسيحية بين مختلف شعوب العالم سيما المسلمين منه، ولم تكن هذه الحركة وليدة القرن العشرين للميلاد، بل تمتد إلى القرن التاسع عشر للميلاد، لتقترب بالهجمة الاستعمارية، التي اجتاحت على إثرها القوات الأوروبية أغلب البلدان الإسلامية، وقد كان التبشير يمشي في ركاب الاستعمار المكتسح، يريد أن يضرب

(1)-محمد الغزالي: علل وأدوية، مصدر سابق، ص 84.

(2)-المصدر نفسه ص 1.96.

(3)-محمد الغزالي: الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، مصدر سابق ص 64.

الإسلام الضربة المميتة⁽¹⁾، إلا أنه في البداية لم يكن قوى الحركة ولا شديد التأثير، والتغلغل بين المسلمين لأن وسائله كانت محدودة، ومخططاته كانت في أطوارها التمهيدية، ولكن عندما بدأت الإمبراطورية العثمانية تضعف مع الأيام ازدادت حركة التبشير في الدول الإسلامية عن طرق المستشفى والمدرسة والملجأ، وأساليب النشر المختلفة⁽²⁾ وهو ما ساعد على تكثيف الحملة التنصيرية، ومزاحمة أفكارها وآرائها لمختلف المجتمعات الإسلامية ثم جاء الصليبيون في أزياء جديدة ساترين مخالبه بقفاضات من حرير⁽³⁾ موقنين أن طريق الفكر والثقافة قد يحقق لهم ضعف ما حققته الجيوش والأسلحة فيما مضى.

و قد تنبه الغزالي إلى الوسائل التي اعتمد عليها التنصير لبلوغ أهدافه التي تتميز بالكثرة والتنوع والتجدد المستمر وأورد منها ما يأتي:

1 إن استغلال الأوضاع الاقتصادية المضطربة في العالم الإسلامي كانت وسيلة ناجحة اعتمدها التنصير في إنقاذ مخططاته، حيث شهدت مجتمعاته طبقية واضحة تقاسمت أطرافها فئة الفقراء المعدمين البائسين، وفئة الأغنياء المترفين المستعدين، كان في أنظار القوي الصليبية فرصة ذهبية، تقدم على إثرها التنصير فاستغل هذا التفاوت لمصلحته لاسيما بعد تلقي تعليمات مشددة أن يتعد عن الجدل، الديني وأن يكتفي مثلاً بتقديم العون الصحي والاجتماعي للمحتاجين... كما أن عدداً من أبناء المترفين في الداخل والخارج عاش للعربدة والتسول الجنسي، وكان ظهيرا ضد بلاده ودينه للعداة الماكرين⁽⁴⁾.

و بهذه السياسة المدروسة بدقة كان التنصير يستخدم هذه الطبقية كوسيلة فعالة مزدوجة التأثير، فأما الفقراء فإن مساعدتهم بالغذاء والعلاج والمأوى كفيلة بالتأثير على عقائدهم لأن

(1) محمد الغزالي: الطريق من هنا، مصدر سابق، ص 10.

(2) محمد الغزالي: معركة المصحف في العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 36.

(3) محمد الغزالي: معركة المصحف في العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 151.

(4) محمد الغزالي: صيحة تحذير من دعاة التنصير، نخبة مصر، القاهرة د ط 2002 ص: 99.

معاناتهم تدفعهم إلى قبول العون حتى وهو مقترن بالكفر والفسوق⁽¹⁾ وفي تصوير ذلك يقول الغزالي: " ترى الواحد منهم يقبع تحت سرير مريض ليقول له: هذه القارورة تقدمها لك العذراء، وهذا الرغيف يهديه إليك المسيح، وربما فتح مدرسته ظاهرها الثقافة المجددة، أو ملجأ ظاهره البر الخالص ثم لوى زمام الناشئة من حيث لا يدرون ومال بهم حيث يريد"⁽²⁾.

و أما الأغنياء المترفون، فإن إغراقهم في شتى أنواع الرذائل وآفات التلذذ كفيل بإراقة أموالهم في مجالس الخمر والبغاء، وبالتالي حرمان أمهم وأبناء جلدتهم وعقيدتهم من الانتفاع بها، أو إنعاش الاجتهاد الإسلامي الذي طال تخلفه، وهكذا نجح التنصير في استغلال الفتنة معاً لنيل أهدافه.

2- كما استخدم التنصير الوسائل العلمية والتي سعت حركته إلى تقديمها لشعوب العالم الإسلامي، وحرصت على تدعيمها بالتشييد المكثف للمدارس والمعاهد ودور الحضانة والأيتام والكنائس، إضافة إلى النشر الواسع للصحف والكتب والمنشورات، دون إغفالها لمختلف وسائل الإعلام، وقد استعان بالتنصير - كما يذكر الغزالي - بصنفين من الكتاب لتشوه بأقلامها معالم الشخصية الإسلامية وهما:

1 كتاب كاثوليك يربطهم بالإسلام عداء قديم، وحقد دكين، ومنهم المستشرقين.

2 وكتاب يحملون أسماء مسلمة لكنهم في أصل تفكيرهم ينهلون من منابع الأوروبية الخالصة، وفي مسالكهم ومداركهم يتنكرون للأديان جملة⁽³⁾ وهؤلاء هم من المستغربين الذين أكد الغزالي مدى خطورتهم بقوله: " إن هذا نفر من جملة الأقلام الملوثة أخطر على مستقبلنا من الأعداء السافرين، فإن النفاق الذي برعوا فيه يخدع الأغرار بالأخذ عنهم، وقد يقولون كلمات من الحق تمهيدا لألف كلمة من الباطل تجيء عقبها"⁽⁴⁾ والذي حدث هو أن كلا الصنفين قد

(1)-قد سبق الحديث عن مدى تأثير الأوضاع الاقتصادية على غرس العقائد.

(2)-محمد الغزالي: فقه السيرة، مصدر سابق، ص 113.

(3)-أنظر محمد الغزالي: التعصب والتسامح في المسيحية والإسلام، نخبة مصر، القاهرة دط، 1997، ص 23، 24.

(4)-محمد الغزالي: ظلام من الغرب، مصدر سابق، ص 40.

تعاوننا على أن تقوم كتاباتهم ومنشوراتهم على أسس حددها الغزالي فيما يأتي:

- 1 - إشاعة الشك في الإلوهية وتوحيد الله بدعوى الحرية العلمية.
- 2 - التهوين من العبادات الإسلامية، والزعم بأن الأخلاق وحدها تكفي .
- 3 - بتر الدين من التوجيه وإبعاده عن برامج التعليم.
- 4 - فضل العروبة ولغتها عن الإسلام وتجهيل المسلمين في قضايا أمتهم.
- 5 - تحقير علماء الإسلام وترويج الشبهات عنهم.
- 6 - محاربة عقيدة الإسلام بفصل الدولة عن الدين ثم إلى فصل المجتمع عن الدين ثم فصل الاقتصاد عن الدين ثم إلى فصل الأخلاق عن الدين⁽¹⁾.

و الأساس الأخير هو وسيلة العلمانية التي انطلقت من هذه الجهود بهدف الفصل التام بين الدين والدولة بمختلف ميادينها وقطاعاتها وهو إقصاء الإسلام جهرا.

و بناء على ما سلف ذكره، فإن الغزالي كان يقظا في مواجهة التنصير الخفي والظاهر، والمباشر وغير المباشر وقد كان كتابه: "التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام" ردا يحض فيه وفي الكثير من الافتراءات التي روج لها عملاء التنصير المدعمون من مجلس الكنائس العالمي والمرتبطة بالمخابرات الأمريكية ضد الإسلام كما كان هذا الكتاب بيان لتاريخ التسامح الإسلامي المنبثق من عقائده وقيمه، وكان أيضا فضحا لتاريخ الكنيسة الأسود الملطخ بالدماء، ليس ضد المسلمين وحدهم، بل كل الطوائف المخالفة للكنيسة⁽²⁾.

كما كشف الغزالي مدى ارتباط تاريخ الكنيسة بالإقطاعيين والرجعيين ومحاكم التفتيش، وملوك التعذيب طيلة عشرة قرون، حتى قامت حركات الإصلاح والنهضة، والتنوير ضد الكنيسة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين متأثرة بالروح، والقيم الإسلامية كما فضح الغزالي دور الكنيسة في الحروب الصليبية الهمجية التي أسالت دماء المسلمين أنهارا في شوارع

(1)-محمد الغزالي: معركة المصحف في العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 156-157.

(2)-أنظر محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، مصدر سابق، ص 25.

الرها وأنطاكية وطرابلس، وبيت المقدس، وفي قرى ومدن كثيرة في الشام ومصر⁽¹⁾.

أما كتابه " صيحة تحذير من دعاة التنصير " فقد كان ردا فكريا على العقائد النصرانية الأساسية التي صنعها شاءول (بولس)⁽²⁾ والتي حجبت حقيقة نصرانية المسيح الإلهية عن البشرية إلى الأبد .

و يؤكد الغزالي على أنه لا فرق بيننا وبين النصارى في كون مريم عليها السلام هي صديقة، وبأنها بشر عذراء ظاهرة صالحة، تعهدنا الله برعاية خاصة، وفضلها على نساء العالمين : إلا أن الفرق بيننا وبين رجال الكنيسة يتمثل في شخص المسيح عليه السلام فنحن نؤمن بأنه: ﴿رَسُولٌ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾⁽³⁾ فليس بالإله ولا ابن إله، ونؤمن أن النصرانية الصحيحة التي نزلت على عيسى عليه السلام، تنزلت بما نؤمن به، وأن فرقا نصرانية كثيرة كانت على رأينا لكنها أبيدت، ويؤمن أيضا الغزالي بأن الدراسة العلمية الموضوعية تنتهي إلى ما نؤمن به، بل النتيجة التي خلص إليها كثير من المؤرخين النصارى المنصفين فالواحد واحد، والثلاثة ثلاثة، ولا يمكن أن يكون الثلاثة واحدا، إلا إذا كانوا أجزاء في واحد، وسيكون في كل جزء نقص يمنعه من أن يكون وحده واحد، وأي جدل حول هذه المسلمة القديمة هو نوع من السفسطة التربوية التي لا تفرع⁽⁴⁾ إلا بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ ۗ وَمَنْ إِلَهٌ إِلَّا

(1)-المصدر نفسه، ص27.

(2)- بولس : هو شاول بولس اليهودي، من مواليد مدينة طرطوس أحد أعمدة الإمبراطورية الرومانية، والده فريسياس تربي على التوراة، ونشأ متعصبا لليهوديته، كان متشعبا بالفلسفة الرواقية، درس أصول العقيدة اليهودية وما يتعلق بها من تفاسير الناموس، عرف بعدائه الشديد للمسيح عليه السلام وأتباعه، كان رائدا للاضطهاد الذي منيت به المسيحية في بدايتها، وهو ما جاء على لسانه في رسالته "غلاطية"، «كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط»، يعتبر واضع المسيحية الجديدة، أتى بعقائد جديدة أدخلها عليها، كانت سببا في فقدان مسيحية المسيح قداستها (عقيدة البنوة، الصلب، التثليث، القيامة). انظر: محمد علي، برو العاملي ومجموعة من المؤلفين، الكتاب المقدس في الميزان، الدار الإسلامية، بيروت، 1993، ص288.

(3)-سورة المائدة، الآية: 76.

(4)-محمد الغزالي: صيحة تحذير من دعاة التنصير، مصدر سابق، ص100.

إِلَهُ وَجِدَّ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾⁽¹⁾

و في هذا يقول الغزالي: "إن قضية الثالث والقداء لا تعرفها أديان السماء، وما سمع بها عيسى عليه السلام، والنصارى الأولون كانوا على عقيدة التوحيد، وظاهر أن نفرا من شياطين الجن والإنس حاولوا البعد عن هذا المعتقد الصالح، وأرادوا أن يخلطوا بين الوحي النازل على عيسى، وبين تعاليم أديان أرضية قديمة، عرفت في وثنيات الهنود والمصريين وغيرهم حيث نشب عراك شديد بين المحافظين والمحرفين ظل قرابة أربعة قرون انتصرت فيه للأسف العقائد المغشوشة والمبادئ المعلولة واستخفي من قلوب الناس التوحيد الخالص وقد أعان السلطان الروماني على بلوغ هذه النتيجة الرديئة، فإذا الواحد ثلاثة وإذا المعابد مذابح وقرابين، وإذا برجال الدين وسطاء يغفرون الذنوب، وإذا المسؤولية الشخصية تبعد، وإذا بأحكام إلهية كثيرة تتوارى، وإذا تحريف واسع النطاق يدخل في تراث عيسى عليه السلام"⁽²⁾.

و لعل ما يقول الغزالي يلتقي مع ما يقرره العالم المسيحي المتخصص شارل جنيز في كتبه ومحاضراته وبحوثه حيث يقول: "والنتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين هي: أن عيسى لم يدع قط أنه هو المسيح المنتظر ولم يقل عن نفسه إنه (ابن الله)، وذلك تعبير لم يكن في الواقع ليمثل بالنسبة إلى اليهود سوى خطأ لغوي فاحش، وضرب من ضروب السفه في الدين، كذلك لا يسمح لنا أن نص من نصوص الأناجيل بإطلاق تعبير (ابن الله) على عيسى، فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية، إنها اللغة التي استخدمها القديس (بولس) كما استخدمها مؤلف الإنجيل الرابع، وقد وجد فيها معاني عميقة، وعلى قدر كاف من الوضوح بالنسبة إليها، ولو أراد - أي عيسى عليه السلام - أن يتخذ لقباً لا يتخذ لقب (ابن داوود) المعروف بين نبي إسرائيل والذي كانوا يعتبرونه لقب المنقذ المنتظر ولكنه لم يفعل"⁽³⁾.

(1) -سورة المائدة، الآية: 73.

(2) -محمد الغزالي: صبيحة تحذير من دعاة التنصير، المصدر السابق، ص 101.

(3) - شارل جنيز: المسيحية ونشأتها وتطورها، نشر وترجمة: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دت، ص 39.

و إذا تساءلنا عن سبب هذا الانحراف العقائدي الكبير، نجد أن "بولس"⁽¹⁾ هو منشئ هذا الدين وهو الذي يتحمل وزرها التاريخي والديني، فهو الذي يقف وراء الأناجيل، وحيث يقول موريس بوكاي حول مؤلف انجيل يوحنا: " كل شيء يدفع إلى الاعتقاد بأن النص المنشور حالياً ينتمي إلى أكثر من كاتب واحد... وبولس يقف ورائهم جميعاً".

و لقد كان بولس غلما بالفلسفة الإفريقية ونجح في وضع البذور التي نقل بها المسيحية من الوحداية إلى التثليث"⁽²⁾، وهنا تنبه الغزالي إلى خطورة هذا الانحراف لذا يرى أن المشكلة مع النصرانية الكنيسة صعبة ومعقدة وذلك لأمرين:

الأول : أن (بولس) هو رجل في غاية الدهاء والمكر، قد نجح في القضاء على نصرانية المسيح الطيبة القائمة على الفطرة والأخلاق الكريمة، وأنشأ لدينه الجديد مؤسسة تعتبر من أقوى المؤسسات الفكرية والعقائدية في التاريخ البشري، إذ عملت الكنيسة على حماية آراء (بولس) وأفكاره المثبوتة في رسائله وفي إنجيل يوحنا خاصة، أما الأمر الثاني وهو الأخطر، والمتمثل في الرفض العقلي والحضاري الأوروبي لكنيسة (بولس) اللامعقولة... لكن هذا الرفض لم يتجه لنقد (المرحلة البولسية) بل اتجه إلى رفض الدين كله. دين عيسى - عليه السلام - الذي شرعه بولس، بل وكل الأديان السابقة، حتى الإسلام الذي جاء مصححاً فقد تم رفضه ذلك لأن الكنيسة كانت على وعي من خطورته عليها، فلم تسمح بوضوله صحيحاً إلى العقل الأوروبي، واختارت له الاتجاه نحو المادية والإلحاد والطمأنينة التي تضيق على الدين - إن وجد - داخل الكنيسة اللاهوتية بعيداً عن جوانب الحياة المعاشة الخلفية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية⁽³⁾.

و الأمر الغريب في ذلك أن الكنيسة قد رضيت بهذا الوضع (الرفض) وفضلت أن تتعاون مع قيادات الحياة الجديدة فأصبحت في طليعة الاستعمار والشريك المتضامن مع العلمانيين وحكام الفساد والانحلال ولا يهتم هؤلاء من الدين إلا أن يساعدهم على تحقيق أهدافهم اللإنسانية،

(1) - محمد السعدي: حول موثوقية الأناجيل، منشورات رسالة الجهاد طرابلس، ليبيا، 1985، ص 21/11 .

(2) - أحمد شليبي: المسيحية، نشر مكتبة النهضة المصرية، دط، دت، ص 40.

(3) - محمد الغزالي: صيحة التحذير من دعاة التنصير، مصدر سابق، ص 112.

والالأخلاقية ضد الشعوب المستضعفة، وضد المسلمين خاصة.

و في هذا يقول الغزالي أسفا عن هذا الانحراف التاريخي والعقدي ومن الجهود التنصيرية الموجهة ضد المسلمين: "بين يدي كتاب⁽¹⁾ من 900 صفحة مطبوع بحروف صغيرة، فلو أن الكتاب طبع بالحروف المعتادة لبلغ ثلاثة مجلدات كبيرة، إنه سجل للدراسات والمحاورات والمقترحات والآراء والنتائج التي انتهى إليها آخر المؤتمرات التبشيرية في (كولورادو) في الولايات المتحدة، وقد تخصص هذا المؤتمر في بحث قضية واحدة، هي أمثل الطرق لتنصير المسلمين، والقضاء على دينهم، ولقد جمع لهذه الغاية ألف مليون دولارا لعلها الخطوة الأولى لمشوار طويل"⁽²⁾ ولقد شعر الغزالي بعد قراءة هذا الكتاب بالكآبة والأسف ثم تساءل: ماذا يطلب هؤلاء الكهنة المجتمعون على أحسن عرض؟ ويضيف قائلا: ورجعت إلى صفحات الكتاب الحافل بالمكر والإفك، إنه يعرف عقائدنا معرفة حسنة، وهو يريد أن نضم إلى عبادة الله، عبادة إلهين آخرين، هما الابن والروح القدس، ويصفنا بأننا أعداء المسيح ابن مريم⁽³⁾ كيف تكون أعداء عيسى عليه السلام، ونحن نوقره ونكرمه ونؤمن به، وبرأنا أمه وفضلناها كما فضلها الله على نساء العالمين؟

وفي نظر الغزالي أن الذي صنع الحضارة الحديثة ليسوا رجال الكنائس المؤتمرون في الولايات المتحدة، على أن يدبجوا العلماء، ويقيدوا المدينة، ويرفضوا الفكر والحرية والحقيقة أن أوروبا لم تستطع وقف زحف شرورهم إلا بعد إقصائهم عن الدولة ومجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والعلم، لذلك يعجب الغزالي من تناقض رجال الكنيسة والذين يدعون بالزهد والأخلاق يتركون مجتمعاتهم الأوروبية في أحوالها ويتربصون بالإسلام ويكرسون أوقاتهم لحرب محمد ﷺ، وأمته، وحرب التوحيد الخالص، ونصرة عقيدة التثليث، حيث يقول: إن أوروبا وأمريكا مع تقدمهما العلمي ما أحسنتا الصلة بالله، ولا اكرثتا باليوم الآخر، ولا احترمنا جنة

(1) - نشر هذا الكتاب المعهد العالمي للفكر الإسلامي كما ذكر الغزالي (الناشر) في كتابه صيحة التحذير من دعاة التنصير، مصدر سابق.

(2) - محمد الغزالي: صيحة تحذير من دعاة التنصير، مصدر سابق، ص114.

(3) - المصدر نفسه، ص114.

ولا نارا إنهم عباد (فانون) في متاع الدنيا وحدها، فهلا التفت الكهنة المؤتمرون إلى ما يسود مجتمعهم من مادية طاغية فقاوموها. هلا أصلحوا أنفسهم قبل أن يتجهوا إلينا بالإصلاح... أعني الإفساد"⁽¹⁾.

و بهذا الموقف الصامد، فضح الغزالي دعاة التنصير، وكشف موقف الكنيسة اللاأخلاقي، فلو كان هؤلاء من أنصار المسيح حقا، لتعاونوا مع المسلمين ضد اليهود الذين يقولون في المسيح وأمه قولاً فاحشاً، وضد العلمانيين والماديين الذين يرفضون وجود الدين في الحياة العملية ويضيفون عليه في المعابد، كما أنهم أعداء ضد الأديان التي لا تؤمن بالله.

المطلب الثالث: المدرسة العلمانية التغريبية

تعود جذور التيار التغريبي إلى حملة بونابرت " على مصر سنة 1798م حيث استحال هذا الأخير بعض الطوائف النصرانية لإخضاع مصر لحضاراته الأوروبية وتغيير هويتها، ومن ثم بدأ الحديث عن الحداثة الغربية كحلولة بديلة لحلول إسلامية في التغيير، وهي حداثة تقيم قطيعة معرفية مع التاريخ والتراث الإسلامي، ثم الخضوع للنفوذ الغربي والأخذ بحلولة في التقدم والتحديث"⁽²⁾.

ثم جاء محمد علي حيث حكم مصر بعد الحملة الفرنسية والذي لجأ إلى الاقتباس من الغرب قصد بناء دولة حديثة وقوية، فأقام بذلك المدارس على الأساس الغربي، وأرسل البعثات إلى أوروبا دون أي تحصين لأصحابها من السموم الثقافية الغربية، كما قام بالاستعانة بخبراء غربيين في مصر وكان أغلبهم من أتباع فكر الفيلسوف الفرنسي ورائد المذهب الوضعي في أوروبا " سان سميون " (1675-1755)، فقادوا العديد من إنجازات التحديث على النمط الغربي وعملوا على ترويج فلسفته الوضعية المعادية للمرجعية الدينية خصوصا بعدما وجدوا الساحة فارغة، فالدولة قل اهتمامها بالأزهر راعي الثقافة الإسلامية، إضافة إلى رفض بعض

(1)-محمد الغزالي: صيحة تحذير من دعاة التنصير ، مصدر سابق، ص115.

(2)-محمد عمارة: هل الإسلام هو الحل لماذا؟ وكيف؟ ، مرجع سابق، ص 16-17.

رجاله كل ما هو وافد غربي: " وظاهر أن الفرنسيين استغلوا حاجة " محمد علي " إليهم على نطاق واسع، إنه دفع ثمن الخبراء والموظفين الذين دعموا حكمه من ح كم البلاد بالإسلام وتمسكها بتعاليمه، والفرنسيون الذين أسر ملكهم في مصر إبان الحروب الصليبية الأولى، ظلوا حتى أيام " نابليون بونابرت " طامعين في إعادة الكرة على الشرق، فإذا فشلوا حربيا في هزيمة الإسلام، فيجب أن لا يفشلوا سياسيا وثقافيا وذاك ما أعزاهم بمساعدة " محمد علي " وتمهيد طريق الاتحاد أمامه، ولم يكن الرجل على نصيب من التقوى يعصمه من هذه الشراك فما لبث أن انزلق " (1).

و لقد زاد تمكن الاتجاه العلماني، بعد اعتماد الدولة على خريجي المدارس الأمريكية الحديثة وطلاب البعثات في الإدارة والتوجيه، وبعد الاحتلال البريطاني (سنة 1812)، أمد التيار العلماني بالعون المادي والمعنوي، فازدهرت مدارس التبشير التي تصوغ العمالة الحضارية الصوفية وبدأت الدعوة إلى التبعية الفكرية للغرب في النظم والتشريع فأخذ منحني خطيرا صارخا على يد سلامة موسى " وطه حسين وغيره " (2).

و يشير الغزالي أن المستعمرين يخرجون بأشخاصهم، ويتركون خلفهم أولئك المهجناء المماثلين إليهم والمعجبين بأبدانهم ولذلك حق على الأحرار أن يغسلوا الوطن من أدرانهم وأن يطاردوهم حيث كانوا، انهم أمساخ صنعهم الغرب ثم سيبهم هنا وهناك ليشفي غليله على الإسلام ويهدم به معقل المقاومة الحقيقية ضده " (3).

والواضح من خلال كتب الغزالي أنه لم ينخدع بمقولات العلمانيين كما وقع للبعض من زملائه أمثال " بجيت (4) وعلي عبد الرزاق " ثم من بعدهم خالد، بل إنه عمل على فضح نواياهم

(1)-محمد الغزالي: ظلام من الغرب، مصدر سابق، ص 169.

(2)-محمد عمارة: هل الإسلام هو الحل. مرجع سابق، ص 23.

(3)-محمد الغزالي: ظلام من الغرب، مصدر سابق، ص 149.

(4)-ظن بجيت أن الالتحاق بركب العلمانية يمنحه المجد والخلود فأفتى بإباحة الفطر في رمضان مختلفا تأويلات محرفة، أنظر محمد

الغزالي ظلام من الغرب، مصدر سابق ص 195-196.

وكشف ألعيبهم والرد على الشبه التي يثيرونها..

كما حاولت النخبة العلمانية بعد الاستقلال فرض مشروعها التحديثي الذي دعا إليه "طه حسين" تطبيقاً صارماً، وإقحام الثقافة، وأساليب الحياة الغربية في الممارسات المحلية باستخدام الإرغام والقوة بيد أن النتيجة التي جنتها المجتمعات المسلمة لم يكن تطوراً وتقدماً حضارياً حقيقياً، بل تكريساً لأشياء الحضارة الغربية"⁽¹⁾ دون بذل الجهد لتصنيعها محلياً، لقد تبين العام والخاص إخفاق مشروع التنمية العلماني في تحقيق أهدافه، لأنه أهمل الجوانب النفسية والثقافية للمجتمع"⁽²⁾.

و كثيراً ما كان الغزالي يحذر من هذا الصنف فيقول: "احذروا هذا الصنف الذي يكره دينه، لأن الاستعمار أبغضه إليه ويجهل تعاليمه بصرفه عنها. ويثرثر بكلمات في الإصلاح، وفي القضايا العامة لا وزن لها ولا قيمة، لأنه ببغاء يحسن التردد ولا يعقل شيئاً، إنه عبد في صورة حر، وذنوب في سمة سيد، وجاهل في إهاب متعاقل، احذروا هذا الصنف، وإنكم لواجدوه وفي كل مكان في المهندسين والمحامين والأطباء والمدرسين وفي الصحفيين، والموجهين والمذيعين بل كذلك في نفر من علماء الدين"⁽³⁾.

مفهوم العلمانية:

إن مفهوم العلمانية المتداول في الأوساط الإسلامية يتمحور في معظمه حول " فصل الدين عن الدولة"، والحقيقة أن هذا التعبير لا يعطي مدلولاً كاملاً للعلمانية إلا فيما يتعلق بالناحية السياسية وفي هذا يقول سفر الحوالي: " ولو قيل أنها (فصل الدين عن الحياة) لكان أصوب ولذلك فإن المدلول الصحيح هو إقامة الحياة على غير التدين في جميع مجالاتها سواء بالنسبة للأفراد

(1)-مالك بن نبي: شروط النهضة ترجمة عمر كامل مسقادي عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق ط4، 1987-1407 ص44.

(2)-لؤي صافي: حركة التجديد الحضاري بين الاتجاهين الإسلامي والعلماني، مراجعة نقدية منير الحوار، س 9، ع 34 ص 103.

(3)-محمد الغزالي: كفاح دين مصدر سابق، ص 340.

أو للفرد، وتختلف الدول في موقفها من الدين. بمفهومها الضيق المحدود: فبعضها تسمح به كالمجتمعات الديمقراطية الليبرالية وتسمى منهما العلمانية المعتدلة non religions أي أنما مجتمعات لا دينية ولكنها غير معادية للدين وذلك مقابل ما يسمى (العلمانية المتطرفة antireligieux أي المضادة للدين ويعنون بها المجتمعات الشيوعية وما شاكلها⁽¹⁾).

ويذكر محمد عمارة في كتابه أن العلمانية هي التي شاعت لكلمة Sécularisme في البلاد العربية وهي بمعنى: الدنيوي والعالمي، والواقعي من الدنيا والعالم والواقع المقابل للمقدس " أي الديني الكهنوتي النائب عن السماء، والمحتكر لسلطتها والمالك لمفاتيحها والخارق للطبيعة وسننها، والذي قدس الدنيا قداسة الدين، وثبت متغيراتها العلمية والقانونية والاجتماعية ثبات الدين"⁽²⁾.

في تصور عبد الوهاب المسيري⁽³⁾ للعلمانية يقول: "يوجد في تصورنا علمانيتان لا علمانية واحدة، الأولى جزئية ونعني بها العلمانية باعتبارها فصل الدين عن الدولة والثانية شاملة، ولا تعني فصل الدين عن الدولة، وحسب وإنما فصل كل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية لا عن الدولة وحسب... وعن حياة الإنسان في جانبيها العام والخاص"⁽⁴⁾.

رد الغزالي على العلمانية

ولعل أبرز المعارك التي خاضها الغزالي وأقوى المواجهات التي واجهها، هي معركته مع

(1) -سفر الحوالي: العلمانية نشأتها وتطورها وأثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، الدار السلفية للنشر والتوزيع، بيروت، دط، 1987، ص 21.

(2) - محمد عمارة: الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2003، ص 17.

(3) - عبد الوهاب المسيري (1938-2008م): ماجستير في الأدب الإنجليزي بجامعة كولومبيا بالولايات المتحدة، دكتوراه بجامعة رنجرز، عاد إلى مصر سنة 1969، حيث درس بجامعة القاهرة (1971-1975)، عين خبيراً بالشؤون الصهيونية بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ثم عمل مستشاراً ثقافياً بنيويورك 1975، ترأس حركة التنصير المصرية 2007 إلى أن توفي، من آثاره: العلمانية الجزئية، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دفاعاً عن الإنسان. انظر: موقع الدكتور عبد الوهاب المسيري، الجزيرة. نت عبد الوهاب المسيري تاريخ الوصول 2007/7/3.

(4) - عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2002، ص 15.

العلمانية اللادينية التي تعارض حاكمية الله لخلقها وسيادة الشريعة على الناس، وتعزل الدين عن الحياة والمجتمع وتحارب من يدعو إلى الإسلام وتعتبرهم دعاة الرجعية وأعداء التطور وهي العلمانية الشاملة كما عبر عنها عبد الوهاب المسيري.

فقد وقف الغزالي في وجه العلمانيين الأصلاء الذين يبغضون علانية شريعة الإسلام، ويدعون إلى تغريب المجتمعات الإسلامية، كما أدرك الغزالي خطورة هذه العلمانية عندما فصلت العلمانية بين الناحية العقديّة والتشريعية في الإسلام، وأعلنت الحرب على قوانين الشريعة لأنها ربانية، وهي الخاصة التي جعلت لها الهيمنة على قوانين الأرض وضمنت لها الاستمرارية والثبات، فالسعي إلى تعطيلها هو ضرب للإسلام. كما يقول القرضاوي: إن الشريعة هي العدو الأول للعلمانيين في البلاد الإسلامية، لأنها هي التي تنقل بالإسلام من عالم النظريات والمثاليات إلى دنيا الواقع والتنفيذ، وهي تهيئ المجتمع سنداً من القوانين من عدوان العادين وهي تردع نوازع الإيمان وأشد ما تكون عداوة العلمانيين للشريعة فيما كان مضاداً لاتجاه الحضارة الغربية وفلسفتها في التشريع والنظر إلى الفرد والمجتمع⁽¹⁾ فالعلمانية إذا قضت على الأخلاق وعطلت حدود الله، وزرعت في أوساط المسلمين الحرام لم يجن منها المسلمون إلا مظاهر الاضطراب، والانحراف وعدم الاستقرار في الشخصية، ولعل خطر هذا الفكر العلماني على بلاد المسلمين أشد سوء من خطر الفكر الإرجائي، لأنه طعن في أصول الدين.

ولقد اتسمت مواجهات الغزالي ببعض الشدة والحدة بقدر نفور هؤلاء من الإسلام وتنفيرهم منه⁽²⁾ ومعاداتهم للدعاة إليه ومن أمثال هؤلاء نصر أبو زيد، فرح خودة، محمد سعيد العشماوي.

حيث يقول الغزالي عن هؤلاء العلمانيين وغيرهم، لماذا لا نسمي هؤلاء بأسمائهم الحقيقية؟ والاسم الحقيقي لهم: المرتدون، فهؤلاء قد مرقوا من الدين مروق السهم من الرمية، ولم يعد في

(1) - يوسف القرضاوي: العلمانية في مواجهة الإسلام، مرجع سابق، ص 29-30.

(2) - يوسف القرضاوي: الشيخ القرضاوي كما عرفته، مرجع سابق، ص 80.

قلوبهم توقير لله تعالى، ولا تعظيم لكتابه ولا احترام لرسوله ولا انقياد لشريعته⁽¹⁾ كما يعجب الغزالي لهؤلاء المرتدين لحرصهم على الاحتفاظ باسم الإسلام، وأن يظلوا محسوبين عليه، والإسلام منهم بريء وهؤلاء ينطبق عليهم قول المثقب العبدى:

فإما أن تكون أخي بصدق فأعرف منك غتي من سميبي
و إلا فاطرحني واتخذني عـدوا أتقيـك وتتقـيني⁽²⁾

و لعل ما كان يغيظ الغزالي أكثر من هؤلاء هو كذبهم على الله عز وجل أن أقحموا أنفسهم على دين الله فهم الذين يعتبرهم الغزالي نباتات سامة في حقول الإصلاح⁽³⁾.

و يردُّ الغزالي سبب دخول العلمانية في الأوساط الإسلامية إلى الاستعمار العسكري والثقافي وإلى البعثات العلمية، وأيضا إلى الأقليات المسيحية . حيث كان الغزالي متفطنا لذلك، وأخذ على نفسه أن يفضح عملاء الغرب في ديار المسلمين، ويهتك أستارهم التي يتخفون وراءها ويتخذون لها عناوين شتى من الحرية والتقدمية والتطور والتحرر والتنوير وغيرها⁽⁴⁾ من أجل ذلك هاجم سلامة موسى، لويس عوض مشيل غفلق وغيرهم من النصارى، كما هاجم طه حسين نزار قباني، عبد الرحمان الشرفاوي وغيرهم من المسلمين، ومن أمثلة ما كتب طه حسين يقول:

" إن الدين الإسلامي يجب أن يعلم فقط كجزء من التاريخ القومي لا كدين إلهي نزل بين الشرائع للبشر، فالقوانين الدينية لم تعد تصلح في الحضارة الحديثة كأساس للأخلاق والأحكام ولذلك لا يجوز أن يبقى الإسلام في قيم الحياة السياسية، أو يتخذ كمطلق لتجديد الأمة، فالأمة

(1) -محمد الغزالي ظلام من الغرب، مصدر سابق، ص132.

(2) - ديوان المثقب العبدى، ترجمة: حسن كامل الصرفي، معهد الخطوط العربية، جامعة الدول العربية، دط، (1391هـ -

1971م)، ص211-212.

(3) -يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته، مرجع سابق، ص 80.

(4) - يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته، مرجع سابق، ص 82.

تتجدد بمعزل عن الدين"⁽¹⁾ هنا قرر طه حسين أن يتم إبعاد الإسلام عن الحياة العامة، أما قائل ذلك كما يقول الغزالي هو عميد الأدب العربي الذي كان هدفه من أدبه ضرب الإسلام وإطفاء جذوته وقتل لصحته⁽²⁾.

ولقد ركز الغزالي في الدفاع عن الإسلام ضد الأطروحات العلمانية في كتبه، وخطبه ومحاضراته وهو يعرض الإسلام - على إبراز خصائص التشريع الإسلامي، ومقاصده وعلاقته بالعقيدة والإيمان وذلك في جميع المجالات . ففي المجال الاجتماعي مثلاً اهتم الغزالي بالمقاصد الإيمانية للبناء الأسري، فتبين مكانة المرأة في الإسلام لأنها أهم مداخل أعداءه.

كما اهتم بتبيان مقاصد الشريعة من إقامة الحدود التي هي تعبير على إقامة العدالة الإلهية فوق الأرض، إذ حين غاب تطبيقها بين المسلمين في واقعهم غاب العدل وضاعت الحقوق.

فقد وضع الغزالي من خلال ذلك أن التشريع الإسلامي له أسس عقدية ينبثق منها وله غاية تربوية وخلقية يهدف إليها، وهذا التشريع هو رباني المصدر، وهو ما يجعل الإنسان بذلك يخاف مخالفته خشية من الله، ويقينا منه أن الله ليس بظلام للعباد، وبالتالي يلتزم التطبيق قصد تحقيق سعادة الدنيا والنجاة في الآخرة خلافاً للقانون الوضعي، فهو بشري المصدر (إنتاج بشري) حيث يخلو من الأبعاد الإيمانية، فإذا غابت القوة غاب تطبيقه . ولذلك تنفيذ القانون إذا أنيط بسلطة مادية وحدها كان شديد الإرهاق للناس، فإذا ابتعدت هذه السلطة لم يكن هناك ظل لقانون ولا تقدير لمصلحة⁽³⁾.

و عليه فإن احترام القانون والسعي إلى تطبيقه يرجع في الأساس إلى أصله (مصدره) وغايته وفي هذا يقول: " إن قداسة القانون تعود قبل كل شيء إلى أصله وإلى علاقة الناس بهذا الأصل، فإذا اعتمد القانون على أنه من عند الله جعل الناس هيمنته على أعناقهم جزء من صلاتهم وزكاتهم، والتشريع الذي يستعمل هذه الغاية هو الذي تستقيم به الأحوال وتستقر به

(1) - طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، مرجع سابق، ص 62.

(2) - يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته مصدر سابق ص 84.

(3) - محمد الغزالي: هذا ديننا، مصدر سابق، ص 243-244.

الأوضاع⁽¹⁾. وبهذا فإن الغزالي في فكره يربط دائما عقيدة الإنسان بحياته ربطا وثيقا، فهي المنطلق وهي الغاية، وهي الحياة.

و انطلاقا من هذه القناعة التي هي من مقومات إيمانه، تصدى الغزالي للعلمانية التي تعمل على الفصل بين الدين والحياة، وفي هذا يقرر أنه لا يمكن الفصل أبدا بين الربوبية والحاكمية،

ومن يفعل ذلك فهو مرتد. لقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ

الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾⁽²⁾ وفي هذا يقول: " لا يجوز للناس أن يتخذوا غير الله ربا أو حكما، والذي يبعد عن الله جاحد للحق خائن للثقة وكذلك الذي يتبع غير ما شرع الله ويحكم بغير ما أنزل الله لماذا يعطى بشرا ما حق منازعة الله في أمره ونهيه وتحليله وتحريمه؟ لماذا يملك إنسان ما أن يدع كلام الله جانبا وأن يطرحه وراء ظهره، ثم يأتي لنا من عند نفسه بأحكام يزعم أنها أولى بالإتباع من أحكام الله . أهو أصدق من الله، أهو أبصر منه بمصالح الخلق؟ أهو أذكر لما نسي رب العالمين من حاجات الناس⁽³⁾ .

فالغزالي في تصديه للعلمانية كان ذكيا ومتفطنا ويقظا في ضبط المفاهيم واعيا بأن الحرب على الشريعة محاولة القضاء التدريجي على الإسلام كله، وأن إبعادها عن الحياة هو محاولة طمس لأصول العقيدة لذلك نجده يؤكد في ردوده على الدين الإسلامي هو انقياد مطلق لله فيها أمر ونهي، وأن العلاقة بين الإنسان وربه تقوم على أساس مبدأ السمع والطاعة لقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾⁽⁴⁾.

وقد جاء في حوار للغزالي مع أحد العلمانيين قال له: ماذا عليك لو كسبتم الإيمان

(1) - المصدر نفسه، ص 250.

(2) - سورة الأنعام، الآية: 114.

(3) - محمد الغزالي: هذا ديننا، المصدر السابق، ص 214.

(4) - سورة النساء، الآية: 65.

والأخلاق وتركتهم شؤون التشريع والاقتصاد والاجتماع يعملون فيها وفق العقل الحر والزمان المتجدد؟ أجاب الغزالي موضحا له أن الإسلام كلا متكاملا عقيدة وشريعة لا يقبل البتر والتجزئة، وقد حاول بنو إسرائيل قديما من ذلك فقبل لهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾⁽¹⁾ يقول الغزالي: "إنك يا صاحبي مخادع كبير حين تعزل الإسلام عن الشرائع والمعاملات وحركات الحياة والأحياء... إنك كسبت طائلا"⁽²⁾.

و من ردوده أيضا كتابه الأول: "دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين" الذي أوضح فيه أن هدف هؤلاء العلمانيين هو فتنة المسلمين عن دينهم، وإبعادهم عن عقيدتهم بأروع وسائل الختل والمداهنة، وحين نقرأ كتاب جولد "العقيدة والشريعة" نجد توافقا كبيرا بين أفكاره وما يذهب إليه دعاة العلمانية في العالم الإسلامي.

و كتابه أيضا " من هنا نعلم " الذي جاء ردا على كتاب خالد محمد خالد قبل أن يتوب لله في السنوات العشر الأخيرة من عمره . فقد كان يمضي هذا الأخير في طريق التغريب والعلمانية، ويرى أن الإسلام يمكن أن يقبل القسمة التي قبلتها الكنيسة، فيعطي الدنيا لقيصر ويعطي المسجد لله، وليس لله مكان في حياة الناس الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية، ومن هنا رد الغزالي عليه ردا علميا موضوعيا، مهذبا حتى كشف الله العمى عن بصيرته، وأثمرت توبته في العدول عن آرائه العلمانية كتابه (الإسلام دين ودولة)، أما كتب الغزالي التي قاومت التغريب والعلمانية كتابه " ظلام من الغرب " و كتابه (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين) و " الاستعمار أحقاد وأطماع " و "قذائف الحق " وغيرها⁽³⁾. فضلا عن أفكاره الموجهة ضد العلمانية والتغريب، والميثوق في كثير من كتبه الأخرى وخطبه وحواراته.

(1) -سورة البقرة، الآية: 85.

(2) -محمد الغزالي: جرعات جديدة من الحق المر، مصدر سابق، ج5، ص152-153.

(3) -عبد الحليم عويس، الشيخ محمد الغزالي: تاريخه وجهوده وآرائه، مرجع سابق، ص 89.

و الذي نخلص إليه من خلال ما سبق ذكره، في هذا المبحث أن جهود الغزالي اتجهت إلى إعادة النظرة التكاملية للإسلام وأنه دين عقيدة وشريعة إيمان وعمل خلق وسلوك وكل متكامل حيث أدرك أن الخلل الذي أدى إلى تراجع المسلمين نظرتهم التجزئية وسوء فهمهم للدين الذي أدى إلى التدين المغلوط وانتشار البدع والخرافات . لذا دعا الغزالي إلى تنقية التراث الإسلامي والرجوع إلى نصوص الكتاب والسنة وإلى تجاوز الخلافات وتجنب التعر في الجدل الذي لم يجن من ورائه المسلمون في الجانب العملي إلا الهزيمة والتخلف وكسر الهمم.

أما عن الصعيد الخارجي وبالنسبة للفكر الوافد، فقد حارب الغزالي دعوات التنصير، وتصدى للفكر العلماني ودعاة الاستشراق والتغريب مدركا أن أي مساس بالشريعة هو امتداد للنيل من العقيدة الإسلامية .

بنا القادر للعلوم الإسلامية

الخطبة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في الختام فإن محاولة البحث قد أفضت بي إلى جملة من النتائج: هي كالآتي:

أن محمد الغزالي تأثر وتفاعل كثيرا مع مختلف الأحداث والوقائع التي عايشها طوال حياته، سواء داخل مصر أو خارجها، والتي شكّل الكثير منها محطات بارزة في مشواره الفكري والعقدي، على امتداد سنوات، وقد انعكس هذا التأثير وبدا جليا في مختلف كتاباته، ومواقفه التي حفلت بما حياته، حيث لمست ووقفت على بعض جوانب العظمة الحقيقية في شخصيته وفكره.

مع تعدد وتنوع القضايا التي شغلت اهتمام الغزالي، ونالت منه حظا وافرا من الدرس والتحليل والاستيعاب، فإن الجانب العقدي ومحاولة ربطه بالواقع هو الأكثر انشغالا والأبرز ظهوراً في أفكاره وآرائه، حيث تطرق إلى أغلب قضايا العقيدة، واهتم بتصحيح المفاهيم الخاطئة، كما اتسمت كتاباته العقدية بالعمق في الطرح والقوة في التحليل والاستدلال والموضوعية في المناقشة بقوة الملكة في عرض مسائلها.

استفاد الغزالي من العلماء لكن كان مرجعيته واضحة وهي إرجاع كل شيء إلى ميزان القرآن الكريم والسنة والعقل السليم.

ولقد تبين لي من خلال البحث أن فكره يتسم بالوسطية والاعتدال، والفقهاء الناضج، مما جعله من المؤسسين للرؤية الإسلامية الشاملة، وتأسيس القضايا الجزئية والمشكلات الفرعية في الفكر الإسلامي، وهو بذلك يمثل بعطائه الفكري والعقدي ومشروعه الحضاري، مدرسة لها خصوصياتها وطابعها، لتنوع محاورها، وعلى رأسها العقيدة الإسلامية، وهو بذلك يعتبر امتدادا لمسيرة الكثير من العلماء المسلمين.

كما تبين لنا من خلال عرض فكره العقدي نظريته الوسطية المتوازنة للإسلام، وللإنسان على أنه كل غير متجزئ مادة وروح وعقل، كل طرف يخدم الآخر، ولتجتمع الأطراف كلها فتعطي إنسانا سويا متوازنا مكتمل الشخصية، وأن الإسلام جاء موافقا لهذه الفطرة الإنسانية.

قوة الاعتزاز بالله وشفافية عقيدته، كانت من ثمرات علاقته بالقرآن الكريم، وإدمان النظر في

سياقاته ودلالاته، إلى جانب استدامته في التأمل في الكون وآيات الله في الآفاق وفي الأنفس.

استطاع أن يحافظ على نقاء وصفاء مواقفه وآرائه العقيدية، رغم كثرة الفلسفات والمذاهب المعاصرة، بل نجده قد طوّع بعض أدواتها لخدمتها في تقديم عقيدة صحيحة مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله، ومواجهة التحديات المعاصرة.

ويمكن القول أن محمد الغزالي هو المتكلم الصوفي للاتجاه السلفي في العقيدة وأعني بالاتجاه السلفي هنا ما كان عليه صحابة الرسول وتابعيهم في القرون الثلاث الأولى، لقد احترم كل المذاهب دون تعصب.

كما تتبين أن نظرية المعرفة عنده بوسائلها المتكاملة وأسسها من نقل وعقل وعلم ووجدان غايتها الأولى معرفة الله أولاً، وترسيخ عقيدة التوحيد، وقد أدرك أن المنهج في علم العقيدة يقوم على الجمع بين الفعل والنقل، للحفاظ عليها من المفاهيم الخاطئة.

-أدرك الغزالي واقعه وتأكد أن هذا الاستيعاب لا بد أن يكون على أساس تقرير صرف لا مجال للتقدير فيه، بل يستلزم قدراً كبيراً من الموضوعية والواقعية، وعلى ضوء هذا الاستيعاب خاض في أعماق الداء وبحث عن أفضل الدواء، وأكد على ضرورة الانفتاح عن الآخر للاستعادة من مكاسبه وتجنب سلبياته على سبيل التحليل المقارن، والموازنة المبررة، حتى تتمكن قضايا العقيدة اليوم من مواجهة التحديات الواردة على الصعيد الداخلي والخارجي.

كما فقه أن مشكلة المسلمين اليوم سواء في الجانب العقدي أو في جوانب أخرى ليست معرفة الحق والصواب بقدر ما هي توطين النفس على انتهاجه وترجمته عملاً وسلوكاً.

-أثبتت فصول البحث أن الغزالي رجلاً قرآنياً سعي إلى البرهنة إلى أن الإسلام عقيدة وشريعة، عقيدة وعملاً صالحاً، إيماناً وخلقاً حسناً، وأن القرآن هو صانع النماذج البشرية لبناء الحضارة والاستخلاف الصالح.

فقد بدت آثار تمسكه بالقرآن جلية في قدرته الفائقة، على قراءة مختلف التجارب والقضايا المعاصرة، في ضوء القرآن الكريم، وتمكن من الاستشهاد الدقيق في شتى المواضيع والمسائل العقدية، التي يطرقتها بالآيات، درسه وأدرك أن القرآن لا يحتوي على مباحث نظرية مجردة، بل هو كتاب يعرف الناس برهم وعقيدتهم، بإثارة العقل وتعميق النظر.

إن الدراسة المحيطة بالمشروع الفكري للغزالي، تتطلب فريقا من العمل، ذو كفاءة عالية في البحث، ولست أدعي أن هذه الرسالة قد أتت على الموضوع وأطرافه، وإنما هي محاولة كبدائية تفتح بها محاولات ودراسات أخرى تكشف عن الجانب العقدي للغزالي أو جوانب أخرى، ذلك أن الدارس لفكره والمتأمل لسيرته وعطاءه العلمي يحتاج إلى جهد متواصل ووقت متسع.

تم بحمد الله وعونه

الإسلامية للعلوم والقضايا

المفهارس

جامعة الأمير عبد القادر
العلوم الإسلامية

فهرس الآيات

الصفحة	الرقم	الآيات
سورة الفاتحة		
7	6	﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ ... ﴾
سورة البقرة		
124	8	﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ ... ﴾
83	26	﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَن يَضْرِبَ ... ﴾
102	30	﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ ... ﴾
114	34	﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ... ﴾
164	44	﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ... ﴾
164	44	﴿ اتَّأَمَّرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ... ﴾
248، 97	85	﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ... ﴾
122	111	﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا ... ﴾
71، 70	142	﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتَهُمْ ... ﴾
140، 21	177	﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُولَّوْا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ ... ﴾
80	185	﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ... ﴾
230	190	﴿ وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ ... ﴾
145	197	﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ... ﴾

217	218	﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا ... ﴾
سورة آل عمران		
79	6-5	﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ ... ﴾
79	7	﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ... ﴾
76	19	﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ ... ﴾
97	159	﴿ فِيمَا رَحِمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا ... ﴾
سورة النساء		
97	28	﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾
248	65	﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ... ﴾
89	115	﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ ... ﴾
140	118	﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخَدِّنُكَ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا ... ﴾
88	165	﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ... ﴾
91	171	﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي ... ﴾
سورة المائدة		
216	3	﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالِدَمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ ... ﴾
118	5	﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ... ﴾
221، 83	16	﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ ... ﴾
238	73	﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ... ﴾

237	76	﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ... ﴾
سورة الأنعام		
72	32	﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ... ﴾
174	59	﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ... ﴾
81	79-78	﴿ فَلَمَّا رَأَى السَّمَاسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي ... ﴾
180	93	﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ... ﴾
175	104	﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ ... ﴾
247	114	﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَجْتَعِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ ... ﴾
93	153	﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ... ﴾
سورة الأعراف		
121	36-35	﴿ يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَامًا يَا تَيْبَتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ ... ﴾
167	54	﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ ... ﴾
221، 83	57	﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ ... ﴾
172	70	﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ... ﴾
208	100	﴿ أَوْلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ ... ﴾
198	185	﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ ... ﴾
سورة التوبة		
120	12	﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ... ﴾

175، 87	51	﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ... ﴾
120	105	﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ... ﴾
سورة هود		
175	51	﴿ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُمْ ... ﴾
سورة يوسف		
208	11	﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ... ﴾
118، 117	17	﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ ... ﴾
سورة الرعد		
61	11	﴿ لَهُ، مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ... ﴾
152	28	﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ... ﴾
سورة إبراهيم		
194	10	﴿ قَالَتْ رَسُولُهُمْ أِنِّي شَكُّ فَاطِرٍ ... ﴾
150	14-13	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ ... ﴾
124	25-24	﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ... ﴾
سورة النحل		
150	5	﴿ وَاللَّائِمَةَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ... ﴾
88	35	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ ... ﴾
150	51	﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ... ﴾

151	53	﴿ وَمَا يَكُفُّكُمْ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ... ﴾
89	92	﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ... ﴾
96	125	﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ... ﴾
سورة الإسراء		
45	9	﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ... ﴾
139	24-23	﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ... ﴾
190	44	﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ... ﴾
84	69	﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى... ﴾
102	70	﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ... ﴾
سورة الكهف		
88	29	﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ... ﴾
101	104-103	﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا... ﴾
147	107-106	﴿ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَوَخَّوْا... ﴾
121	107	﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ... ﴾
سورة مريم		
219	41	﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾
سورة طه		
173	6	﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ... ﴾

175	15	﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آئِنَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى ... ﴾
173	55-49	﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴾
221	50	﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى ﴾
158	83	﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾
154	84	﴿ قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾
سورة الأنبياء		
72	10	﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾
76	25	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ ... ﴾
120	94	﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ... ﴾
سورة الحج		
134	30	﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَةَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ ... ﴾
208	46	﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ ... ﴾
174	70	﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... ﴾
سورة المؤمنون		
172	37	﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾
سورة الفرقان		
174	3	﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ... ﴾
201، 62	61	﴿ نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ... ﴾

سورة الشعراء		
161، 159	89-88	﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ...﴾
سورة النمل		
198، 70	3-1	﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾
159	60	﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ...﴾
سورة القصص		
87	70-68	﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ...﴾
135	83	﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا...﴾
سورة العنكبوت		
143	45	﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ...﴾
سورة الروم		
194، 143	30	﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ...﴾
سورة سبأ		
174	3	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ...﴾
سورة فاطر		
150، 191، 88	28	﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ...﴾
سورة يس		
201	40-38	﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ...﴾

سورة الصافات		
219	81-78	﴿ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾
سورة ص		
118	69	﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾
سورة الزمر		
218	3	﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ... ﴾
163	23	﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ... ﴾
196، 192	52	﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ... ﴾
173-163	64-62	﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾
سورة غافر		
219	7	﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ... ﴾
220، 112	40-39	﴿ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَعٌ... ﴾
152	44	﴿ فَسَتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ... ﴾
173	56	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ... ﴾
120	58	﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا... ﴾
سورة فصلت		
194	23	﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكُمْ... ﴾

سورة الشورى		
78	11	﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ... ﴾
203	13	﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ... ﴾
203	13	﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ^ط وَاسْتَقِمْ ^ط كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَنْبَعِ ... ﴾
سورة الجاثية		
225	5-3	﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِمُؤْمِنِينَ ﴾
148	23	﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ... ﴾
171	37-36	﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
سورة الحجرات		
140	11	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ... ﴾
سورة الذاريات		
102	56	﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾
سورة الحديد		
149	16	﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ... ﴾
175	22	﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ... ﴾
سورة المجادلة		
80	1	﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي ... ﴾

سورة الملك		
175	2	﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾
161	10	﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾
176	20	﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ...﴾
سورة القلم		
140	4	﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾
185	43-42	﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾
سورة نوح		
219	28	﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا...﴾
سورة الإنسان		
202	1	﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ...﴾
سورة الشمس		
60	10-9	﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّهَا﴾
سورة الانشراح		
10	6	﴿إِن مَّعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾
سورة العلق		
167	5-1	﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾
سورة الزلزلة		
123	8-7	﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ...﴾

سورة قريش		
118	4	﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾
سورة الماعون		
120	3-1	﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ...﴾

مركز الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأحاديث

الصفحة	طرف الحديث
222	أبصر على عضد رجل...
94	أحب الأعمال إلى الله دوامها وإن قل...
141	أربع من لحسن فيه...
140	أكحل المؤمنين إيماننا أحسنهم خلقا...
94	إن الرسول ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما...
94	إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه...
62، 53	إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس...
144	إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه...
103	أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه...
145	إن من أحبكم إلي وأقربكم مني...
94	إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق...
49	إنما بعثت لأتمم مكارم..
217	أنهم أعمر ينشرون دنياكم...
194	إني خلقت عبادي حنفاء...
92	إياكم والقلوب في الدين...
216	إياكم ومحدثات الأمور...
141	البر حسن الخلق....
144	تبسمك في وجه أخيك صدقة.

149	ثلاث من كفى فيه...
98	ثلاثة نفر جاءوا إلى النبي ﷺ...
187	الحكم ضالة المؤمن...
227	خير الناس قرني...
222	الرضى والتماكم والقوله شرك...
226	عش لآخرتك كأنك تموت غدا....
99	عليكم بما تطيقون...
80	قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمان...
96	لا تشددوا على أنفسهم فيشدد الله...
111	لا يستقيم إيمان المرء حتى يشعر قلبه...
94	لن يشاد الدين أحد إلا غلبه..
141	مؤمنون أنتم...
223	من أحدث في أمرنا...
143	من لم يدع قول الزور والصحابة...
94	من يحرم الرفق يحرم الخير كله...
142	والله لا يؤمن والله لا يؤمن...
148	يا رسول الله إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها...
71	يدعى نوح يوم القيامة...

فهرس الأعلام

الصفحة	العلم
65	إبراهيم السليمي
179	ابن تيمية
188	ابن رشد
157	ابن عجيبة
179	ابن قدامة
126	أبو الأعلى المودودي
179	أبو الخطاب
130	أبو بكر الصديق
77	أبو حامد الغزالي
133	أبو حنيفة
18	أبو زهرة
24	إسماعيل صدقي
31	البشير الإبراهيمي
237	بولس
4	جمال الدين الأفغاني
9	جمال عبد الناصر
5	حسن البنا

189	ديكارت
202	راين
24	سان سيمون
243	سفر الحوالي
13	سيد قطب
32	الشاذلي بن جديد
48	الشافعي
18	طه حسين
31	عبد الحميد بن باديس
30	عبد العظيم الزرقاني
177	عبد الله دراز
103	عبد المجيد النجار
244	عبد الوهاب المسيري
30	عبد الوهاب خلاف
132	علي عبد الرزاق
31	عمار طالبي
130	عمر بن الخطاب
77	فخر الدين الرازي
59	فهمي جدعان
189	كانط
3	كمال أتاتورك

202	لا بلاس
24	لخيشة
133	مالك بن أنس
38	مالك بن نبي
18	محمد البهي
112	محمد الطاهر بن عاشور
123	محمد الفاضل بن عاشور
26	محمد القمراري
18	محمد حسين هيكل
20	محمد خالد محمد
5	محمد رشيد رضا
71	محمد رشيد رضا
28	محمد شلي
26	محمد عبد الله دراز
5	محمد عبود
24	محمد علاء الغزالي
9	محمد علي
39	محمد عمارة
18	محمد يوسف موسى
22	محمود سامي البارودي
18	محمود شلتوت

15	مسعود وفلوسي
38	مصطفى السباعي
17	مصطفى المراغي
18	مصطفى عبد الرزاق
203	موريس بكاي
199	نديم الجسر
199	وحيد الدين خان
37	يوسف القرضاوي

القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

قائمة المصادر

- محمد الغزالي:

1. أزمة الشورى في المجتمعات العربية والإسلامية، دار الشرق الأوسط، 1990.
2. أزمة الشورى في المجتمعات العربية والإسلامية، دار الشروق الأوسط، دط، 1990.
3. الإسلام المقري عليه بين الشيوعية والرأسماليين، دار النهضة، القاهرة، ط2، 1992.
4. الإسلام في وجه الزحف الأحمر، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، وصيدا، دط، دت.
5. الإسلام والاستبداد السياسي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط3، 1984.
6. الإسلام والأوضاع الاقتصادية، مكتبة رحاب، الجزائر، دط، دت.
7. الإسلام والطاقات المعطلة، الزيتونة للإعلام، الجزائر، دط، دت.
8. التأملات في الدين والحياة، دار المعرفة، الجزائر، دط، دت.
9. تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت.
10. التعصب والتسامح في المسيحية والإسلام، نهضة مصر، القاهرة، دط، 1997.
11. الجانب العاطفي للإسلام، دار الشهاب، باتنة، دط، دت.
12. جدد حياتك، دار الهدى، للطباعة والنشر، الجزائر، دط، دت.
13. الجرعات الأخيرة من الحق المر، نهضة مصر، القاهرة، دط، 2000.
14. الجرعات المر، دار المعرفة، الجزائر، دط، دت.
15. جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج، سلسلة الوعي الإسلامي، الجزائر، دط، دت.
16. حصاد الغرور، دار القلم، دمشق، دط، 1998.

17. حقوق الإنسان، دار الهناء للطباعة والنشر، الجزائر، دط، دت.
18. الحياة الأولى، ديوان شعر حقه وكتب مقدمته: مصطفى شكعي، دار الشروق، دط، دت.
19. خلق المسلم، دار المعرفة، الجزائر، دط، دت.
20. دستور الوحدة الثقافية، دار السلام والتوزيع، الجزائر، دط، دت
21. الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، طبعة عين مليلة، الجزائر، ط1، دت.
22. دفاع عن العقيدة والشريعة، دار الكتب الحديثة، مصر، ط3، (1389هـ-1964م).
23. ركائز الإيمان، دار الهناء، الجزائر، دط، دت.
24. سر تأخر العرب والمسلمين، دار القلم، دمشق، دط، 2000.
25. السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، دار الشروق، مصر، ط 13، 1425هـ-2005م.
26. صيحة تحذير من دعاة التنصير، النهضة مصر، القاهرة، دط، 2002.
27. الطريق من هنا، دار الكتب، الجزائر، دط، دت.
28. ظلام من الغرب، دار الشهاب للطباعة والنشر، الجزائر، دط، دت.
29. عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق، دار الشهاب، الجزائر، دط، دت.
30. عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، دط، دت.
31. عقيدة المسلم، دار القلم، دمشق، 1420هـ-1999م.
32. علل وأدوية، دار الشهاب، الجزائر، ط2، 1986.
33. الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، دار الكتب، الجزائر، ط1، 1987.
34. فقه الدعوة ملامح وآفاق، دط، دت، ج1.
35. فقه السيرة النبوية، مكتبة رحاب، الجزائر، دط، 1987م.

36. فن الذكر والدعاء، دار المعرفة، الجزائر، دط، دت.
37. قصة حياة، درا النشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، دط، دت.
38. قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الانتفاضة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1992.
39. مائة سؤال عن الإسلام، مكتبة رحاب، الجزائر، ط1، 1999م.
40. كنوز من السنة النبوية، دار الهدى، الجزائر، دط، دت.
41. كيف تتعامل مع القرآن الكريم، دار المعرفة، الجزائر، دط، دت.
42. كيف نفهم الإسلام، دار الكتب، الجزائر، دط، 1987.
43. ليس من الإسلام، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، دط، دت.
44. المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار المعرفة، الجزائر، دط.
45. مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف نفكر فيه، مكتبة رحاب، الجزائر، ط2، 1989.
46. مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، المحاكم الشرعية بدولة قطر، الدوحة، ط 1، 1402هـ.
47. من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، دط، دت.
48. من هنا نعلم، دار الكتب، الجزائر، دط، دت.
49. نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط 2 (1413هـ-1992م).
50. نظرات في القرآن الكريم، شركة الشهاب، الجزائر، دط، دت.
51. هذا ديننا، دار المعرفة، الجزائر، دط، دت.
52. هموم داعية، منشورات دار الكتب، دار الشهاب، الجزائر، دط، 1987.

المراجع:

- أحمد الإدريسي:
1. فقه الفتن، دار المنهاج، المملكة العربية السعودية، ط1، 1430هـ.
 - أحمد الأنصاري القرطبي:
 2. الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي، للطباعة والنشر، القاهرة، دط، 1967.
 - أحمد بن إبراهيم الهاشمي:
 3. جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف، بيروت، ج2، دط، دت.
 - أحمد بن حنبل:
 4. المسند، مؤسسة قرطبة، القاهرة، دط، دت، ج3.
 - أحمد حجازي السقا:
 5. دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالي، المكتبة الثقافية، بيروت، ط1، 1416هـ-1996م.
 - أحمد شلبي:
 6. المسيحية، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، دط، دت.
 - أحمد طربين:
 7. تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1994.
 - أحمد عسال:
 8. العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، مؤسسة آل البيت، جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية، دط، (1417هـ-1990م).
 - أبو إسحاق الشاطبي:
 9. الموافقات في أصول الأحكام، دار المعرفة، بيروت، دط، دت، ج1.
 - أبو الأعلى المودودي:

10. الأسس الإقليمية للحركة الإسلامية، بيروت، دط، دت.
- الترمذي:
11. سنن الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م.
12. ابن تيمية:
- التدمرية في تحقيق أسماء الله وصفاته، المطبعة السلفية، مصر، ط3، 1400هـ.
13. درء العقل والنقل، جامعة محمد بن سعود، السعودية، دط، 1982م.
14. منهاج السنة، ترجمة: محمد رشاد سالم، مطبعة المدني، القاهرة، دط، دت.
- الجرجاني:
15. التعريفات، تحقيق: عبد المنعم الحفني، دار الرشد، القاهرة، دط، دت.
- جمال الدين القاسمي الدمشقي:
16. تاريخ الجهمية المعتزلة، دار نشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، دط، (1401-1981م).
- أبو حامد الغزالي:
17. المنقذ من الظلال، تحقيق: جميل صليبا، دار الأندلس، لبنان، دط، دت.
- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني:
18. السنن، دار الفكر، بيروت، ط1، 1425هـ-2005م.
- الراغب الأصفهاني:
19. مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تحقيق: صفوان عدنان داودي، الدار الشامية، دار القلم، دمشق، بيروت، ط2، 1418هـ-1997م.
- رمضان خميس الغريب:
20. محاور المشروع الفكري للشيخ الغزالي، دار الحرم للتراث، دط، 2003.
- الزركلي خير الدين:

21. الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1980م.
- سفر الحوالي:
22. العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، الدار السلفية للنشر والتوزيع، بيروت، دط، 1987م.
- سهيلة الحسيني:
23. المرأة في منهج الإمام الغزالي، دار الرشاد، القاهرة، دط، دت.
- سيد قطب:
24. الإسلام والرأسمالية، دار الشروق، بيروت، ط1، 1980.
25. في ظلال القرآن، بيروت، ط2، (1410-1990م)، ج1.
- الشافعي:
26. الديوان، ترجمة: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط3، 2005م.
- شكيب أرسلان:
27. لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، موقع النشر، الجزائر، دط، 1990م.
28. طه عبد الرحمن: العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، ط2، دت.
- عبد الحليم عويس:
29. الشيخ محمد الغزالي صور من حياة مجاهد عظيم، باب الصحوة، القاهرة، دط، 1993.
- عبد القادر بن الطاهر بن محمد أبو منصور البغدادي:
30. الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار بيروت، الآفاق الجديدة، ط2، 1977م.
- عبد القادر نور:
31. حديث الاثنين للشيخ محمد الغزالي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، دت.

- عبد الله حلاق:

32. الصحوة الإسلامية، مناهج، مدارس حركات، دار سبيل الرشاد، بيروت، ط 1، (1420هـ-1999م).

- عبد المجيد النجار:

33. مقتضيات المنهجية لتطبيق الشريعة في الواقع الإسلام الراهن، دار المستقبل، الجزائر، دط، دت.

34. مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، دار البعث الإسلامي، بيروت، ط 1، دت.

- عبد الوهاب المسيري:

35. العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 2002م.

- عزة عبد العظيم الطويل:

36. في النفس والقرآن الكريم، المكتب الجامعي الحديث، ط 3، 2005.

- علاء الدين وحيد:

37. محمد الغزالي وتحطيم القيود، دار السنابل للنشر والتوزيع، مصر، دط، دت.

38. علاء الدين وحيد:

39. معارك محمد الغزالي، دار السنابل للنشر والتوزيع، مصر، دط، دت.

- الفيروزآبادي:

40. القاموس المحيط، دار الكتاب العربي، دط، (1988م-1307هـ).

- قطب عبد الحميد قطب:

41. خطب الشيخ محمد الغزالي، دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ج 1، دط، دت.

- ابن القيم الجوزية:

42. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، بيروت، دار الكتاب العربي،

1392هـ، تحقيق: محمد حامد قفي.

- ابن كثير:

43. تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت، دط، دت، ج4.

- لؤي صافي:

44. حركة التجديد الحضاري بين الاتجاهين الإسلامي والعلماني، دط، دت.

- مازن صالح مطبقاتي:

45. لا بد من البحث على هذا الكتاب في المكتبة، دار القلم، دمشق، ط 1، (1410-1983م).

- مالك بن أنس:

46. الموطأ، تحقيق: محمد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، لبنان، دط، دت.

- مالك بن نبي:

47. شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، ط4 (1407هـ-1987م).

48. وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، دط، 1986.

- محفوظ عزام:

49. الشيخ الغزالي: صور من حياة مجاهد عظيم، مكاتبة رحاب، باتنة، دط، دت

- محمد أحمد عبد القادر:

50. ملامح الفكر الإسلامي بين الاعتدال والعلو، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط، دت.

- محمد السعدي:

51. حول موثوقية الأناجيل، منشورات رسالة الجهاد، ليبيا، دط، 1985.

- محمد الطاهر بن عاشور:

52. تحقيقات وأنظار في الكتاب والسنة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس، دط، 1985.
- محمد الفاضل بن عاشور:
53. روح الحضارة الإسلامية، فرحيننا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دط، 1992.
- محمد باكريم محمد يا عبد الله:
54. وسطية أهل السنة بين الفرق، دار الراية للنشر والتوزيع، ط1، (1415هـ-1994م).
- محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري:
55. صحيح البخاري، تحقيق: محمد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دت.
- محمد بن جرير الطبري:
56. تفسير الطبري، دار الكتاب العربي، للطباعة والنشر، القاهرة، دط، 1967.
- محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني:
57. الملل والنحل، ترجمة: محمد سيد كيلاي، دار المعرفة، بيروت، دط، 1404هـ.
- محمد رشيد رضا:
58. تفسير المنار، دار الباز للنشر، ج2، دط، دت.
- محمد شلبي:
59. الشيخ الغزالي ومعرفة المصحف في العالم الإسلامي، دار الصحوة، القاهرة، ط1، 1987.
- محمد عبد الله دراز:
60. دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، دار العلم، الكويت، (1400هـ-1900م).
- محمد علاء الدين وحيد:
61. محمد الغزالي حارس العقيدة، دار السنابل، مصر، دط، دت.

- محمد عمارة:
62. الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2003م.
63. الشيخ الغزالي: الموقع الفكري والمعارك الفكرية، دار الرشاد، القاهرة، (1418هـ - 1998م).
64. هل الإسلام هو الحل؟ لماذا؟ وكيف؟، دار الشرق، القاهرة، ط2، (1418-1996م).
- محمد يونس:
65. تجديد الفكر الإسلامي على مشارف قرن جديد، دار الهداية والطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، (1419هـ-1999م).
- محمود شلتوت:
66. عقيدة وشريعة دار القلم، القاهرة، ط2، دت.
- مسعود فلوسي:
67. الإمام الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود، دار الجانحة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1999م.
- مسلم:
68. صحيح مسلم، دار ابن الهيثم، لبنان، دط، دت.
- ابن منظور:
69. لسان العرب، دار لسان العرب، سوريا، دط، دت.
70. منهج الشيخ الغزالي في التجديد والإصلاح: أعمال الملتقى الوطني الأول (22-23) أبريل 2001، دار البحث والتوزيع والإعلام.
- يوسف القرضاوي:
71. الشيخ الغزالي كما عرفته، رحلة نصف قرن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1،

1421هـ.

- يوسف عبد الفتاح:

72. التجديد السياسي والواقع العربي، المحاضرة رؤية إسلامية، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، القاهرة، دط، دت.

الدوريات:

1. مجلة إسلامية المعرفة مطبعة رغباش، الجزائر، ع7، عدد خاص بالشيخ محمد الغزالي، 1997.

2. مجلة إسلامية المعرفة مطبعة رغباش، الجزائر، ع4، 1997.

3. ندوة العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، حلقة دراسية من تنظيم الجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية والمعهد العلمي للفكر الإسلامي، واشنطن، 1417هـ-1996م.

4. مجلة المعيار، تصدرها كلية أصول الدين والشريعة والحضارة لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2002.

5. حجية شيدخ: الوصل بين العقيدة والشريعة، رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2002-2003م.

6. إبراهيم نويري: الشيخ الغزالي مفكرا وداعية، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 1998-1999م.

7. مجلة إسلامية المعرفة، الجزائر، مطبعة زعباش، رمضان 1997، ع7.

8. مجلة المسلم المعاصر، ع58، 1991.

المواقع الإلكترونية

1. ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

2. موقع الأستاذ مالك بن نبي: مالك ابن نبي رجل مفكر وحضارة.

3. موقع الدكتور عبد الوهاب المسيري، الجزيرة. نت عبد الوهاب المسيري تاريخ الوصول

2007/7/3.

فهرس الموضوعات

أ	مقدمة
		الفصل الأول: شخصية محمد الغزالي وعوامل تكوينها
3	المبحث الأول: عصره
3	المطلب الأول: الأوضاع السياسية
13	المطلب الثاني: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية
17	المطلب الثالث: الأوضاع الثقافية
22	المبحث الثاني: حياته الشخصية ومراحل تعليمه
22	المطلب الأول: مولده ونشأته
23	المطلب الثاني: تعليمه
27	المطلب الثالث: إنتاجه الفكري
35	المبحث الثالث: معالم شخصيته وفكره
35	المطلب الأول: معالم شخصيته
35	1- القوة والشجاعة الأدبية
41	2- عزة النفس
43	المطلب الثاني: معالم فكره
43	1- الشمول والتنوع
45	2- البساطة في الأسلوب والعمق في الفكرة
53	3- التأصيل والتجديد
63	4- استقلالية الفكر والرأي

الفصل الثاني: خصائص الفكر العقدي للغزالي

70 المبحث الأول: الوسطية والاعتدال
70 المطلب الأول: مفهوم الوسطية
76 المطلب الثاني: وسطية الغزالي في العقيدة
92 المطلب الثالث: موقفه من الغلو والتطرف
102 المبحث الثاني: الربط بين العقيدة والشريعة
102 المطلب الأول: نقد الغزالي لعلم العقيدة القديم
109 المطلب الثاني: الرؤية التجديدية لعلم العقيدة
117 المطلب الثالث: الربط بين العقيدة والعمل (الإيمان)
128 المطلب الرابع: الربط بين العقيدة والفكر السياسي
135 المطلب الخامس: الربط بين العقيدة ومنهج التعليم
138 المبحث الثالث: ربط العقيدة بالأخلاق
139 المطلب الأول: علاقة الإيمان بالخلق
142 المطلب الثاني: علاقة الأخلاق بالعبادات
146 المطلب الثالث: الأخلاق عند الغزالي
153 المطلب الرابع: حقيقة التصوف

الفصل الثالث: فكره العقدي ومواجهة التحديات المعاصرة

167 المبحث الأول: أسس منهجه العقدي
167 المطلب الأول: 1- القرآن
176 2- السنة
187 المطلب الثاني: العقل والوجدان

196	المطلب الثالث: العلم
203	المطلب الرابع: الواقعية
207	المطلب الخامس: التاريخ
213	المبحث الثاني: مواجهة التحديات الداخلية
213	المطلب الأول: التدين المعشوش
214	المطلب الثاني: الفهم المغلوط لعلاقة الدين بالدنيا
216	المطلب الثالث: بدع العقائد
231	المبحث الثالث: مواجهة التحديات الخارجية
231	المطلب الأول: الحضارة الغربية
234	المطلب الثاني: التنصير
241	المطلب الثالث: العلمانية
251	الخاتمة

الفهارس

254	فهرس الآيات القرآنية
265	فهرس الأحاديث النبوية
267	فهرس الأعلام
271	المصادر والمراجع
282	فهرس الموضوعات